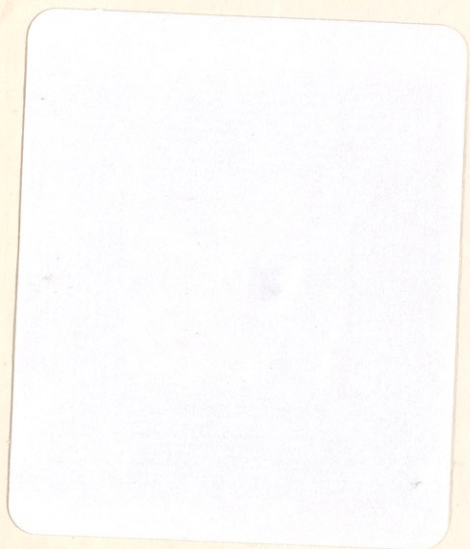


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01034 3493

138811

04-134901





الطاهر بيبرس

وحضارته مصر في عصره

D
198.4

B3

S9

1938

تأليف

محمد جمال الدين سرور

الحائز لدرجة ليسانسيه في الآداب وماجستير في الآداب (M. A.)

مع مرتبة الشرف من الجامعة المصرية

المطبعة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٨

الثنى ١٥ قرشا

مكتبة الانجاء المصرية

OCLC
33993245



B13187132
15021609

297.92
B471

97C, 7
س. م. ظ

20711

تصدير الكتاب

بقلم المؤرخ الجليل الدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بالجامعة المصرية

يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية رسالة ممتعة ممتازة عن "الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره"، كشفت عن كثير من نواحى التاريخ الإسلامى بوجه عام وعن تاريخ مصر فى عصر المماليك بوجه خاص، وحققت رغبة كانت تثوق إليها نفوس الكثيرين من رجال العلم والأدب فى مصر. قد كان من المؤلم أن تظل نواح كثيرة من تاريخنا المصرى الحافل بأسباب العظمة والمجد مجهولة لكثير من المصريين والشرقيين، مع أن فى كشفها كشفا عن صحيفة مشرفة لمصر والشرق الإسلامى كله. ولا ريب أن المؤرخين اذا حدوا حدوا الأستاذ محمد جمال الدين سرور وتقبوا عن هذه الكنوز المدفونة فى بطون الكتب القديمة، فقد أسدوا الى أمتهم وبلادهم أجل الخدمات وأسمائها.

ولقد غنى المؤلف فى هذه الرسالة يبحث مسائل لم يسبقه إليها أحد من المؤرخين، من حيث استقصاء المعلومات التاريخية وتنظيمها بأسلوب جذاب وعبارة طلية وطريقة تحليلية دقيقة. والمطلع عليها يرى أنه قد عاجل فيها نواحى جدية حقا بالبحث لاتصالها بتاريخنا القومى وحضارتنا فى عصر من أزهى العصور فى التاريخ المصرى الإسلامى، كظهور المماليك فى مصر، والعوامل التى أدت الى انتقال الحكم من أيدي الأيوبيين الى المماليك، وكيف ظهر بيبرس على مسرح السياسة المصرية بقوة دهائه وحسن سياسته وبعد نظره وثاقب فكره، وكيف أحيى الخلافة الإسلامية فى مصر بعد أن قضى عليها التتار فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م)، فأصبحت مصر بفضلله مقر الخليفة العباسى وقلب الإسلام النابض، وعاد إليها

مجدها الدارس وعزها التالد منذ أيام الفاطميين الذين اتخذوا القاهرة حاضرة
لخلافتهم ، والذين امتد سلطانهم على البلاد الاسلامية التي بين المحيط الأطلسي
غربا وبلاد العراق شرقا وبين آسيا الصغرى شمالا وبلاد النوبة جنوبا ؛ كما أبان
أيضا كيف وقفت مصر في وجه الحملات الصليبية موقف البطولة والهمة حتى دقت
معقل الصليبيين في بلاد الشام معقلا تلو معقل رغم ما كان يتتابع عليهم من نجات
أوربا المسيحية ، وكيف استطاع بيبرس أن يستولى على إمارة أنطاكية ومهد بذلك
السبيل للقضاء على بقاياهم في عهد الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩٢ م .

وقد حلل الأستاذ جمال الأسباب التي أدت الى فشل هؤلاء الصليبيين
في غزواتهم ، كما بين لنا كيف وقف بيبرس في وجه المغول الطامعين في مصر ،
وكيف قضى على قوتهم في الشام وحال بينهم وبين ما يشتهون ، بعد أن اجتاحت
الخلافة من بغداد وثلوا عروش الممالك التي نازلوها في الشرق والغرب حتى أصبحت
أثرا بعد عين .

ولم يكتف المؤلف بسرد هذه الحوادث وتحليلها ، بل أبان لنا بجلاء ووضوح
كيف كانت مصر في علاقتها بالتنازعها عاملان عظيمان : العامل الأول عامل
ديني نشأ عن اعتناق بركة خان وكثير من أتباعه ببلاد القفجاق الدين الاسلامي
وأيدته المصاهرة التي تمت بزواج ابنة هذا السلطان من الظاهر بيبرس ، والعامل
الثاني عامل عدائي يرجع الى المحالفة التي عقدت بين هولاكو سلطان المغول
في فارس وجماعة الصليبيين الذين كانوا يناصبون مصر العداء .

وقد ألم الأستاذ جمال الإمامة عامة بعلاقات مصر الخارجية في عصر الظاهر
بيبرس مع أمم الغرب وبخاصة مع أمبراطور الدولة البيزنطية ، وكيف استحسنت
عمرى المودة بين الامبراطوريتين المصرية والبيزنطية ، وكيف تبادلتا الرسل والهدايا ،
وكيف توثقت العرى بين مصر وملكي صقلية وأرجونة (Aragon) وأمير إشبيلية ،
وكيف أفادت مصر سياسيا وتجاريا من وراء هذه المحالفات . كما لم يفث المؤلف أن

يبين لنا كيف اتسع نفوذ مصر بين الأمم المجاورة لها والتي ترتبط بها بأواصر قوية من الدين واللغة والتقاليد ببلاد النوبة والحجاز .

وإننى لأتوه هنا بمزيد الغبطة والاعجاب بما كتبه المؤلف عن الحضارة المصرية فى عصر الظاهر بيبرس . فقد أعطى لنا صورة واضحة جلية لا تدع مجالاً للشك فى أن هذا العصر كان من أزهى العصور الإسلامية قاطبة ، فأعاد الى الأذهان عصر الرشيد والمأمون وعصر المعز لدين الله الفاطمى وابنه العزيز فى النظام السياسى والادارى والقضائى والحربى ، وفى العناية بالزراعة والصناعة والتجارة ، وفى ازدهار رياض العلم والأدب ، والرقى الاجتماعى .

ولا غرو فقد بحث المؤلف نظام الحكم فى ذلك العصر ، وكيف عمل بيبرس على حصر وراثته العرش فى أسرته بعد أن كان غنيمة لكل قوى يستطيع التغلب عليه ، مما كان يدعو الى التطاحن والتنافس بين الأمراء . وقد كان من الطريف الممتع ما كتبه المؤلف عن نظام البلاط مما هو قريب الشبه بنظام البلاط الملكى فى عصرنا هذا ، كما بين أن السلطان كان يستعين فى إدارة شئون الدولة بولاة الأقاليم الذين كانوا يقومون بجمع الخراج والرسوم الجمركية والاشراف على شئون البلاد .

كذلك بحث الأستاذ محمد جمال الدين سرور نظام البريد فى عصر بيبرس ، وكيف كانت تبادل الرسائل داخل البلاد المصرية وخارجها بطريق البر والبحر ، وأبان حالة الجيش فى ذلك العهد ، فوضح لنا كيف أعطى بيبرس لجيشه جزءاً كبيراً من عنايته لأنه القوة التى يعتمد عليها ويوطد بها عرشه ، فزاد فى عدده وعدده ، وبنى لمصر أسطولاً كان نواة لأسطول قوى فى عهد دولة المماليك بمصر ، كما توه بما كان لبيبرس من جهود موفقة فى سبيل تنمية الثروة المصرية عن طريق الزراعة والصناعة والتجارة ليستعين بذلك على تعبئة الجيوش لصد الأعداء فى داخل البلاد وخارجها .

ومما يذكر للمؤلف بمزيد التقدير والاعجاب ذلك الفصل الممتع الذي كتبه عن الحياة العلمية والأدبية في ذلك العصر الذي طالما ظن كثير من الناس أنه عصر حروب وتطاحن ، ليس للعلم ولا للأدب فيه حظ . فقد أظهر لنا شخصيات فذة بارزة في نواحي العلم والأدب والشعر والثقافة العامة ، من أمثال : محي الدين بن عبد الظاهر مؤلف كتاب " السيرة الظاهرية " ، والقاضي المؤرخ شمس الدين بن خلكان صاحب كتاب " وفيات الأعيان " ، وجمال الدين بن واصل الذي خلف لنا كتابه " مفتاح الكروب في أخبار بني أيوب " ، والشاعر المبدع شرف الدين البوصيري صاحب الحمزية والبردة . كذلك تكلم الأستاذ جمال عما خلفه الظاهر بيبس من آثار عظيمة رغم انشغاله بالحروب والمعارك طيلة أيامه ، كالمدرسة الظاهرية ، والجامع الظاهري ، وما أدخله من الإصلاحات على الجامع الأزهر .

ولا شك أن المطلع على هذا الكتاب يقف على ما بذله المؤلف من جهد متواصل وبحث عميق وتحليل دقيق واستقصاء للحقائق التاريخية من مصادرها مخطوطة كانت أو مطبوعة ، وهو في نظرنا جدير كل الجدارة بأن ينال حظه من العناية والتقدير لدى جمهور المؤرخين والمثقفين في مصر وغيرها من البلاد العربية ، إذ أنه يتناول بحث عصر يعتبر بحق من مفانح التاريخ الاسلامي .

وإننا لنأمل في الأستاذ جمال أن لا يقف جهوده عند هذا الحد ، وأن يجعل عمله هذا بداية لبحوث أخرى يواصلها في بحث ما غمض من بقية تاريخ المماليك في مصر . والله تعالى يوفقه ويسدد خطاه .

حسن ابراهيم حسن

الجزيرة ، ٢٠ مايو سنة ١٩٣٨

مُقدِّمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين
وعلى آله وصحبه أجمعين !

وبعد، فهذا بحث قدَّمته إلى كلية الآداب، ونلت به وبغيره من الامتحانات
درجة الماجستير في الآداب . وإني الآن أقدمه بين يدي القراء كمجهود ضئيل
ساهمت به في كشف بعض النواحي في تاريخ مصر في عصر المماليك .

وقد حملني على الكتابة فيه شغفي بدراسة تاريخ مصر الإسلامية، ورفع الستار
عن الحقائق التاريخية التي لم تتناولها أيدي الكتاب بالبحث والتحليل . وقد أمعنت
النظر طويلاً في الموضوع الذي أكتب فيه رسالتي، فشرح الله صدرى لبحث عصر
الظاهر بيبرس، لأنه العصر الذي تجلّى فيه عظمة مصر بأجلى مظاهرها . ففيه
وقف بيبرس في وجه الصليبيين وصدّ غاراتهم، كما ناهض التتار عن مصر حتى ردّهم
على أعقابهم فانقلبوا خاسرين، فحفظ وطننا المحبوب من غارات أعدائه؛ ولأنه
العصر الذي ظهرت فيه الحضارة المصرية بمظهر يعتبر نواة لنهضة دولة المماليك التي
قامت عليها نهضتنا الحديثة من قريب أو من بعيد .

وإن أنس لا أنس فضل أستاذي المؤرّخ الجليل الأستاذ الدكتور حسن
إبراهيم حسن أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب، الذي غمرني بفضله وأظنني
برعايته وأمدني بإرشاداته، حتى قمت بتأليف هذه الرسالة على الشكل الذي يراها
القراء عليه . فقد ساعدني مساعدة قيمة في تبويب الكتاب وتنسيقه، وأمدني

بكثير من المعلومات في بحثي هذا، وقد كان من العسير على أن أصل إليها، إذ استقاها لى من مراجع مخطوطة بمكاتب أوربا، كما أرشدني إلى كثير من المراجع المخطوطة والمطبوعة مما له علاقة بهذا الموضوع، وبذل لى كثيرا من ضروب التشجيع خلال قيامى بإعداد تلك الرسالة، ولا سيما في الوقت الذي كنت ألاقى فيه المتاعب في جمع المعلومات المنشورة في بطون الكتب المختلفة .

ولا أنكر أنه لولا مانلته من عنايته وتشجيعه لما قمت بإتمام هذا المؤلف ، كما لا أشك في أنني بفضل ما نلته من هذه الثمرة تجددت عندي عزيمة القيام ببحوث أخرى أتم بها تاريخ دولة المهاليك في مصر .

وإني لأسدى خالص شكرى وعاطر ثنائى لحضرات المؤرخين الأجلاء : الأستاذ محمد شفيق غربال وكيل كلية الآداب ، والأستاذ عبد الحميد العبادى ، والدكتور محمد مصطفى زياده على ما أولونى من تشجيع ورعاية وعلى ما قدموه لى من إرشادات قيمة كان لها أثر كبير في توجيه رسالتى وجهة سديدة .

كذلك أقدم أبجل الشكر لحضرة الأستاذ الشيخ محمد سليمان بدير خريج قسم التخصص بالأزهر الشريف والمدرس بكلية أصول الدين لتفضله بقراءة الكتاب ، كما لا يفوتنى أن أتوه شاكرًا بهذه العناية التى بذلها حضرة محمد نديم أفندى ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية في طبع هذا الكتاب وتنسيقه .

والله أسأل أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه خير بلادنا ونفع أمتنا ما

محمد جمال الدين سرور

القاهرة في { ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٧
١٢ مايو سنة ١٩٣٨ }

محتويات الكتاب

صفحة	تصدير الكتاب
٣	...
٧	مقدمة الكتاب
١٥	...
	بحث في مصادر الكتاب

الباب الأول — نشأة بيبرس

(١) ظهور المماليك في مصر :

٢٥ العناصر الأجنبية في الدولة العباسية — المماليك في عهد الدولتين الطولونية والأخشيدية — الدولة الفاطمية تستخدم الأتراك في جيشها — اعتماد الدولة الأيوبية على الأتراك — استنكار الملك الصالح أيوب من شراء المماليك .

(٢) بيبرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب :

٢٨ أصل بيبرس — تضارب روايات المؤرخين في تاريخ ولادته والجهة التي بيع فيها — دخوله في حوزة الملك الصالح أيوب .

(٣) بيبرس منذ اتصاله بالملك الصالح أيوب الى أن انتصر على الصليبيين بمصر .

تدرج بيبرس في مناصب الدولة — حملة لويس التاسع على مصر — الدور الذي قام به بيبرس في صد هذه الحملة — وفاة الملك الصالح — حالة مصر منذ وفاته الى قدوم تورانشاه إليها — موقعة المنصورة — قدوم تورانشاه إلى مصر — موقعة فارسكور — أسر لويس التاسع والافراج عنه — ازدياد نفوذ المماليك — إحلال تورانشاه ممالكه محل ممالك أبيه في المناصب — إضممار المماليك البحرية السوء لتورانشاه — قتل تورانشاه .

الباب الثاني — حالة مصر قبيل تولية بيبرس سلطتها

(١) انتقال السلطة إلى المماليك :

٣٩ تولية شجرة الدر سلطنة مصر — خروج أهل سورية عن طاعتها — اعتزالها الحكم — تولية المعز أيك أتابك العسكر سلطنة مصر — تنصيب أحد أمراء البيت الأيوبي —

صفحة

رغبة الملك الناصر صاحب دمشق في الاستيلاء على مصر — قدومه إليها وانتهزامه —
 فضل المماليك في صدّ جيوش الناصر عن مصر — ازدياد نفوذهم — إنحسار ثورة
 العرب — المعز أيبك يتخلص من منافسه أقطاي — هروب بيبرس وزعماء المماليك
 إلى البلاد الشامية — إغرائهم الملك الناصر بحاربة مصر — عقد الصلح بين
 المعز والناصر — اغتيال المعز أيبك — تولية ابنه على — المماليك البحريةية يحسنون
 للغيث الاستيلاء على مصر — قدومهم إلى مصر وهزيمتهم عند الصالحية — انتصار
 قطز على المغيـث — رحيل المماليك البحريةية إلى الطور — مغادرتهم الطور وذهابهم
 إلى الملك المغيـث بالكرك — قدوم بيبرس إلى الملك الناصر — تولية قطز سلطنة مصر .

٤٧ (٢) ظهور بيبرس على مسرح السياسة المصرية :

مسير بيبرس إلى غزة — مراسلته الملك المظفر قطز بمصر — قدومه إلى مصر —
 إقطاعه ولاية قلوب — تهديد هولاكو لمصر — استعداد قطز لصدّ غارات التتار —
 ذهابه إلى بلاد الشام — فضل بيبرس في هزيمة التتار عند عين جالوت — طمع
 بيبرس في ولاية حلب — حقد بيبرس على قطز — مقتل قطز .

الباب الثالث — سلطنة الظاهر بيبرس

٥٥ (١) اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها :

تولية بيبرس سلطنة مصر — تلقيبه بالملك الظاهر — استجلابه رضى الرعية .

٥٧ (١) الثورات الداخلية :

سنجر الحلبي ينادى بنفسه سلطانا على دمشق — خروج شمس الدين البرلى
 عن طاعة بيبرس — تحريضه أمراء الشام على الانضمام إليه — هجومه على
 حلب — استيلاء جيوش بيبرس على حلب — هرب البرلى — اعلانه
 الولاء للملك الظاهر — اتفاق الملك المغيـث مع التتار على الاستيلاء على مصر —
 اعتقال الملك المغيـث .

٦٢ (ب) إحياء الخلافة العباسية :

رغبة بيبرس في إحياء الخلافة بمصر — دعوته للامام أحمد للقدوم إلى مصر —
 مبايعته الامام أحمد العباسي بالخلافة — تفويض السلطنة — تجهيز الخليفة
 إلى بغداد — انتهزامه عند هيت ووفاته — مبايعة بيبرس للامام أبي العباس
 أحمد بالخلافة — إضعافه نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله .

(٢) سياسة بيبرس الخارجية :

(١) موقف بيبرس إزاء الصليبيين :

٧٤

• رغبة بيبرس في إحياء الامبراطورية الاسلامية — مناوأة للامارات
اللاتينية — محالفة الدول المحيطة به — نقض الصليبيين للعهود —
قيسارية — أرسوف — صفد — محاولة بيبرس الهجوم على عكا —
مهادنة بيبرس لأميرة بيروت والاستئثار بحصن الأكراد — هجومه على يافا —
استيلائه على الشقيف أرنون — فتح أنطاكية — رغبة إمارة طرابلس وعكا
في موادة بيبرس — استيلاء بيبرس على حصن الأكراد — استيلائه على
حصن عكا — شروع بيبرس في مهاجمة طرابلس — عقده الصلح مع
طرابلس — مهاجمة بيبرس لحصن القرين — تلبية طلبات الصلح مع عكا
وصور — أسباب هزيمة الصليبيين .

(ب) غزو جزيرة قبرس :

٩٦

• أسباب غزو بيبرس لقبرس — مسير أسطول بيبرس لمحاربته — تحطيم
الأسطول — انقضاء أهل قبرس على المسلمين .

(ج) قضاء بيبرس على نفوذ طائفة الاسماعيلية ببلاد الشام :

٩٨

• انحياز الاسماعيلية الى الصليبيين — قدوم رسل الاسماعيلية الى السلطان —
دخول نجم الدين الشيرازي في طاعة بيبرس — استيلاء بيبرس على حصون
الاسماعيلية .

(د) علاقة بيبرس بالمغول :

١٠٠

(١) مغول فارس :

• تحالف التتار مع الصليبيين — إغارة التتار على البيرة — وفاة هولاكو
وتولية ابنه أباقا — اتفاق التتار مع الصليبيين على الإغارة على بلاد
الشام — إغارة التتار على عين تاب — معاودة التتار الهجوم على
البيرة — مسير بيبرس الى الفرات — انتصاره على التتار — اتفاق
البرواناه مع الملك الظاهر بيبرس على القدوم الى بلاد السلاجقة
الروم — شروع بيبرس في الاستيلاء على بلاد السلاجقة الروم —
هزيمة التتار والروم — جلوس بيبرس على عرش سلاطين قيسارية —
مقتل البرواناة — أسباب تقاعد بيبرس عن محاربة التتار .

صفحة

١٠٩

(٢) مغول القفجاق :

مخالفة بيبرس لبركة خان — قدوم بعض التتار إلى مصر واعثناقهم
الدين الاسلامي — تبادل الرسل بين بركة وبيبرس — وفاة
بركة — اعتلاء منكوتمر عرش مغول القفجاق — اتفاقية مع بيبرس
على مناوأة بيت هولاكو .

١١٤

(هـ) علاقة بيبرس بأرمينية :

قدوم هيتوم إلى عين تاب — مسير جيش بيبرس إلى سيس — أسر ليفون —
هيتوم يطلب الصلح — اطلاق سراح سنقر الأشقر — عودة ليفون الى
والده — بيبرس يعاود محاربة الأرمن لتقصهم العهود .

١١٧

(و) علاقة بيبرس بملوك أوربا :

تحالف بيبرس مع امبراطور القسطنطينية — تبادل الرسل والهدايا مع منفرد
ملك صقلية وتسكانيا — توثيق عرى الصداقة بينه وبين شارل صاحب
أنجو — تبادل الهدايا بين بيبرس وأمير أشبيلية .

١١٩

(ز) اتساع نفوذ بيبرس في بلاد النوبة :

امتناع بلاد النوبة عن دفع الجزية لبيبرس — مساعدة بيبرس لشكندة على
استرداد ملكه من ابن أخيه داود — هزيمة داود — تعهدات شكندة لبيبرس .

١٢٢

(ح) ازدياد سلطة بيبرس في الأماكن المقدسة بالحجاز .

١٢٣

(ط) تبادل المراسلات بين نجاشي الحبشة وبيبرس .

الباب الرابع — حضارة مصر في عصر الظاهر بيبرس

١٢٧

(١) النظام السياسي والاداري :

اهتمام بيبرس بشئون مصر الداخلية — نظام الحكم في عصر بيبرس — حصر وراثته
العرش في أسرته — تولية الملك السعيد عهد السلطنة — كراهية المماليك لنظام وراثته
العرش — أثر ذلك في نزول الملك السعيد عن العرش — انتقال السلطة من بيت
بيبرس الى بيت قلاوون — استعانة بيبرس بالأمرء المقربين له في إدارة شئون
الدولة — نائب السلطان — الوزير — ناظر الدولة — ناظر الخاصة —
الحاجب — الاستادار — الدوادار — الأمير جاندار — ولاية الأقاليم —
صاحب العسس — ديوان الانشاء — البريد .

صفحة

١٣٧

(٢) القضاء :

دار العدل — تفويض قضاء مصر لتاج الدين بن بنت الأعز — تعيين بيبرس أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة .

١٤٠

(٣) الجيش والبحرية :

الجيش في عهد الملك الصالح — جزيرة الروضة واهتمام بيبرس بعمارها — استئجار بيبرس من شراء المماليك — عنايته بتربيتهم تربية دينية عسكرية — طبقات الجند — أزيائهم — مرتباتهم — اهتمام بيبرس بإنشاء دور صناعة السفن — تقدم مصر في ميدان الصناعة الحربية والبحرية .

١٤٥

(٤) الحضارة المادية :

عناية بيبرس بالزراعة — حفر الترع وتطهير الخلجان — ازدياد محصولات مصر — عناية بيبرس بغرس البساتين — ترقية مراكز الصناعة — الآلات الحربية — المنسوجات الصوفية — صناعة الفرش والبسط — صناعة السكر — مهارة الصناع المصريين — تقدم التجارة في عصر بيبرس — عقد المعاهدات التجارية — ازدياد تجارة مصر الخارجية — التجارة الداخلية — أسواق القاهرة — موارد الدولة المالية .

١٥٤

(٥) منشآت بيبرس :

المدرسة الظاهرية — الجامع الظاهري — إصلاح الجامع الأزهر — قناطر السباع — إصلاح منارقي الاسكندرية ورشيد — قرية الظاهرية — إصلاح الحرم النبوي — فن العمارة في عصر بيبرس .

١٥٨

(٦) الحياة العلمية والأدبية :

عناية بيبرس بنشر العلوم الإسلامية — العلماء والأدباء في عصر بيبرس . (محيي الدين ابن عبد الظاهر — ابن خلكان — ابن واصل) — النثر الفني — النظم — الشعراء في عصر بيبرس .

١٦٤

(٧) الحالة الاجتماعية :

عناصر السكان بمصر — موقف المماليك إزاء المصريين — جالية التتار بمصر — الفرنجة — حرص بيبرس على نشر الفضيلة .

١٧١

خاتمة القول في بيبرس

نجاح بيبرس في إعلاء شأن مصر — اكتسابه محبة الأهلين — شجاعته — عدله — تخفيفه أعباء الحياة عن شعبيه — ما يأخذه المؤرخون على بيبرس — وفاته .

١٧٧

مصادر الكتاب

... ..

(١) : تفسيره

٧١

٧٢

... ..

(٢) : تفسيره

٧٣

... ..

(٣) : تفسيره

٧٤

... ..

(٤) : تفسيره

٧٥

... ..

(٥) : تفسيره

٧٦

... ..

(٦) : تفسيره

٧٧

... ..

... ..

٧٨

... ..

(٧) : تفسيره

٧٩

بحث في مصادر الكتاب

تمتاز المراجع المخطوطة التي اعتمدت عليها في كتابي هذا بأن مؤلفيها عاشوا في عصر المماليك وأدرك بعضهم عهد بيبرس نفسه كما أن بعضهم تولى بعض الأعمال الإدارية في مصر في عهده وفي عهد من خلفه من سلاطين المماليك ولذلك فإنها تعد من هذه الناحية ذات أهمية تاريخية في دراسة عصر الظاهر بيبرس .

ومن المؤرخين الذين عاشوا في أيام الملك الظاهر : جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) مؤلف كتاب "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" وهو مخطوط بدار الكتب الملكية ويعتمد عليه في دراسة تاريخ الدولة الأيوبية وصدر دولة المماليك بمصر . وقد اعتمدت عليه في استقصاء تفاصيل حياة بيبرس الأولى وما قام في وجهه من الصعاب على أثر توليته سلطنة مصر . فهو من هذه الناحية يوضح السبب الذي من أجله غدر بيبرس بالملك المغيث صاحب الكرك الذي خرج عن طاعة بيبرس على أثر توليته سلطنة مصر . ويمدنا هذا المرجع أيضا بمعلومات لها قيمتها التاريخية فيما يختص بعلاقة بيبرس بجزيرة صقلية . ويؤخذ مما جاء بهذا المرجع بصدد هذه المسألة أن مؤلفه ذهب الى جزيرة صقلية سنة ٦٦١ هـ رسولا من قبل الملك الظاهر يحمل هدية الى ملكها وأنه انقطع عن الكتابة منذ هذه السنة وواصل تلميذه الكاتب كتابته الى سنة ٦٨٠ هـ ملخصا عن كتاب آخر اسمه التاريخ لا يعرف اسم مؤلفه .

أما بيبرس الدوادار المتوفى سنة ٧٢٥ هـ صاحب كتاب "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" وهو مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية فقد تولى بعض المناصب الإدارية في عهد السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد . قلده قلاوون ولاية الكرك ثم عزله

ابنه الأشرف خليل . وعندما تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر سنة ٦٩٣ هـ عينه رئيسا لديوان الانشاء ولقب منذ ذلك الوقت بالدوادار^(١) وأخذ يترقى في مناصب الدولة حتى عين نائبا للسلطان سنة ٧١١ هـ . ومن ذلك نرى أن هذا المؤلف كان يكتب عما شاهده في مصر في ذلك العصر . فكتاباه يعتبر من المراجع الهامة في دراسة التاريخ السياسى في عهد الظاهر بيبرس وعهد من خلفه من السلاطين إلى أوائل عهد الناصر محمد بن قلاوون . وقد اعتمدت على هذا المرجع في دراسة موقف بيبرس إزاء الصليبيين وعلاقته بمغول فارس وكيف استطاع الملك الظاهر أن يقضى على نفوذ المغول ويوقع بهم الهزيمة بعد أن انضم إليهم سلاجقة آسيا الصغرى سنة ٦٧٥ هـ .

يأتى بعد ذلك الشيخ قطب الدين اليونينى المتوفى سنة ٧٢٦ هـ صاحب كتاب "الذيل على مرآة الزمان" وهذا المرجع مخطوط بدار الكتب الملكية وقد ضاع جل أجزائه . ولم يبق منه إلا الجزءان الخامس عشر والسابع عشر . وهذا الجزء الأخير هو الذى اعتمدت عليه فى كتابى . وقد عثر عليه رجال دار الآثار العربية مدفونا بجامع قايتباى وذلك سنة ١٨٨٢ م . وربما كان هذا هو السبب فى ضياع بعض أوراقه وتمزيق البعض الآخر . وعلى الرغم من الصعوبة التى لاقيتها فى قراءة هذا الكتاب فإننى استطعت أن أستفيد منه بعض الفائدة وخاصة فيما يتعلق بنشأة بيبرس . فقد أمدنا هذا الكتاب برواية فى هذا الصدد أشرت إليها فى كتابى وهى تخالف ما ذكره كل من ابن واصل والمقرئزى عن نشأة بيبرس كما أفاض القول فى وفاة بيبرس وأسبابها وما قام به من الأعمال الجليلة التى خلدت ذكره .

ومن المراجع الهامة التى اعتمدت عليها أيضا كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب" لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م)

(١) الدوادار : هو الكاتب . وهذا اللفظ مأخوذ من الدواة فكأن معناه صاحب الدواة .

فالجزء الثامن والعشرون من هذا المخطوط المحفوظ بدار الكتب الملكية والذي لم يتم طبعه بعد يمدنا بمعلومات هامة عن سياسة بيبرس الخارجية وخاصة فيما يتعلق بحروبه مع الصليبيين والمغول وموقفه إزاء طائفة الإسماعيلية ببلاد الشام . وقد اعتمدت على هذا المخطوط في بحث موضوع إحياء الخلافة العباسية بمصر وعلاقة بيبرس بالصليبيين والمغول وما أدخله بيبرس من التعديلات على نظام القضاء بمصر .

ومن بين الكتب الخطية التي اعتمدت عليها أيضا كتاب "رفع الإصر عن قضاة مصر" لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) وهو مخطوط بدار الكتب الملكية . وقد أعانني على معالجة أحد مواضيع كتابي وهو نظام القضاء في عصر بيبرس .

وهناك مرجع آخر اعتمدت عليه في بحث سياسة بيبرس الخارجية وهو عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لبدر الدين محمود العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ . فالجزء العشرون من هذا المخطوط المحفوظ بدار الكتب الملكية يمدنا بكثير من المعلومات عن علاقة بيبرس بالصليبيين والمغول وأسباب غزو بيبرس لجزيرة قبرس . ومما هو جدير بالملاحظة أن مؤلف هذا الكتاب كثيرا ما ينقل عن بيبرس الدوادار صاحب كتاب "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" .

كذلك اعتمدت على الجزء الثالث من كتاب "النجوم الزاهرة" لأبي المحاسن ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٥٤ م) وهو مخطوط بدار الكتب الملكية . وقد أخذت دار الكتب في نشره وانتهت منه الى أواخر عصر الدولة الأيوبية . وقد أمدني بكثير من المعلومات عن نشأة بيبرس الأولى والأدوار التي مر بها قبل دخوله في حوزة الملك الصالح . وهو يروى لنا رواية عن نشأة بيبرس تشبه تمام الشبه ما ذكره اليوناني عن نشأته . كذلك يمدنا هذا الكتاب بمعلومات مستفيضة عن كيفية اعتلاء بيبرس سلطنة مصر ومبايعته للخليفة العباسي ومحاربتة للصليبيين

والمغول وعن منشأته وما أدخله بيبرس من التعديل على نظام القضاء المصرى وما الى ذلك مما قام به من الأعمال الداخلية والخارجية . وكثيرا ما ينقل مؤلف هذا الكتاب عبارات برمتها عن كتاب " السلوك لمعرفة دول الملوك " لتقى الدين المقرئى .

وهناك أيضا كتاب آخر له أهمية خاصة فى دراسة الحياة الأدبية فى عصر الظاهر بيبرس وهو كتاب " عيون التواريخ " لابن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م) المخطوط بدار الكتب الملكية . فالجزء الحادى والعشرون من هذا المرجع يمدنا بكثير من المعلومات عن هذه الحياة ويذكر لنا كثيرا من الشعراء الذين عاشوا فى ذلك العصر وما قرضوه من الشعر . وعلى الرغم من أن هذا المرجع يحوى الكثير من الأشعار التى نظمت فى عصر بيبرس إلا أنه يصعب على القارئ قرائتها لضياغ كثير من كلماتها ، فضلا عن ذلك فإن هذا الكتاب يمدنا بمعلومات وافية عن الحروب التى وقعت بين بيبرس والصليبيين ومغول فارس وعن ازدياد نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة .

ومن المصادر التى تناولت الكلام عن صفات بيبرس واصلاحاته وحروبه مع الصليبيين والمغول كتاب " المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية " لمؤلفه شافعى بن على بن عباس . وهو مختصر قصيدة نظمها أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر فى مدح الظاهر بيبرس . وكان ابن عبد الظاهر قد طلب منه أن يختصرها وينثرها . وفى ذلك يقول ابن عباس^(١) " وكان كاتب سره البليغ محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن شيخ الاسلام رشيد الدين عبد الظاهر قد افتتح أيامه بنظم سيره رتل منها سور محاسنه صورة صورة وأرخ وقايعه (كذا فى الأصل) التى هى فى صحايف (كذا فى الأصل) حسناته مسطورة فأطال وأطاب وخطب بأمتع خطاب وأتى على مجموع أيامه يوما يوما ... لكن اقتضى الحال أن يثبت منها الغث والسمين وأن

(١) المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ورقة ١٤ .

يكرر ما يشافه به سمع سلطانه من اطراء وإن كان فيه صادق لا يمين . وكان رحمه الله قد تحدث معي في اختصارها فلم يتفق في حياته ولم يقع تأديبا معه في اثبات لقبه ونفى إثباته . وقد اختصرتها رغبة في الإيجاز الذي هو عين البلاغة وعذوبة مياه الفصاحة المساعة وذكرت منها الأهم المقدم لتلذ مطالعتها وتروق مراجعتها وبالله التوفيق .

وهناك مراجع أخرى مطبوعة اعتمدت عليها في استقصاء سياسة الملك الظاهر الخارجية . ومن أهمها : "كتاب النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد" لمفضل ابن أبي الفضائل الذي لا تعرف سنة وفاته وكل ما نعرفه عنه أنه انتهى من كتابه سنة ٧٣٥ هـ . وتختصر أهمية هذا الكتاب في أن مؤلفه عاش في مصر في عصر الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٧٤١ هـ) واعتمد على كثير من المراجع الهامة المعاصرة التي لا تزال مخطوطة الى الآن . نخص بالذكر منها كتاب "السيرة الظاهرية" لمحبي الدين بن عبد الظاهر و "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" لبيرس الدوادار و "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري . وعلى الرغم من أن مفضل بن أبي الفضائل كان مسيحي المذهب فانه اتبع في تأليفه الخطة التي سار عليها المؤرخون من المسلمين فبدأ كتابه بالبسملة وأرخ الحوادث بالسنين الهجرية . وقد أمدني هذا الكتاب بحقائق تاريخية عن اتساع نفوذ بيرس ببلاد النوبة وعن المراسلات التي تبودلت بينه وبين نجاشي الحبشة وبه فوق ذلك كثير من المعلومات الهامة عن سياسة بيرس إزاء الصليبيين والمغول .

كذلك اعتمدت على كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" لتقي الدين المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) عند بحث حالة مصر قبيل اعتلاء بيرس عرش السلطنة بها ، وسياسته الخارجية مع الصليبيين والمغول ، وعلاقته بالملوك الشرقيين والغربيين المعاصرين له ، وما قام به من الإصلاحات . والمقرئ في كل هذه الموضوعات يمدنا بكثير من المعلومات القيمة . ومما يلاحظ عليه أنه ينقل كثيرا عن النويري فيما يتعلق بكلامه عن الأيوبيين والمماليك .

وهناك كتاب آخر اعتمدت عليه وهو كتاب "المختصر في أخبار البشر" لأبى الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) . وقد أمدنى بمعلومات هامة عن الأمراء الذين خرجوا عن طاعة بيبرس على أثر اعتلائه عرش مصر، كما أعاننى على بحث مسألة إحياء الخلافة العباسية بمصر . هذا وغيره خاف ما لغير ما ذكرنا من الكتب من جليل الفائدة لهذا البحث مثل كتاب "العبر وديوان المبتدا والخبر" لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) . وتاريخ الخلفاء للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) . و "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" لابن إياس المتوفى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ م) .

ومن أهم المصادر وأمتعتها فى بحث النظم الادارية والمالية فى عصر بيبرس كتاب "صبح الأعشى فى صناعة الانشا" لأبى العباس أحمد القلقشندى ، وكذلك كتاب "المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار" للقريزى ، و "حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة" للسيوطى . فيمدنا السفر الأول بكثير من المعلومات عن ديوان الانشاء . وقد أفرد القلقشندى الجزئين الأول والثانى من كتابه فى التعريف بهذا الديوان وفى بحث نشأته فى الإسلام إلى زمنه ، كما يمدنا بمعلومات هامة عن الوظائف والموظفين فى ذلك العصر وعن الطبقات التى كان يتكون منها الجيش وعن نظام البريد والقضاء وما أحاط سلاطين الممالك من أهبة وجلال . أما كتاب الخطط للقريزى فقد اعتمدت عليه فى وصف منشآت بيبرس والأسواق التجارية التى كانت فى عصره كما ساعدنى على بحث النظام الإدارى فى عصره والوظائف الهامة التى أنشأها . كذلك يمدنا السيوطى ببعض المعلومات عن الموظفين فى ذلك العصر ومهمة كل منهم وعن القضاة الذين تولوا قضاء مصر فى عصر بيبرس ومن خلفه من سلاطين الممالك .

وهناك كتاب تهافت على قراءته العامة وبعض الخاصة ويعرف بالسيرة الظاهرية ويقع فى ثلاثين جزءا . وكنت أظن أنه يحوى شيئا ذا غناء فى سيرة هذا

البطل العظيم ولكنى تصفحته فاذا هو يحوى طائفة من الخرافات والأخبار المشوهة التى لا يصح أن يعتمد عليها الباحث الحديث، لذلك أهملتها واكتفيت بالمراجع الموثوق بها .

ومن المصادر الافرنجية التى اعتمدت عليها كتاب :

Sir William Muir, "The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt" وقد أمدنى بعض المعلومات عن سياسة بيبرس إزاء الصليبيين والمغول، وعن رغبة بيبرس فى حصر وراثته العرش فى أسرته وما ترتب على ذلك من الحوادث .

وهناك كتب أخرى اعتمدت عليها فى بحث موقف بيبرس إزاء الصليبيين وهى: كتاب "The crusaders in the East" Stevenson، وكتاب Barker, "The crusades" وكتاب : King, "The Knights Hospitallers in the Holy Land" . وهذه الكتب لم تفصل القول فيما قام به بيبرس من الأعمال الجليلة ببلاد الشام للقضاء على نفوذ الصليبيين .

كذلك اعتمدت على الترجمة الانجليزية لمذكرات جوائيل عن حملة لويس التاسع على مصر : "Memoirs of the crusades" by Villehardouin & Joinville, translated by Sir Frank Marzials. Davies و كتابه : "Invasion of Egypt in A.D. 1249 by Louis IX of France" و Stanley Lane-Poole فى كتابه : "A History of Egypt in the Middle Ages" عن هذه الحملة أيضا . وعلى الرغم من أن جوائيل قدم الى مصر مع لويس التاسع وشاهد المعارك التى وقعت بين المصريين والصليبيين فإنه لم يمدنا بمعلومات ذات غناء عن نصيب بيبرس فى صدّ هذه الحملة وكذلك ديفز (Davies) الذى اعتمد على ما كتبه جوائيل فى مذكراته لا يمدنا بمعلومات هامة فى هذا الموضوع . أما (Stanley Lane-Poole) فقد وضع لنا فصل بيبرس وفرقة الممالك

في صدّ حملة لويس التاسع عن مصر ، كما تكلم عن علاقة بيبرس بملوك أوروبا وما عقده معهم من المحالفات والمعاهدات التجارية .

ومن الكتب التي اعتمدت عليها في دراسة علاقة بيبرس بالمغول كتاب Browne, "Literary History of Persia" ، فهذا المرجع يمدّنا بكثير من المعلومات عن سقوط بغداد على يد هولاكو وما ترتب على ذلك من القضاء على الخلافة العباسية ، وعن الدور الذي قام به بيبرس في صدّ جنود هولاكو المغولية في موقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) قبل اعتلائه سلطنة مصر ، كما يوضح لنا أيضا ما كان بين بيبرس ومغول فارس من العداء وما كان من تغلبه عليهم في موقعة قيسارية سنة ١٢٧٧ م .

وهناك كتاب آخر اعتمدت عليه في بحث علاقة بيبرس بالمغول الذين يقطنون ببلاد القفجاق وهو كتاب : Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam : وقد أمدّنا هذا الكتاب بمعلومات هامة عن كيفية انتشار الاسلام بين أهالي القبيلة الذهبية ببلاد القفجاق وما ترتب على ذلك من قدوم كثير من المغول الى مصر واعتناقهم الاسلام بها .

ومن الكتب الممتعة التي اعتمدت عليها في بحث حضارة مصر في عصر الظاهر بيبرس كتاب : Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age وقد أعانني هذا الكتاب على بحث تجارة مصر الخارجية في عصر الظاهر بيبرس والمعاهدات التجارية التي عقدها الملك الظاهر مع ملوك أوروبا وبعض الأمراء الشرقيين .

الباب الأول

نشأة بيبرس

- ١ - ظهور المماليك في مصر .
 - ٢ - بيبرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب .
 - ٣ - بيبرس منذ اتصاله بالملك الصالح إلى أن انتصر على الصليبيين بمصر .
-

كتاب الالهي

الباب الاول نشأة بـيـبرس

١ - ظهور المماليك في مصر

يجل بنا قبل أن نمضى فى الكلام عن حياة بـيـبرس أن نوجز القول عن ظهور المماليك فى مصر . ولا بأس من أن نرجع قليلا الى تاريخ الدولة العباسية التى وضعت الأساس الأول لاستخدام عناصر أجنبية تقوم بإدارة الدولة دون الاعتماد على عصبيتها . تلك السنة التى كان لها أكبر الأثر فى اضمحلالها والتى درج عليها بقية الدول الإسلامية بعدها .

قامت الدولة العباسية فى مبدأ أمرها على أكتاف الفرس ^(١) . ومن ثم كان لهم الخطوة التامة عند الخلفاء العباسيين . فقد ألقوا اليهم مقاليد الدولة كما عهدوا اليهم بالشئون الخطيرة فيها كالوزارة والمجابهة وما الى ذلك من مهام الدولة . نرى ذلك جليا فى بيتى بنى برمك وبنى سهل . بيد أن هؤلاء الفرس لم يقفوا عند هذا الحد . بل أخذوا فى سلب السلطة تدريجيا من أيدي الخلفاء العباسيين . ولقد شعر بذلك بعضهم فأوقع بهم قبل أن يوقعوا به وأدرك العباسيون أنهم فى الواقع مع الفرس كالمستجير من الرمضاء بالنار ؛ ذلك أنهم أبعادوا العرب عن مناصب الدولة ولم يعد فى استطاعة الخلفاء أن يعيدوهم الى ما كانوا عليه من سلطة ونفوذ ولم يبق أمامهم إلا البحث عن عنصر جديد بعيد عن أهواء العرب السياسية ومصالح الفرس الخاصة . فلجأوا الى العنصر التركى لاعتقادهم أنه مجرّد من الطموح الذى امتاز به الفرس والعصبيّة التى عرف بها العرب . وهذه السياسة نراها واضحة فى عهد

(١) Sir William Muir, The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, p.433.

المعتصم الذي اصطنع الأتراك واستخدمهم في جيشه وعهد اليهم بولاية الأقاليم؛ غير أنه سرعان ماظهر خطأ هذه السياسة فتدخل هؤلاء الأتراك على مر الأيام في تولية الخليفة وعزله اذا لم يحز رضاهم . ظهر ذلك جليا بعد وفاة الواثق (٢٣٢ هـ) حيث عرض عليهم ابنه فلم يوافقوا على توليته لصغر سنه ثم أشير عليهم بجعفر بن المعتصم فلقى هذا الاختيار قبولا لديهم؛ ومن ثم لم يجد الناس بدا من مبايعته .

وهكذا صار أمر الخلافة بأيدي هؤلاء الأتراك . وهذا يفسر لنا طمع الأمراء واستقلالهم بالأقاليم الاسلامية الأمر الذي أضعف الخلافة العباسية وأدى الى سقوطها في النهاية على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وأما استخدام المماليك في مصر فانه يرجع الى أيام الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) ، [٨٦٨ - ٩٠٥ م] . فقد اشترى أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة المماليك من الديلم ليقوى بهم جيشه . وقد ذكر ابن إياس أن عدد هؤلاء المماليك وصل الى أربعة وعشرين ألف مملوك . ثم جاءت الدولة الاخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ، [٩٣٥ - ٩٦٩ م] وعلى رأسها محمد بن طغج الاخشيد . وكان معظم الجيش في عهده وعهد من جاء بعده من أولاده من الأتراك والديلم . ويروى لنا أبو المحاسن^(٤) "أنه كان متجملا في موكبه وملبسه . فكان موكبه يضاهي موكب الخلافة وبلغت عدة ممالিকে ثمانية آلاف مملوك" . ولما جاء الفاطميون الى مصر (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ، [٩٦٩ - ١١٧١ م] وأسسوا بها دولتهم ساروا على طريقة العباسيين في الاعتماد على غير أبناء جنسهم وأصبح جيشهم يتألف من عدة عناصر أهمها :

(١) ابن طباطبا: الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢١١؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣

• Sir William Muir, The Caliphate. p. 513

(٢) Sir William Muir. Op. Cit. p. 523. (٣) تاريخ مصر: ج ١ ص ٣٧

(٤) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ج ٣ ص ٢٥٦

- (١) المغاربة الذين قامت على أكتافهم هذه الدولة في بلاد المغرب .
- (٢) السودان الذين استكثر منهم الخلفاء منذ أيام المستنصر .
- (٣) الأتراك الذين اشتراهم الخلفاء المتأخرون ليكونوا عماد جيشهم وعلى الأخص بعد خروج بلاد المغرب عن سلطانهم في عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) . وعلى يد هؤلاء كان انحلال الدولة الفاطمية وزوالها سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وذلك بسبب قيام العداء بينهم وبين السودان من جهة والتنافس بين رجالهم على الوزارة من جهة أخرى واستعانة بعضهم بالصلبيين مما أوجب تدخل نور الدين محمود صاحب دمشق في أمر مصر وإرساله الجيوش مع أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب . فقصوا على البقية الباقية من استقلال الخلفاء الفاطميين .

وقد نجح صلاح الدين في توطيد سلطته في مصر وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة وسقطت الى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . وعلى أثر وفاة هذا الخليفة تم استقلال صلاح الدين^(١) مؤسس الدولة الأيوبية في مصر (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ) ، [١١٧١ - ١٢٥٠ م] ولم يكن سلاطينها مصريين - كما نعلم - بل كانوا أجانب عن هذه البلاد . جاءوا إليها من أذربيجان^(٢) ، وقد عملوا على جلب الأتراك إليها وبذلوا الأموال الضخمة في شرائهم بغية الاعتزاز بقوتهم .

(١) كان صلاح الدين قد تولى الوزارة بعد وفاة شيركوه وبدأ عمله بالانتصار على الفرنجة في دمياط فاعتبره المصريون حاميا لهم ثم عمل تدريجيا على تقوية مركزه في مصر . فأرسل اليه نور الدين يرغبه في إحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل الخليفة الفاطمي . غير أن صلاح الدين تردد في تنفيذ هذه الرغبة حتى لا يثير أهالي مصر . وكان الخليفة في ذلك الوقت مريضا . فعقد صلاح الدين مجلسا من الأمراء استشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة فوافقهم بعضهم وتردد البعض الآخر وكان في هذا المجلس رجل فارسي اعزم أن يتولى بنفسه هذا الأمر فصعد المنبر ودعا للمستضى العباسي . ولما لم يحتاج أحد على ذلك أمر صلاح الدين بأن يخطب الخطباء باسم الخليفة العباسي . وبعد أيام قلائل توفي الخليفة العاضد فاستولى صلاح الدين على قصره وسقطت بذلك الدولة الفاطمية . الفاطميون في مصر : الدكتور حسن ابراهيم ص ٣٠٨ و ٣١١ - ٣١٢ (٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٦٩

وكان أكثر الأيوبيين استجلابا لهذه الطائفة الملك الصالح نجم الدين أيوب .
فقد روى لنا أبو المحاسن وابن إياس^(١) أن الصالح أكثر من شراء الممالك بعد أن آل
إليه حكم مصر حتى كان عامة عسكره منهم . ولما خذله أنصاره وانقض عنه أعوانه
من الأكراد وجد فيهم عدته فاعتز بهم وأكثر من شرائهم ؛ فتكوّن عنده منهم جمع
غفير زاحوا أهل البلاد وسرعان ما انتشر بينهم الفساد حتى ضج الأهلون وقال
في ذلك بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر محبوب
قد أخذ الله أيوبا بفعلته فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب
يشير الشاعر بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ
وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .
[سورة الأنبياء]

٢ - بيبرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب

نبغ من بين الممالك الذين استكثر منهم الملك الصالح عدّة رجال كان لهم أثر
كبير في تغيير مجرى السياسة المصرية نخص بالذكر منهم بيبرس ذلك المملوك الذي
أصبح فيما بعد سلطانا على مصر وعمّ صيته أكثر بقاع الأرض وصار بعد وفاته موضع
حديث الناس وسمّهم يتغنى المصريون بأخباره ويترنمون بما قدّم لهم وللمالك
الإسلام عامة من جليل الأثر وعظيم المفانر .

وعلى الرغم من أن بيبرس قام بكثير من الأعمال الجليلة التي خلدت ذكره فانا
لا نجد له في كتب التاريخ ما يشفى الغلة عن تفاصيل حياته الأولى ولا ما يكشف
لنا القناع عن تطوّراته منذ ولد إلى أن بيع في البلاد الشامية . نعم لن يضيرنا ذلك
في مثل بيبرس الذي فاق من تقدّمه من الملوك والسلطين بمواجهة الأخطار المحدقة

(١) النجوم الزاهرة : ج ٣ القسم الأول ورقة ١٧٥

(٢) بدائع الزهور : ج ١ ص ٨٣

بشرق البلاد الإسلامية وغربها، وبذل كل ما لديه من عدة لإيقاف هذا التيار الجارف ورد هؤلاء المغيرين على أعقابهم حتى كتب له النصر عليهم ورد كيدهم في نحورهم، وكون مملكة متحدة الأواصر مرتبطة العرى من تلك الأقطار التي امتد إليها نفوذ الصليبيين والتي شملها استبداد الأمم التتارية ولاقت من صنوف الأذى ما جعلها ترحب بكل من مد لها يد المساعدة لينتشلها من هذه الهوة السحيقة التي سقطت فيها .

وقد أجمع المؤرخون على أنه ولد ببلاد القفجاق وقضى بها شطرا من حياته الأولى إلى أن بيع لأحد تجار الرقيق على أثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) . غير أنهم اختلفوا في الجهة التي بيع فيها بعد ارتحاله عن موطنه .

يحدثنا المقرئ^(٢) أن تاجرا قدم به إلى حماء . ولما عرضه على الملك المنصور محمد لم يعجبه فبيع^(٣) بدمشق بثمانمائة درهم ثم رده مشترية لبياض في إحدى عينيه ، فاشتراه الأمير علاء الدين أيديكين البندقدار مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو معتقل بحماه وأقام في خدمته مدة ثم أخذه منه الملك الصالح .

— (١) تشمل بلاد القفجاق حوض الفلجا والأراضي التي حول بحر قزوين .

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، طبعة الدكتور زيادة ج ١ القسم الثاني ص ٦٣٧

(٣) أورد ابن واصل "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" ج ٢ ص ٤٤٠ ب، في هذا الصدد قصة طريفة عن سبب رفض الملك المنصور شراء بيبرس ثم ذكر ما حدث لبيبرس بعد ذلك مفصلا . وهالك نصها مع بعض التصرف : "وكان السلطان الملك المنصور إذ ذاك في سن الصبا . وكان من عادته أنه متى أراد شراء رقيق أحضر لئراه صاحبة والدته فن أشارت بابتاعه أخذ . وكان الملك المنصور لما بلغه وصول الملك الظاهر مع التاجر تقدم باحضاره فأحضر ومعه خشداش له وعرضا على صاحبة فرأتهما من داخل الستارة . فلما استأذنها السلطان ولدها في شرائهما . قالت له : خذ المملوك الأبيض والأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة (يعني الملك الظاهر) فان عينيه فيها الشر لا يجم . فردهما على التاجر . ولما بلغ الأمير علاء الدين البندقدار حضور هذين المملوكين اللذين جلبا بعث في طلبهما . وعند ما قدما إليه اشتراهما وهو في الاعتقال وظلا عنده حتى أفرج الملك الصالح نجم الدين أيوب عنه وتوجه بهما إلى مصر فأخذهما الملك الصالح منه " . (٤) البندقدار : هو حامل الجراوه (كيس البندق) خلف السلطان أو الأمير . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٤٥ ج ٥ ص ٤٥٨

ويروى الشيخ قطب الدين اليونيني المتوفى سنة ٧٢٦ هـ في كتابه "الذيل على مرآة الزمان" وأبو المحاسن المتوفى سنة ٨٧٤ هـ في كتابه "النجوم الزاهرة" ^(٢) عن هذه المسألة رواية يستفاد منها أن بيبرس قدم إلى سسيواس ^(٣) على أثر بيعه ببلاده ثم نقل إلى حلب وبيع بعد ذلك بالقاهرة للأمير علاء الدين أيديكين البندقدار وظل عنده حتى أخذه منه الملك الصالح عند ما قبض عليه في شوال سنة ٦٤٤ هـ .

وبينما نتضارب الروايات في تاريخ مولده ^(٤) وفي الزمن الذي بيع فيه إلى علاء الدين وفي أى بلد كان ذلك البيع فانا لا نجد فيها جميعها شيئاً ذا غناء، اللهم إلا منذ ذلك الوقت الذى دخل فيه في حوزة الملك الصالح نجم الدين أيوب . ومن هنا نرى له الكثير في كتب التاريخ وسنعرض لذلك بشيء من الإسهاب .

٣ - بيبرس منذ اتصاله بالملك الصالح

إلى أن انتصر على الصليبيين بمصر

بدأ بيبرس على أثر انتقاله إلى ملك الملك الصالح حياة جديدة تغاير تمام المغايرة

(١) ج ١٧ ورقة ٩٨ (٢) ج ٣ القسم الثاني ورقة ٢٣٢ (٣) هناك عبارة وجهها رسول أيضا ملك التتار للظاهر بيبرس عند ما قدم إليه للفاوضة معه في عقد الصلح سنة ٦٦٧ هـ يفهم منها أن بيبرس بيع بسسيواس وهذه العبارة هي : "أنت مملوك وأبعت في سسيواس فكيف تشاقق المملوك ملوك الأرض" . المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٧٣ - ٥٧٤ (٤) ورد في (Enc. Isl. Art. Baibars I) أن بيبرس ولد سنة ٦٢٢ هـ . وهذا يخالف ما رواه أبو المحاسن ج ٣ القسم الثاني ورقة ٢٣٢ من أنه ولد سنة ٦٢٥ هـ . (٥) كان الصالح أيوب قد أعطاه أبوه الملك الكامل حصن كيفا وسيره إليه سنة ٦٣٠ هـ . وقد قصد بهذا أن يبعده عن مصر فيخلو بذلك الجوّ له ولولده العادل ولي العهد من بعده . المقریزی : السلوك ج ١ القسم الأول ص ٢٤٤

ولما توفى الملك الكامل سنة ٦٣٥ هـ بدمشق اتفق رأى الأمراء بمصر على أن يولوا ابنه الأمير أبا بكر ولقبوه بالملك العادل فاستاء لذلك الملك الصالح وانهز الفرصة استدعاء المصريين له وهم بمغادرة الشام إلى مصر ليستولى عليها فاعتقله الناصر داود صاحب الكرك بنابلس وما لبث أن أطلق سراحه ومخالف معه على أن تكون مصر للصالح أيوب والشام للناصر . وفي هذه الأثناء كانت قد دبرت مؤامرة بمصر لخلع الملك العادل واتفق المماليك الكاملية على استدعاء الملك الصالح فصار ومعه مماليكه إلى مصر وأعلن نفسه سلطانا عليها سنة ٦٣٧ هـ . وقبض على أخيه العادل وظل في السجن حتى مات سنة ٦٤٥ هـ . المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٢٦٧ و ٢٩٤ - ٢٩٦

ما كان عليه في حياته الأولى من يوم أن وصل الى بلاد الشام . فقد اتخذ الملك الصالح سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) رئيسا لإحدى فرق حرسه الخاص^(١) لما رآه فيه من الهمة الشماء والفطنة والذكاء، وظل يرتفع ذكره ويسمو قدره ويتدرج في المناصب حتى أصبح قائدا لفرقة الممالك التي كان لها الفضل الأكبر في صدّ حملة لويس التاسع عن مصر .

وقبل أن نتكلم عن الدور الذي قام به بيبرس في صدّ هذه الحملة يجمل بنا أن نذكر شيئا عن سبب قيامها والعقبات التي صادفتها حتى اشترك بيبرس في صدّها :

- × لما انقضت الجيوش الخوارزمية^(٢) على سوريا سنة ١٢٤٤ م ونحرت بيت المقدس أثار ذلك ملوك أوربا واتجهت مجهودات لويس التاسع ملك فرنسا الى تجهيز حملة صليبية لمهاجمة مصر يقودها بنفسه ويكون عمادها الفرنسيون . غير أن هذه الحملة لم تلبث أن عصفت بها العواصف عند مرورها بقبرس في أوائل سنة ١٢٤٩ م . فنجح أكثر من نصف سفنها الى سواحل الشام ولم يصل منها سوى سبعة قطع، ونزع سكان دمياط الى منزلة المنصورة على أثر ظهور سفن الملك لويس التاسع وتركوا مراكب التعديّة فعبرت جيوش لويس عليها بدون عناء^(٣) .

وعلى الرغم من ذلك فقد أخطأ قائد تلك الحملة بتأخره في التقدّم جنوبا إذ كان يجب عليه أن يتقدّم بسرعة نحو القاهرة قبل حلول زمن الفيضان وقبل أن يفريق

(١) Enc. Isl. Art Baibars I .

(٢) هؤلاء الخوارزمية هم عسكر جلال الدين الخوارزمي . وقد ساروا بعد مقتله إلى كيقباز ملك الروم السلاجقة ثم فارقه لما قبض على أكبر مقدّميه، فاستمالهم الصالح أيوب واستأذن أباه الملك الكامل في استخدامهم في جيشه فأذن له بذلك . أبو الفدا : ج ٣ ص ١٥٩

(٣) Stevenson, The Crusaders in the East. pp. 324-326 .

(٤) Davis, The Invasion ; Joinville, Memoirs of the Crusades p. 116 .

of Egypt by Louis IX of France p. 26.

المسلمون من صدمة الفرار عن دمياط . وبدلاً من التقدّم بسرعة ضرب الملك لويس خيامه وظل ينتظر وصول المراكب التي بعثتها العواصف ، ثم تقدّمت جيوشه من دمياط في طريقهم إلى القاهرة بعد أن أقامت فيها ستة شهور . غير أن جهلها الطريق كان سبباً في تأخيرها فاستغرقت شهراً كاملاً في قطع الطريق بين دمياط ومنزلة المنصورة وهو لا يزيد على خمسين ميلاً وتبأخر تلك الحملة في دمياط وتعثّرها في الطريق ذلك الوقت الطويل أتيحت للمسلمين الفرصة لجمعوا شملهم وضموا صفوفهم^(١) .

أما الصليبيون فإنهم وصلوا إلى شارمساح — وتقع في منتصف الطريق بين دمياط والمنصورة — ولكي يتقدّموا جنوباً وينفذوا فكرة مهاجمة القاهرة كان عليهم أن يعبروا فرع دمياط أو قناة أشموم طناح . فاختر لويس الطريق الأسهل وعمل على بناء سدّ في عرض النهر الصغير^(٢) ، وأنشأ أبراجاً متحركة لتحتمي الجنود الذين يعملون في السدّ . غير أن المسلمين بدأوا في مناوشة هؤلاء الجنود وجبرت فرقة منهم هذا النهر من مكان بعيد وحاولت تطويق مؤخرة الجيش الصليبي فطاردها الملك لويس ولكن معسكره على الرغم من ذلك كان معرضاً للخطر من جميع الجهات^(٣) .

وفي تلك الأثناء تقدّم أحد أهالي بلدة سلامون وعرض على الصليبيين أن يدهم على مخاضة كبيرة جهة أشموم طناح في مقابل مبلغ من المال^(٤) . فاستخدمه الملك لويس دليلاً ، وسير فرقة الخيالة على ثلاث دفعات : أولها الفرسان الداوية . وثانيها الخيالة الرماة وعلى رأسها روبرت كونت أرتوا (Robert Count d'Artois) (أخو الملك لويس)^(٥) . وثالثها فرقة الملك .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages

(٢) ويعرف الآن باسم البحر الصغير . pp. 232-233

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 234.

(٤) Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France, p. 38.

(٥) Stanley Lane-Poole; op. cit. p. 234.

× لم يلاق الصليبيون مقاومة وهم يعبرون النهر أول الأمر . غير أن روبرت كونت
 × أرتوا يجتاز عبور الفرقة الثانية عزم على التقدم للحاق بالعدو ثم اقتحم معسكر المسلمين ،
 × فاخترقه من مقدمته الى مؤخرته وتمكن بعض الفرسان من قتل القائد نحر الدين
 × فانهزم المسلمون وتفرقوا . ثم دارت الدائرة على الصليبيين ، فقد ثبتت فرقة الممالك
 × أمام هذا الهجوم العنيف وحالت بينهم وبين ما أرادوا من الاستيلاء على قصر
 × السلطان . وكان قائد تلك الفرقة بيرس الذى انقض عليهم وقلب نصرهم هزيمة
 × واندفع جنود الصليبيين فى شوارع المنصورة وسقط كثير منهم قتلى من بينهم الكونت
 × أرتوا وفرقة ^(١) .

× أما بقية الصليبيين فلحققت بالملك لويس عند السد الذى كان قد شرع فى بنائه
 × على النهر الصغير . وقد عرض نفسه بموقفه هذا لهجوم الفرق المملوكية التى أحاطت
 × به وأصبح من الصعب عليه أن يهزم جيش المسلمين وخاصة بعد أن فقد كثيرا
 × من فرسانه ولم يبق معه إلا الجنود المشاة الذين لا يستطيعون الحرب إلا بالسيوف .

× وعندما أصبح مركز لويس حرجا فكر فى بناء جسر مؤقت على الجزء الذى
 × لم ينته من السد . ولما تم بناؤه استطاعت فرقة من الضفة الأخرى أن تأتى لنجدته ؛
 × غير أن النجاح فى بناء هذا الجسر لم يغير شيئا من موقف جيش لويس فلم يمهله
 × المسلمون حتى عاودوا الهجوم عليه موجهين همهم نحو هذا الجسر فى الوقت الذى
 × لم يكن لهم سلطان يأتمرون بأمره . فقد توفى الملك الصالح فى نوفمبر سنة ١٢٤٩ م
 × عندما بدأ الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة . وكان ابنه وولى عهده الملك المعظم
 × تورانشاه بعيدا عن مصر بحصن ^(٢) كيفا فرأت زوجه شجرة الدر أن تخفى وفاته
 × حتى لا يتطرق الوهن الى نفوس المسلمين فيفرون من ساحة القتال اذا علموا بموت

(١) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. pp. 234-235 ؛ Davis, The Invasion
 of Egypt by Louis IX of France pp. 38-39.

(٢) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. pp. 236-237.

السلطان وبذا يتم للصليبيين الاستيلاء على الديار المصرية ، وأحضرت الأميرين
نحر الدين والطواشي جمال الدين محسن وهما من حاشية السلطان وخاصته وأسرت
اليهما بموت الملك الصالح واتفقت معهما على القيام بتدبير شئون الدولة حتى يحضر
ابن زوجها تورانشاه من حصن ^(١) كيفاً . فأخذ الأمير نحر الدين يصدر الأوامر مذيلاً
بتوقيع السلطان الملك الصالح ؛ وقد قيل إنها كانت بخط خادم يقال له سهيل يشابه
توقيعه توقيع الملك . ولما وقف حسام الدين نائب القاهرة على حقيقة الأمر وعلم
ب وفاة السلطان اشتد خوفه من الأمير نحر الدين فكتب الى تورانشاه يطلب منه
التعجيل بالحضور ، كما أمر الخطباء بأن يدعوا على منابر القاهرة يوم الجمعة لتورانشاه
بعد الدعاء لأبيه الملك الصالح ^(٢) .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى قدم تورانشاه الى مصر . فترل بقصر
السلطنة بالمنصورة وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور فأخذ يشرف على الحرب بنفسه
ويدبر خططها برأيه الصائب ونظره الثاقب واستطاع بذلك أن ينجم واقعة المنصورة
بنصر على الصليبيين . وكان أول ما قام به من الأعمال أن نقل أسطولاً من المراكب
على ظهور الجمال الى نقطة على فرع دمياط شمالي المراكب الفرنسية . وهناك اشتبك
الأسطولان المصري والفرنسي ودارت الدائرة على الأخير بعد أن خسر كثيراً من
مراكبه .

ساء مركز لويس بعد هذه الهزيمة اذ لم يصبح لديه من القوى ما يستطيع بها
مقاومة تقدم المسلمين وكذلك لم يبق لديه من الميرة ما يعينه على الوقوف أمام المصريين
والمماليك . فضاقت الوسائل بالصليبيين واثارت نفوس الجند من قلة الأزواد

(١) المقرري : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٣٤٣ — يقع حصن كيفا على الضفة الغربية لنهر
دجلة بالقرب من أمد .

(٢) المقرري : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٣٤٤ — ٣٤٥

(٣) حملت هذه المراكب من سمنود الى القناة التي تعرف الآن باسم بحر شين Davis, Invasion
of Egypt By Louis IX of France p. 46.

وتفشى فيهم الوباء وظل الملك لويس صابرا لا يجد وسيلة تخلصه من هذا المأذق ؛ فاضطر الى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون القدس وبعض بلاد الساحل . فأبى عليهم المصريون ذلك . فأحرق الصليبيون أخشابهم وأتلفوا مراكبهم ولجأوا الى التحصن في دمياط . فركب المسلمون أقفيتهم وحرار بوهم حتى أوصلوهم الى فارسكور ؛ وهناك حملوا على الفريخة حملة صادقة واستمات الممالك في الدفاع بقيادة بيبرس حتى أزاحوا الصليبيين عن موقفهم وقتلوا منهم عددا كبيرا ، كما أسروا كثيرا من الأمراء والجنود وامتلاّت أيديهم بالغنائم من السلاح والخيول وغير ذلك .

أما لويس فإنه التجأ مع بقية جيشه الى تل منية عبد الله بالقرب من المنصورة واعتصموا به ؛ فتبعهم المسلمون وشدّوا عليهم الحصار فاضطروا الى التسليم على أن يؤمنوا على حياتهم . وكان يبلغ عددهم خمسة آلاف معظمهم من الفرسان والأشراف ، وسيق لويس معتقلا الى دار القاضي ابراهيم بن لقمان بالمنصورة ، ثم أفرج عنه بعد أن دفع مبلغا كبيرا من المال وبعد أن تم الاتفاق معه على إخلاء دمياط .

× علت كلمة الممالك البحرية وعلى رأسهم بيبرس واشتد أزهرهم بهذا النصر
× المبين الذي أحرزوه في موقعة فارسكور . وحينئذ نراهم يضمرون السوء لسلطانهم
× تورانشاه حين قرب اليه ممالكه وحاشيته الذين جاءوا معه من حصن كيفا وأحلهم محل
× ممالك أبيه البحرية في مناصب الدولة ، ولتضييقه على زوجة أبيه شجرة الدر وتوعده
× لها ان لم تقر له بمال أبيه . فلما ضاق بها الصدر وعيل منها الصبر أرسلت الى
× الممالك تقول لهم " اقتلوا تورانشاه وعلى رضاكم " . فصادف قولها هذا هوى

(١) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 238.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٥ — ٣٥٦

(٣) تعرف الآن بسجن لويس ويقصد اليها كثير من السياح والزائرين وقد نقش على بابها تاريخ

(٤) Davis, Op. Cit. pp. 51.57 أسر لويس بها .

في نفوس الممالك؛ وزاد الطين بلة والطنبور نعمة ما كان يبالغهم عنه أنه اذا ثمل من الخمر يضع أمامه الشموع مصفوفة ويتناول بيده السيف ويضربها به واحدة بعد أخرى وهو يقول "هكذا أفعل بالممالك البحرية" ويذكر أسمائهم واحدا بعد آخر. كل هذه الأمور أحفظت نفوسهم وأوغرت صدورهم وضاقوا بتحملها ذرعا. فأجمعوا رأيهم على الفتك به وتولى أمراؤهم تنفيذ ما اعتموا عليه بزعامه بيبرس ومعه من الأمراء قلاوون الصالحى وأقطاي الجامدار وأبيك التركمانى وغيرهم .

فلما أقيم السباط على أثر نزول تورانشاه بفارسكور سنة ٦٤٨ هـ تقدم إليه هؤلاء البحرية وبأيديهم السيوف فبادره ركن الدين بيبرس بالسيف على أصابعه فقطعها وتبعه في ذلك الأمراء؛ ففقر تورانشاه هاربا ودخل برجا من الخشب كان قد أعدّه على النيل ليجلس فيه أيام إقامته بفارسكور، وأغلق عليه بابه فأدركه بيبرس ومن معه وأضرموا النار في البرج فألقى بنفسه في النيل وأخذ يسبح طالب النجاة بنفسه . فلم يغنه ذلك شيئا ورموه بالنشاب من كل ناحية وهو يستغيث ولا مغيث وينادى ولا مجيب ويقول "خذوا مالكم ودعوني أرجع الى حصن كيفا" . فلم يلتفت أحد الى قوله ولم يجد من يدفع عنه مخالب الموت وينجيه من القتل وانتهى أمره بأن مات قتيلًا غريقًا حريقًا . ولما أيقنوا من وفاته انتشلوا جثته من النيل وتركوها على شاطئه ثلاثة أيام . ولم يجرؤ أحد من حاشيته على دفنه ثم وورى التراب في مكانها ^(١) .

بذلك انتهت حياة تورانشاه دون أن يجلس على عرش آبائه أو يدخل القاهرة مقر حكمهم . وبقتله انتهى حكم الأيوبيين بالديار المصرية وابتدأ عصر المماليك ^(٢) .

(١) المقرئى السلوك : ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٨ — ٣٦٠ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار

البشر ، ج ٣ ص ١٨١

(٢) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 239.

الباب الثاني

حالة مصر قبيل تولية بيمبرس سلطنتها

- ١ - انتقال السطة الى الممالك .
 - ٢ - ظهور بيمبرس على مسرح السياسة المصرية .
-

كتاب البيهقي

كتاب البيهقي في معرفة رتبة رتبة

كتاب البيهقي في معرفة رتبة رتبة

كتاب البيهقي في معرفة رتبة رتبة

الباب الثاني

حالة مصر قبيل تولية بيمرس سلطنتها

١ - انتقال السلطة الى المماليك

اتفقت كلمة أمراء المماليك البحرية بعد قتل تورانشاه على تولية شجرة الدر مكانه^(١) . فأخذت تقترب من أرباب الدولة وتمنحهم الرتب والاقطاعات كما خفضت الضرائب عن الأهلين لتستميل قلوبهم وساست الرعية أحسن سياسة^(٢) . على أن الناس على الرغم من ذلك قد كرهوا حكمها إذ لم تجر عادة المسلمين بأن يتقلد حكمهم امرأة^(٣) . فخرج أهل سوريا عن طاعتها وبايعوا الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب .

ولما علمت بذلك شجرة الدر آثرت المحافظة على كيان الدولة وأظهرت رغبتها في التخلي عن الحكم . فأشار عليها القضاة والأمراء بأن تترج من عز الدين أيبك التركماني أتابك العساكر وتفوض إليه أمور الدولة^(٤) ؛ فقبلت ذلك ونزلت عن سلطنة مصر لزوجها بعد أن لبثت في الحكم ثمانين يوما برهنت فيها على كفاءة ممتازة وحكمة نادرة في تصريف الأمور وتدير الملك^(٥) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦١

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٨٩

(٣) لما علم الخليفة المستنصر بالله العباسى بتولية شجرة الدر سلطنة مصر غضب على أهل مصر وكتب إليهم بأن يولوا عليهم رجلا منهم أو يرسل لهم من يصلح للحكم إن لم يوجد بمصر من يصلح له . المقرئى :

السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦٨

(٤) Stanley Lane-Poole, a History of Egypt in the Middle Ages p. 250

(٥) ابن إياس : ج ١ ص ٩٠

وقصارى القول فقد كانت شجرة الدر ذات ذكاء وقاد وشجاعة نادرة وشخصية ممتازة قل أن يوجد لها نظير . ولا عجب في هذا فقد حنكتها التجارب من يوم أن اتصلت بزوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وعندما تخلت شجرة الدر عن العرش أقام أمراء المماليك عز الدين أيبك أتابك العسكر سلطانا على مصر ولقبوه بالمعز؛ غير أنهم لم يلبثوا بعد ذلك أن طالبوا بتنصيب أحد أمراء البيت الأيوبي معه في السلطنة واتفقوا على تولية الأشرف مظفر الدين موسى وله من العمر ست سنين^(١) . وقد علل ابن واصل^(٢) رغبة هؤلاء الأمراء في إشراك أحد الأيوبيين مع المعز أيبك إلى أنفتهم من الخضوع له ورغبتهم في التدخل في شئون الدولة .

اتهمز الملك الناصر صاحب الشام فرصة هذا الاضطراب الذى ساد مصر في ذلك الوقت وخرج بعساكره من دمشق يريد الاستيلاء عليها . فلما ورد الخبر بذلك إلى مصر اضطربت الدولة ، وقبض المعز أيبك على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل للملك الناصر وأعد العدة لملاقاته حتى قدمت جيوشه إلى مصر واشتبك الفريقان بالقرب من العباسية في معركة هزم فيها المصريون أول الأمر ؛ ثم لم يلبثوا بعد ذلك أن هاجموا الناصر وجيشه فولوا منهزمين نحو الشام^(٣) .

ازداد نفوذ المماليك البحرية على أثر هذا الانتصار الذى أحرزه المعز على جيوش الشام بفضل جنودهم الذين أبلوا بلاء حسنا في صدّ جيوش الناصر ؛ فارتكبوا كثيرا من الفظائع مع أهل مصر . وفى ذلك يقول المقرئى^(٤) : " فنزل بالناس من البحرية بلاء لا يوصف ما بين قتل ونهب وسبي بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر

(١) المقرئى : السلوك القسم الثانى ج ١ ص ٣٦٩

(٢) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ١٣٧٦

(٣) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٨٤ — ١٨٥

(٤) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار : ج ٢ ص ٢٣٧

ما زادوا في الفساد على ما فعله البحرية وكان كبارؤهم ثلاثة : الأمير فارس الدين أقطاي ، وركن الدين بيبرس البندقداري ، وسيف الدين بلبان الرشيدى .

لم يكد المعز أيك يفرغ من صد جيوش الناصر عن مصر حتى وصلت إليه الأخبار سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) بأن هولاء كو سار من قره قورم (Karakarum) ومعه تعليقات من أخيه ملك التتار خلاصتها القضاء على الاسماعيلية بفارس وهدم الخلافة العباسية ببغداد^(١) . فانتهم المعز هذه الفرصة وأزال اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة وقبض عليه وسجنه وانفرد بالسلطة دونه وأرهب الأهلى بجمع الأموال الكثيرة والمكوس التى لم تكن مقررة من قبل وعين الأمير سيف الدين قطر نائباً للسلطنة بمصر ؛ ثم عقد صلحا مع الملك الناصر يوسف صاحب الشام تقرر فيه أن يكون للمعز إلى نهر الأردن وللملك الناصر ما وراء ذلك^(٢) .

ولما اطمأنت نفس المعز أيك من ناحية بلاد الشام شرع فى تهدئة ثائرة العرب بالوجه البحرى والصعيد الذين اجتمعوا على شخص من ذرية على بن أبى طالب يسمى حصن الدين بن ثعلب ؛ فأرسل إليهم الأمير فارس الدين أقطاي وغيره من الأمراء فاقتل الفريقان بالقرب من بلبس وتفرق كثير من العرب عن حصن الدين ، فولى منهزما ؛ ثم سار المماليك لإخضاع عرب الغربية والمنوفية فهزموهم بناحية سخا وسنهوور ولحق الشريف حصن الدين بمن بقى من أصحابه وبعث يطلب الأمان من الملك المعز فأمنه ؛ غير أن المعز لم يلبث أن نقض الأمان عند ما سار حصن الدين إلى بلبس إذ قبض عليه وأرسله إلى الإسكندرية وقتل أتباعه وبذلك تبدد شمل العرب فى مصر^(٣) .

(١) Browne, A Literary History of Persia, Vol. II. pp. 452-453.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٤ — ٣٨٥

(٣) المقرئى : نفس المرجع ص ٣٨٦ — ٣٨٨

ويرجع سبب هذه الثورة إلى انتشار روح القومية بين العرب المقيمين بمصر الذين يرى كثير منهم أن مصر عربية ديناً ولغة وعادات وأنه لا بد لهم من ملك عربي مستقل يحكمهم ؛ فغضبت نفوسهم وثار حمتهم لإمارة الأتراك والمماليك عليهم . وليست هذه الروح جديدة فيهم بل لقد دب ديبها منذ عهد الدولة الطولونية حين قامت الفتن والثورات على أيدي العرب في مصر ضد الطولونيين والأتراك^(١) .

لم يبق أمام المعز بعد ذلك إلا منافسه فارس الدين أقطاي وكان قد استفحل أمره في ذلك الوقت ؛ فرأى أن يتخلص منه ويشتت شمل من معه من الجنود وخاصة بعد أن طلب منه الإقامة بقلعة الجبل ، فاتفق مع طائفة من مماليكه المعزية على قتله إذا مر بهم ، فوثبوا عليه عند باب قاعة الأعمدة (بالقلعة) بسيوفهم فأذاقوه كأس المنون وأغلقت أبواب القلعة وشاع خبر قتله ، فاجتمع أنصاره وأعوانه من المماليك البحرية وأحاطوا بالقلعة فرمى إليهم المعز برأس أقطاي فسقط في أيديهم وانفضوا خائبين وأدركوا أن المكيدة لاحقة بهم^(٢) ، فاجتمع رؤسائهم بيبرس وقلاوون الألفي وسنقر الأشقر والأمير بيسرى وغيرهم وقرروا الخروج إلى البلاد الشامية .

وسرعان ما علم المعز بنواياهم فأغلق دونهم أبواب القاهرة ولكنهم أحرقوا باب القراطين^(٤) وخرجوا منه هاربين صوب مقصدهم واختفى غيرهم ممن لم يسايروهم . ولما تشتت شملهم استصفى المعز أملاكهم واسترد ما كان لديهم من الأموال والذخائر وأعاد ما أخذه أقطاي إلى بيت المال وأضاف أعمال الاسكندرية إلى أعمال السلطان وبذلك صفا له الجؤ وانفرد بتدبير المملكة^(٥) .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages. (١)

pp. 259, 261-262

(٢) كان المعز قد أهمل جانب المماليك البحرية واتخذ له ممالك غيرهم سموا بالمماليك المعزية .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٩ — ٣٩٠ . (٤) عرف هذا

الباب بعد ذلك بالباب المحروق وهو باب القاهرة الشرق Lane-Poole : Cairo, p. 129.

(٥) ابن خلدون : ج ٥ ص ٣٧٥ و ٣٧٦ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى

ص ٣٨٨ — ٣٩٢

خرج بيبرس ومعه أمراء المماليك قاصدين الشام ولما وصلوا غزة كاتبوا
الناصر يوسف صاحب حلب يستأذنه في القدوم عليه فأذن لهم^(١) وعند ما وصلوا
إليه قابلهم بالترحاب وأكرم وفادتهم وشملهم بعطفه ولين جانبه وأقطعهم البلاد
الساحلية . ولما استقروا لديه أغروه بحجارة مصر والاستيلاء عليها ؛ فصادف
كلامهم هوى في نفسه فبادر بتجهيز جيش إلى القاهرة ؛ وسرعان ما أعد سلطان
مصر جيشه أيضا وغادر المدينة ليقطع الطريق على الجنود الشامية ويقاثلهم قبل أن
يدخلوا بلاده .

التقى الجيشان عند قرية العباسية ولم يجر بينهما قتال ، بل دارت المفاوضات
وتم الأمر بالصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب
(أى ساحل الشام ومصر) وعلى ألا يؤذى الملك الناصر أحدا من المماليك البحرية^(٢)
وعاد كل إلى بلده سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) .

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن المعز أيبك بعد انفراده بالسلطنة فلت زوجه شجرة
الدر من شوكته ، ووقع بينهما التشاحن والتباغض وأثار غضبها ما كان من خطبته
من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ؛ فعملت على اغتياله وأرسلت إليه توهم
أنها باقية على طاعته وقد رجعت عما كان يلاحظ عليها من غطرسة وشدة . وكانت
قد أعدت خمسة من الخدام وأمرتهم بقتله إذا ما أمكنتهم الفرص ؛ فقام هؤلاء
الخدام بما أمروا به وقتلوه داخل الحمام (ربيع الأول سنة ٦٥٦ هـ) وأشاعوا أنه قد
أغمى عليه . وفي الصباح أذيع قتله بين الناس فدفنه آبنه على ومماليكه ثم قبضوا على
شجرة الدر وسلموها إلى الجوارى فضر بنها بالنعال حتى ماتت في ربيع الثاني من هذه
السنة وألقيت جثتها في أحد الخنادق ثلاثة أيام ثم دفنت بتربتها المعروفة باسمها
اليوم .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٢

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٨

ولى الأمراء مكان المعز أيبك ابنه عليا وعمره خمس عشرة سنة وكان القائم بتدبير المملكة اذ ذاك علم الدين سنجر الحلبي والوزير شرف الدين بن صاعد الفائزى . فلما تم الأمر لعل بن أيبك الملقب بالملك المنصور نور الدين ولى سيف الدين قطز^(١) نيابة السلطنة بمصر وقبض على وزيره شرف الدين واستولى على أمواله ؛ ثم ولى فارس الدين أقطاي المستعرب أتابكية العسكر بدلا من علم الدين سنجر .

استمر قطز في النيابة لابن أيبك وتولى قيادة الجيش لصمد الممالك البحرية والمغيث على ما سيأتى — وكانوا قد حسنوا للمغيث أخذها لما علموا أن التتار على وشك مهاجمتها بعد استلائهم على الشام . وفى عهد على هذا كانت إغارة التتار على البلاد الشامية بعد أن دمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم واستولوا على حلب وغيرها من البلدان^(٢) .

لم يرض الممالك البحرية بهذا الصلح الذى عقد بين الملك الناصر والمعز أيبك ، ونمى الى الناصر أنهم يريدون الفتك به فأجلاهم الى غزوة ؛ وهناك كتبوا بالطاعة الى الملك المغيث صاحب الكرك ، فأرسل اليهم الناصر عسكرا لمقاتلتهم فانتصر عليهم الممالك البحرية وهزمهم ، ثم أعاد عسكر الناصر الكرة فانتصروا وطردها البحرية الى البلقاء^(٣) ملتجئين الى المغيث فأنفق عليهم أموالا ضخمة وأطعموه هو أيضا فى ملك مصر فجهزهم بالعدد والعدد^(٤) ، وساروا متجهين الى مصر وخرج الجيش المصرى يقوده سيف الدين قطز ، والتقى الفريقان بالصالحية فانهزم الممالك البحرية ومن معهم وأسروا منهم قلاوون الصالحى وبلبان الرشيدى وغيرهما ، ثم أطلق سراح قلاوون بعد أيام ولحق بأصحابه بالكرك^(٥) .

(١) كان قطز من أولاد الملوك الخوارزمية . يقال انه ابن أخت خوارزم شاه واسمه محمود بن مودود وقد أسرى فى حروب التتار وبيع بدمشق للمعز أيبك . ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧٩ ؛ E. n. c. Isl. Kutus, s.v. (٢) ابن إياس : ج ١ ص ٩٤ (٣) كورة من أعمال دمشق . ياقوت : معجم البلدان . (٤) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٩٢ و ١٩٣ (٥) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٠٦

أما عن موقف الملك الناصر في ذلك الوقت فإنه أنفذ ابنه الملك العزيز إلى هولاكو يطلب منه النجدة للاستيلاء على مصر من المماليك، فأجابه هولاكو إلى ما طلب . غير أن المماليك البحرية الذين كانوا بدمشق في ذلك الوقت لما سمعوا بذلك ساروا إلى الملك المغيث بالكرك وحلبوا إليه أخذ مصر، فسار في عساكره سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)، وقدم إليه بعض الأمراء الذين كاتبوه من مصر وتقدم إليهم قطز في عسكر مصر والتقى بهم فهزمهم وفتر المغيث إلى الكرك^(١) . أما المماليك البحرية فانهم ذهبوا إلى الطور واجتمعوا بمن هناك من الأكراد الفارين من التتار وصاهروهم . وقد أثار هذا الاجتماع مخاوف الناصر فجهز إليهم عسكرا من دمشق والتقى الفريقان بالطور فهزمت عساكر الناصر، ثم عاود قتالهم وسار على رأس جيشه يخاف المماليك البحرية لقاءه وتركوا الأكراد وذهبوا إلى بلاد الكرك، فأرسل الناصر إلى المغيث يتوعده إن لم يسلم هؤلاء البحرية . وترددت الرسل بينهما وانتهى الأمر بأن اتفقا على أن يتسلم الناصر من المغيث طائفة المماليك البحرية وأن يبعد عن المغيث الشهرزورية^(٢) .

لما علم بذلك بيبرس هرب ومعه جماعة من البحرية إلى الملك الناصر فأحسن إليهم، وقبض الملك المغيث على من بقى عنده من المماليك البحرية وبعث بهم إلى الناصر فحبسهم بقلعة حلب^(٤) . وقد ظلوا بها إلى أن استولى التتار عليها وأخذهم هولاكو مع من أسر إلى بلاده^(٥) .

(١) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٩٥ ؛ المقرئ : السلوك ص ٤١٠ و ٤١١

(٢) المقصود بها طور سيناء .

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤١٤ ؛ والشهرزورية نسبة إلى شهرزور وهي إحدى جهات كردستان . وكان بتلك الجهة جماعة من الأكراد ظلوا بها حتى استولى هولاكو على بغداد وتقدمت جيوشه شمالا نحو شهرزور وغيرها، ففر الشهرزورية من وجه التتار إلى الشام ومصر .

Enc. Isl. Art. shehrizur.

(٤) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ١٩٨

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر، ج ٥ ص ٣٧٨

يتضح لنا مما تقدم كيف ازداد نفوذ الممالك البحرية وعلى رأسهم بيبرس ، كما نرى من هذه المنازعات التي حدثت بينهم وبين المعز أيبك كيف أن السلطة في مصر يتنازعها فريق من أمراء الممالك ، وكان لهذا أثره في حالة مصر الداخلية في ذلك الوقت فشغل المعز أيبك وابنه من بعده عن إصلاح مرافق البلاد بالقضاء على هذه المشاغبات التي أثارها الممالك البحرية . وإن الناظر الى هذه المناقشة التي دارت بين علاء الدين سلطان السلاجقة الروم والأمير علم الدين سنجر الباشقردى على أثر الكتاب الذى أرسله المعز أيبك الى سلطان الروم عندما التجأ اليه فريق من الممالك فرارا من غدر المعز أيبك بهم ليقف على مبلغ العداء المستحكم بين المعز أيبك والممالك البحرية . وفي ذلك يقول المعز فى كتابه الى سلطان الروم "البحرية قوم مناحيس أطراف لا يقفون عند الايمان ، ولا يرجعون الى كلام من هو أكبر منهم ، وإن استأمنتهم خافوا ، وإن استحلقتهم كذبوا ، وإن وثقت بهم غدروا ، فتحرز منهم على نفسك فإنهم غدارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمحروا عليك " .

كان لهذا الكتاب أثره فى سلطان الروم ، فأرسل يستدعيهم فلما حضروا قال لهم : " يا أمراء ! ما لكم ولأستاذكم ؟ فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال : يا مولانا ! من هو أستاذنا ؟ قال : " الملك المعز صاحب مصر " . فقال الباشقردى : " يحفظ الله مولانا السلطان ! إن كان الملك المعز قال فى كتابه إنه أستاذنا فقد أخطأ ، إنما هو خوشداشنا ونحن وليناه علينا وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرنا وأفرس وأحق بالملكة . فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا فهربنا وتشتتنا فى البلاد ونحن التجأنا اليك " ^(١) .

لما علم قطز بما فعله التتار بالمدن الشامية وأنهم على وشك الهجوم على مصر جمع أمراء دولته وقال لهم " لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك

(١) الخشداشية فى اصطلاح عصر الممالك بمصر الأمراء الذين نشأوا عند سيد واحد فنبت بينهم رابطة الزمالة القديمة وتقابلها فى الفرنسية (Comarades) الدكتور زيادة .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٣

المنصور صبي لا يعرف تدير المملكة“ . والواقع أن الملك المنصور كان مستهترا بأمور الدولة ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تدخلت أمه في إدارة شئون البلاد فاضطربت الأمور وساعد ذلك قطز على الطمع في الوصول إلى سلطنة مصر ، فانتهاز فرصة خروج الأمراء للصيد وقبض على الملك المنصور وأخيه وأمهما واعتقلهم بقلعة الجبل وأعلن نفسه سلطانا على مصر (٦٥٧ هـ = ١٢٥٩ م) . فلما علم بذلك الأمراء أنكروا عليه هذا العمل ، فاعتذر إليهم بقوله ”إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدد فالأمر لكم . أقيموا في السلطنة من شئت^(١)“ .

٢ - ظهور بيبرس على مسرح السياسة المصرية

ذكرنا أن المماليك البحرية فروا من المغيث حين رأوا منه عين الغدر بهم ووصل بعضهم إلى مصر . وكانت هجمات التتار على البلاد الشرقية متوالية في ذلك الوقت كما كانوا يتنقلون بسرعة من بلد إلى آخر؛ ذلك أن هولاكو على أثر سقوط بغداد في يده سار إلى ديار بكر ونزل على آمد يريد حلب ، ثم زحف على حران وأستولى عليها ، وأرسل ابنه سموط إلى الشام وعندما وصل إلى ظاهر حلب خرج إليه نائبها الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين من قبل بن أخيه الملك الناصر ، فاقتتل الفريقان ودارت الدائرة على المسلمين ودخل التتار حلب^(٢) .

ولما بلغ الملك الناصر يوسف شروع التتار في الاستيلاء على حلب كتب إلى الملك المغيث صاحب الكرك والملك المظفر قطز صاحب مصر يطلب منهما نجدة ؛ وكان الأمراء متخوفين من غارات هولاكو ، فأشار أحدهم وهو الأمير زين الدين الحافظي بمداراته والدخول في طاعته . وهنا نجد موقفا مشرفا لبيبرس

(١) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٢١٧ - ٢١٨

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٠

إذ أنه ما كاد يسمع حديث هذا الأمير حتى انقض عليه وضربه وقال "أنتم سبب هلاك المسلمين" فشكاه الأمير إلى الملك الناصر . ولم يلبث المماليك بعد ذلك أن هجموا على الملك الناصر ففتر إلى قلعة دمشق ، ثم بادر إليه بعض الأمراء وأشاروا عليه بالخروج ؛ فوافقهم على ما أرادوا وخرج إلى المعسكر^(١) .

انتهاز بيبرس هذه الفرصة وسار إلى غزة ؛ وهناك راسل الملك المظفر قطز وأرسل إليه علاء الدين طبرس الوزيرى يطلب منه الأمان ، فكتب إليه قطز بأن يفد إليه ووعدته بالوعود الجميلة^(٢) .

وصل بيبرس مصر في ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ . فركب قطز للقائه وأنزله بدار الوزارة ، وأقطعه قلوب وأعمالها^(٣) وجعله قائد جيشه . وسنرى ما فعله هذا القائد مع سيده الذى أعتقه من مخالب الموت وأغدق عليه نعمه .

في سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) أرسل هولاء كو إلى مصر خطاب تهديد ووعيد إن هى امتنعت عن التسليم إليه والإذعان له . وقبل أن نتكلم عما فعله سلطان مصر إزاء رسل هولاء كوند كر هنا خطاب هذا الطاغية لنرى منه كيف كان تجبر هؤلاء المغيرين واعتزازهم بقوتهم ووفرة عددهم وزهوهم بأنفسهم حتى آحتقروا من عداهم من الأمم وظنوا أنهم مانعتهم أسلحتهم وجيوشهم ولم يقدروا هزيمتهم فى أية معركة لهم وغاب عنهم أن الدهر قلب . واليك نص كتاب هولاء كو كما ذكره كل من القلقشندى^(٤) والمقرئى^(٥) : "من ملك الملوك شرقا وغربا القائد الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٩ - ٤٢٠

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٠ (٣) ابن واصل : ج ٢ ص ٣٩٤ ؛ أبو الفدا : ج ٣

ص ٢٠٠ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٦ (٤) صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٣

(٥) السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٧ - ٤٢٨

هربوا من سيوفنا إلى هذا الاقليم ، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بسلاطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطانا على من حل به غضبه . فلکم بجميع البلاد معتبر ، وعن عز منا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن مانرحم من بكى ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب وعلينا الطلب . فأى أرض تؤويكم ، وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . نخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا تنفع ودعاؤكم علينا لا يسمع ... إلى أن يقول ” أسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزاً ، ولا كافياً ولا حرزاً وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقي لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى “ .

لما وصل هذا الكتاب إلى قطز جمع أمراءه وشاورهم في الأمر — وقد أحذق بهم الخطر وتهددهم هؤلاء التتار ، فتردد بعض الأمراء أول الأمر في الخروج لملاقاة هذا العدو العنيد ومنازلته وذلك خشية منه ، وقز رأى قطز على قتل الرسل فقتلوا وعلقت رؤوسهم على باب زويلة^(١) .

ولما كان يوم الاثنين ١٥ شعبان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) خرج قطز بعسكر مصر ومن انضم إليهم من عسكر الشام والعرب والتركان وغيرهم من قلعة الجبل

(١) المقرري : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٢٩ ، Stanley Lane-Poole ،

A History of Egypt in the Middle Ages, p. 262.

قاصدين الصالحية؛ ولما بلغوها طلب قطز الأمراء وأمرهم بالرحيل فامتنعوا . فقال لهم "يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأتم للغزاة كارهون وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختتر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين"^(١) .

كان لهذا القول أثر في نفوس أمراء المماليك الذين أمتنعوا عن الرحيل من مصر لملاقاة التتار ، فلم يكذ قطز ينتهى من حديثه حتى آتفقوا جميعا على مهاجمة هذا العدو وإيقافه عند حدّه .

لم يدخل قطز في مخابرات مع العدو بشأن إبرام الصلح خشية أن ينضم ضعاف القلوب من أمرائه إلى المغول ، ولكنه أراد أن يقيم الدليل لهم بأنه يستطيع أن يقود جيشا قويا متحدا إلى الحدود . وقد تبددت سحابة الإشاعات وزادت الحماسة حينما هزم المماليك بقيادة بيبرس حامية المغول في غزة ؛ ومن ثم واصل الجيش المصرى السير محاذيا الساحل نحو الشمال وضمن حياض الفرنجة في عكاء ، ثم يم السير لملاقاة المغول فقابلوهم قريبا من بيسان في المكان المعروف «بعين جالوت»^(٢) حيث مزق الجيش المغولى شمل قوى المصريين ؛ على أن هرب المصريون قد أدّى إلى انتصارهم بسبب تعقب المغول للقالّة منهم في شراذم متفرقة مما سهل على جيش المماليك القضاء عليهم . وقد وقع القائد المغولى «كيتبغا» صريعا في حومة القتال وارتد جيشه الذى انضمت اليه حامية دمشق التى ثار أهلها وذبحوا المسيحيين لتأمرهم على زوال الإسلام .

أعاد قطز الأمن الى نصابه في جميع المدن المخترّبة ، كما أعاد أمراء الأيوبيين على ولاية حمص وحمّاه على أن يدفعوا له الجزية ، وأقيمت الخطبة له في البلاد التى بين

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٩

(٢) بليدة بين بيسان و نابلس من أعمال فلسطين . ياقوت : معجم البلدان .

حلب والفرات . وعند عودته من هذه المعركة التي نجحت مصر وأعادت بلاد الشام وقع فريسة لذلك الحسد الذي طالما تعرّض له قوّاد الجيش المتصرون . وكان بيبرس أقدر هؤلاء القوّاد وقد حال قطز دون تحقيق رغبته في ولاية حلب — وكان قد وعده بها — إلا أنه لم يف له بوعده وأعطاه لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ،^(١) فكان ذلك الحلف مثيرا لمكان الضغينة والحقد اللذين كتما في نفوس بيبرس وإخوانه على قطز منذ قتل الفارس أقطاي^(٢) ؛ فأضرموا السوء له وحدث بيبرس جماعة من الأمراء في قتل السلطان^(٣) .

على أن قطز قد أخطأ حين رفض أن يمنح بيبرس ولاية حلب ؛ فانه لو كان قد منحه إياها لتمكن من إبعاد أكبر منافس له في سلطنة مصر . لكنه لم يترث في هذا الأمر فأخلف وعده واعتقد أنه بعمله هذا يضعف من شأن بيبرس غير أنه نسى أن المركز الذي كان يتمتع به بيبرس في ذلك الوقت وخاصة بعد انتصاره على المغول وإخراجهم من دمشق وحلب وانتزاعه أكبر إمارات الشام من أيدي بني أيوب لا يقلل من شأنه حرمانه من إحدى الولايات وخاصة اذا علمنا أنه كان على رأس فريق من المماليك لعب دورا خطيرا على مسرح السياسة المصرية . وكان قطز نفسه يخشى بأسهم وقد اضطرّ أخيرا الى مصافاتهم والاعتماد عليهم في صدّ ذلك العدو الخطير الذي اجتاحت البلاد الاسلامية وقضى على الخلافة العباسية . فهذه السياسة التي اتبعها هذا السلطان إزاء قائد جيشه أودت به في هوة سحيقة ؛ وكان الأجدر به أن يقرب اليه المماليك البحرية ويقطعهم الاقطاعات كما أقطع الأمراء المعزية وبذلك يتق شرهم ويأمن جانبهم .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.262.

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

(٣) ابن خلدون : ج ٥ ص ٣٨٠

(٤) المقرئ : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٣٥

ولا ضير اذا قلنا إن هؤلاء المماليك البحرية — وعلى رأسهم بيبرس — نسوا ما قابلهم به قطز من الحفاوة والاكرام وإنزاله لهم منزلة رفيعة أيام كانوا ثائرين بعد فرارهم الى الشام . نعم ! لقد نسوا هذا ولم يذكروا أن قطز هو الذى وهبهم الحياة بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من السيف ، وأجمعوا أمرهم على اغتياله .

تمت المؤامرة بين المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس على أن يستريحوا من قطز وترقبوه وهو فى طريقه الى مصر حتى اذا ما قارب الصالحية انشغل بالصيد ؛ فلما فرغ من ذلك طلب منه بيبرس بعض أسرى المغول فأنعم عليه قطز بامرأة من سبي التتار ؛ فما كان من بيبرس إلا أن تظاهر برغبته فى تقبيل يد السلطان وانقض عليه بالسيف وتبعه الآخرون بسيوفهم فأجهزوا عليه ؛ وكان ذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ^(١) .

وهكذا انتهت حياة ذلك الرجل العظيم وثار أعداؤه لأنفسهم وبعد أن قتلوه تركوه ملقى على الأرض وعادوا شاهرين سيوفهم الى أن وصلوا الى عرش الملك بخلص عليه بيبرس وأخذ المملكة بالقوة على ما سيأتى^(٢) .

(١) أبوالفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٩٧

الباب الثالث

سلطنة الظاهر بيبرس

١ - اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها :

(١) القضاء على الفتن والثورات .

(ب) إحياء الخلافة العباسية .

٢ - سياسة بيبرس الخارجية :

(١) موقف بيبرس إزاء الصليبيين .

(ب) غزو جزيرة قبرس .

(ج) قضاء بيبرس على نفوذ الطائفة الاسماعيلية ببلاد الشام .

(د) علاقة بيبرس بالمغول .

(هـ) علاقة بيبرس بأرمينية .

(و) سياسة بيبرس إزاء ملوك أوروبا .

(ز) اتساع نفوذ بيبرس في بلاد النوبة .

(ح) ازدياد سلطة بيبرس في الأماكن المقدسة بالحجاز .

(ط) تبادل المراسلات بين نجاشي الحبشة وبيبرس .

الباب الثالث

سلطنة الظاهر بيبرس

١ - اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها

وقع اختيار الأمراء بعد قتل الملك المظفر قطز على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى، وتقدم إليه فارس الدين أقطاي المستعرب وبايعه وحلف له ثم تبعه الأمراء؛ وذلك قرب الصاحبة قبل وصولهم إلى القاهرة^(١). فلما تمت البيعة قال له أقطاي: لا تتم لك السلطنة إلا بعد دخولك القاهرة وطلوعك إلى قلعة الجبل. فركب ومعه الأمير قلاوون وبلبان الرشيدى وجماعة آخرون فلقبهم في طريقهم الأمير عز الدين أيدير الحلبي نائب السلطنة - وكان خارجا لمقابلة قطز - فأخبره هؤلاء بما حدث؛ فبايع بيبرس وقدم له فروض الطاعة ثم تقدمهم إلى القلعة ووقفوا على بابها حتى وصلوا ليلا. وكانت القاهرة قد زينت لقدم قطز فرحا به وسرورا لما فعله بالتار واستبشارا بقدومه إليها، واستمرت تلك الزينة حتى قدم بيبرس رغم ما لحق الناس حين أشيع خبر تملكه وقتل قطز من هم ووجل خوفا من ظلم المماليك البحرية ومعادتهم ما كانوا عليه من الجور والفساد^(٢).

لما تولى بيبرس عرش مصر تلقب بالملك القاهرة ركن الدين بيبرس الصالحى فأشار عليه وزيره زين الدين بن الزبير بتغيير هذا اللقب وقال له ما تلقب به أحد فأفلق، فاستمع بيبرس لمشورته وتلقب بالملك الظاهر^(٣).

(١) ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦ (٢) مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٦٥ - ٦٧؛ المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٦ - ٤٣٧ (٣) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢٠٨؛ أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١١٨٦.

أخذ بيبرس بعد تربيته على دست الملك يطمح الى بلوغ ما بلغه صلاح الدين من توسيع نطاق الامبراطورية المصرية، والى اعلان الحرب على الصليبيين الذين كانوا لا يزالون يغيرون على سواحل البحر الأبيض المتوسط. وسرى أنه بذل جهده في استئصال شأفتهم من هذه البلاد وان كانت لم تتحقق كل أغراضه، اذ لم يمهل الزمان حتى يرى المدن الساحلية خالية من النواقيس والصلبان.

وكان همه موجها بنوع خاص الى رد غارات المغول الذين كانوا قد ثبتوا قدمهم في فارس وأسسوا لهم أسرة ملكية تسمى أسرة «الايخانات» أو الأسرة الهولاكية، وكذلك محاربة الصليبيين الذين اتفقوا مع التتار ضد الولايات الباقية في أيدي الخلافة العباسية^(١). ولذا نراه بعد أن دخل القلعة واجتمع حوله الأمراء وكبار رجال الدولة يأخذ في منحهم الألقاب وتوليهم المناصب العالية وإغداق نعمه عليهم بالاقطاعات الواسعة ليشد بهم أزره ويقوى بهم ساعده. ولم يكتف بولاء الأمراء له بل أراد أن يكسب عطف الرعية ومحبة الشعب وميل النفوس النافرة اليه فأخذ في ترتيب شئون دولته وتنصيب الأمراء عليها، فعين فارس الدين أقطاي المستعرب أتابكا للعسكر واستناب عنه في السلطنة الأمير بدر الدين الخازندار وفوض إليه جميع أمور الدولة وصار صاحب الحل والعقد بها وولى تاج الدين بن بنت الأعز قضاء مصر وعزل الصاحب زين الدين بن الزبير من الوزارة وولى مكانه الصاحب بهاء الدين بن حنا^(٢).

أراد بيبرس أن يستجلب رضى الرعية عنه ويثبت في نفوسهم عوامل المحبة له والميل إليه وتناسى ما قدمت يداه من السيئات، فأبطل كل ما أحدثه قطز من المكوس

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 264.

(٢) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٨ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١ ص ٩٨ - ٩٩

(١) والضرائب . فاطمأت إليه النفوس وحمد له الناس هذا الصنيع وأشربوا محبته في قلوبهم ؛ ثم جد في إحضار الممالك البحرية الذين كانوا متفرقين في البلاد منذ أن قتل الفارس أقطاي . وبذلك تلافي بطشهم بالأهالي فجمعهم حوله وأفاض عليهم من النعم الشيء الكثير .

كذلك أرسل بيبرس الى سائر النواب والأمراء في مصر والشام يعلمهم باعتلائه عرش البلاد المصرية ؛ فأجابوه بالطاعة والاذعان في سائر النواحي سوى بعض الأمراء في بعض الجهات الشامية فانه عظم عليهم تولية الظاهر وامتنعوا عن الاعتراف به سلطانا واستقلوا ببلادهم مما حدا بالظاهر^(٢) إلى محاربتهم حتى ينضووا تحت لوائه قبل أن يتفرغ لشئون بلاده الخارجية .

(١) الثورات الداخلية :

لم يصف الجوّ تماما لبيبرس على أثر اعتلائه عرش مصر ؛ إذ خرج بعض الأمراء عن طاعته وطالبوا بالملك لأنفسهم . ومن هؤلاء الثائرين علم الدين سنجر الحلبي الذي استنابه الملك المظفر قطز بدمشق . فقد نادى بنفسه سلطانا عليها في ذي الحجة سنة ٦٥٨ هـ ، وتلقب بالملك المجاهد وخطب له على منابرهما وضربت السكة باسمه . ولم يكتف بذلك بل راسل الملك المنصور صاحب حمه والأشرف ابن شيركوه صاحب حمص ليدخلا في طاعته ، فامتنعا عن إجابة طلبه .

ولما علم بيبرس بخروج سنجر عليه ، جهز جيشا مع علاء الدين أيديكين البندقداري لمحاربتة ؛ فوصل هذا الجيش إلى دمشق في صفر سنة ٦٥٩ هـ ، والتقى

(١) كان قطز قد أثقل كاهل أهالي مصر بالضرائب فصار يأخذ منهم ثلث الزكاة وثلث الترك ، كما فرض دينارا على كل فرد ؛ فبلغ مقدار ذلك نحو ٦٠٠٠٠٠ دينار في السنة . مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٦٧ — ٦٨ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٣٨ ؛ Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 14.

(٣) أبو القدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٨

بجيش الحلبي بظاهرها فتغلب عليه وفر الحلبي وأتباعه هاربين إلى قلعة دمشق، حتى إذا ما جن الليل خرج لا يلوى على شيء قاصدا بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحملوه إلى الديار المصرية فاعتقل بها،^(١) وولى الظاهر مولاه علاء الدين على دمشق وعاد صاحبها حماه وحمص إلى بلديهما. ومن هذا الوقت اعتبرت هذه البلاد داخلة في حوزة الملك الظاهر تقام له الخطبة فيها ويدعى له على منابرها^(٢).

أما عن ولاية حلب فإن قطز كان قد ولى عليها عند عودته إلى مصر من غزو التتار السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، غير أن السعيد سار في حلب سيرة معوجة، كان من جرائها أن بغضه العسكر وكره الناس ولايته عليهم وعند ما بلغه مسير التتار إلى البيرة^(٣) في أواخر سنة ٦٥٨ هـ جرد إليهم جماعة قليلة من الجند، ولم يقبل نصيحة أحد في منع هذه الشرذمة القليلة من ملاقات التتار أو العمل على زيادة عددهم لتقوى على مصادمة العدو وأصر على مسير تلك الفئة، وسرعان ما أبادها التتار بالقرب من البيرة، فازداد غيظ الأمراء لذلك وقبضوا على السعيد واستولوا على كل ماله الذي ابتز من الأهالي ظالما، ويقدره المؤرخون بنحو تسعين ألفا من الدنانير^(٤).

ولى الأمراء مكانه حسام الدين لاجين العزيزى وأعلموا الملك الظاهر بذلك فوافقهم واستقر حسام الدين بها. غير أن التتار ساروا إليها وملكوها وفر حسام الدين ومن معه إلى حماه، وهناك حذروا الملك المنصور صاحبها من التتار فظن في أول الأمر أن ذلك حيلة منهم للغدر به، غير أنه لما تحقق من صدق قولهم خرج إليهم ولحق بهم وسار معهم إلى حمص - وكان التتار في هذه الأثناء قد انقضوا على حماه - فاتفقت هذه الجموع المحتشدة بحمص في المحرم سنة ٦٥٩ هـ على محاربة التتار، فالتقوا

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٤ و ٤٤٥ و ٤٥١

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٠ (٣) البيرة : بلد قرب سميساط

بين حلب والنغور الرومية . ياقوت : معجم البلدان . (٤) أبو الفدا : المختصر

فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ؛ المفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٧٠

(١)

بهم بظاهر حمص وقتلهم وتمت النصر للساميين وهزم التتار مع كثرة عددهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ؛ ورجع الملك المنصور إلى حماه ومعه أخوه الأفضل ثم سارا إلى دمشق واجتمعا هناك بالأشرف صاحب حمص وظل الجميع بدمشق حتى انتهت ثورة سنجر . أما حسام الدين لاجين فإنه ذهب إلى مصر وأقام بها واستقر مكانه نحر الدين الحمصي نائباً من قبل الملك الظاهر .

بعد أن استقر علاء الدين البندقداري بدمشق كلفه الظاهر بالقبض على جماعة من المماليك الذين كان يتوهم منافستهم له في الملك أمثال بهاء الدين بغدى الأشرقي وشمس الدين أقوش البرلى وغيرهما . وكان الأخير والياً على نابلس وغزة وبلاد الساحل من قبل المظفر قطز وقد انضم إلى علاء الدين لمحاربة سنجر بدمشق . ولما قبض علاء الدين على بغدى اجتمع المماليك العزيزية والناصرية حول شمس الدين وفروا إلى دمشق ليلاً ، ثم سار بهم إلى حمص وأراد حمل صاحبها على الانضمام إليه ضد بيبرس فلم يجبه إلى ذلك ، فتركه وتوجه إلى حماه وراسل المنصور في ذلك فأغلظ له في الرد ؛ فمضى مغضباً نحو حلب وبها نحر الدين الحمصي الذي أرسله علاء الدين لاستطلاع أخبار التتار بالبيرة واحتال عليه في المسير إلى الملك الظاهر لتأمينه وتركه بهذه الأطراف تحت طاعته ؛ فاغتر نحر الدين بقوله وسار نحو الظاهر . ولم تمض مدة قليلة حتى انقض البرلى على حلب واستولى على ما بها من الأموال وجمع حوله العرب والتركمان واستعد للقتال . وسار جيش مصر قاصدا الشام لمحاربتة بقيادة جمال الدين محمودي وعلم الظاهر بمسير نحر الدين إليه فوجه على تركه حلب وردّه مع الجيش وعفا عن سنجر الحلي وسيره هو أيضاً لمحاربة البرلى ؛ فسار الجميع إلى حلب واستولوا عليها فهرب البرلى إلى البيرة ولما لم يجد بيده غيرها أعلن ولاءه

(١) ذكر مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٧٥ ؛ أن هذه الموقعة كانت أعظم من موقعة عين جالوت لكثرة ما أصاب التتار من الخسائر فيها .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

للملك الظاهر واستأذنه في القدوم إلى مصر . ولما قدم إليه أكرم بيبرس وفادته ،
ثم غادرها ثانياً إلى البيرة ، ولم يلبث أن تغير عليه الملك الظاهر فقبض عليه
سنة ٦٦١ هـ .^(١)

وفي هذه الأثناء كان على مدينة الكرك الملك المغيث أحد أمراء الأيوبيين .
وقد وصل إليه على أثر اكتساح التتار للبلاد الشرقية جماعة من شهرزور فاتخذهم
جنداً له ووجههم للاغارة على الشوبك ومما يليها من الولايات التي دخلت في حوزة
الظاهر بيبرس .

جاءت الأخبار إلى مصر بما فعله هؤلاء الأكراد ، فهم الظاهر بالذهاب إلى
الكرك وعلم المغيث بذلك فأرسل إليه بطاعته وطلب الأمان للأكراد ، فأمنهم
واستدعاهم إلى مصر فوافوها وقبلهم الظاهر وعفا عنهم^(٢) . غير أن بيبرس لم يأمن
بعد ذلك جانب المغيث — وكان على تخوف دائم من ثورته — فغادر مصر في ربيع الآخر
سنة ٦٦١ هـ . ولما وصل إلى غزة وفدت عليه أم الملك المغيث شافعة في ولدها
وأخذ أمان السلطان له فأجاب طلبها الملك الظاهر وأذن لها في العودة ثم استدعى
المغيث فقدم إليه بعد تردد وتقابلا في بيسان . غير أن الظاهر لم يرع للمغيث عهده
له وتأمينه كما أنه تناسى استعطافه والعفو عنه فقبض عليه وبعثه إلى القاهرة مقيداً ،
فظل معتقلاً بقلعة الجبل حتى قتل^(٣) .

وقد يكون للظاهر في قتله بعض العذر إن صح ما يرويه المؤرخون عن هذه
الحادثة ، فقد ذكر أبو الفدا^(٤) أن المغيث كان قد راود امرأة الظاهر عن نفسها
حين فر بيبرس منه إلى غزة وقدم إلى مصر وترك زوجته بالكرك في عهد سلطنة
قطز كما تقدم . وهذه الحادثة إن صحت تُحفظ القلوب وتُنسى معها العهود والمواثيق .

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٠ و ٢١١ و ٢١٤ (٢) ابن خلدون :
العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٣٨٤ (٣) المفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد
تاريخ ابن العميد ص ١٠٧ — ١٠٨ ؛ ابن شاذان الكنتي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣٠ و ٢٣١
(٤) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٦

لذا نرى الظاهر يضمم السوء للمغيث ويتظاهر له بلين القول وزخرف الحديث حتى تمكن منه . وهناك أمر آخر يميز للظاهر فعله مع المغيث . فقد روى كل من أبي الفدا والمفضل والمقرئ^(١) أن الظاهر بعد أن قبض على المغيث أحضر الملوك والأمراء وقاضى القضية شمس الدين بن خلكان والشهود ورسل الفرنجة وأظهر لهم فتاوى الفقهاء بقتله وأحضر السفراء الذين كانوا بينه وبين هولاكو وقرئت الكتب المذكورة عليهم^(٢) ، وانفض الجمع وكتب السلطان إلى من بالكرك يحذرهم ويتوعدهم وسير إليهم بدر الدين يسرى وعز الدين الاستادار بالكتب والخلع والأموال . وهذه الرواية تفيد أن المغيث كان متواطئاً مع التتار متصلاً بهم اتصالاً سرياً بالمكتبات والرسل مما قوى الشبهة في اتهامه لدى الظاهر ، كما أن هناك سبباً آخر دعا بيبرس إلى الغدر به وهو أن أحد رسل التتار كان قد قدم إلى المغيث ليوقف على أخبار الملك الظاهر ، فلما علم بذلك بيبرس بعث بمن يحضره إليه فأنكره المغيث أولاً ثم اضطر إلى إرساله^(٣) . ومن هذا نفهم أيضاً أن استعطاف المغيث للظاهر وطلبه الأمان ما كان إلا خوفاً من قوته وسطوته بينما هو يدبر المكائد له بمناصرة أعدائه والانضمام إليهم ولو من طرف خفى .

وبعد أن اعتقل المغيث أرسل الملك الظاهر والياً على الكرك وأمن أهلها ورتب أمورها وأصبحت منذ ذلك الوقت تحت سلطانه وانتهى عهد الأيوبيين بها ، ثم عاد بيبرس إلى مصر وبلغه عند عودته وفاة الأشرف بن شيركوه صاحب حمص — وكان

(١) المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٧ ؛ النهج الجديد ص ١٠٩ ؛ السلوك لمعرفة دول الملوك

ج ١ القسم الثاني ص ٨٢

(٢) ذكر ابن واصل : مفرج الكرب في أخبار بني أيوب ص ٤١٣ ب ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣١ ، أن هذه الكتب تتضمن شكر هولاكو للملك المغيث ووعده بإياه باقطاعه البلاد من بصرى إلى غزة ، وبارسال عشرين ألف فارس لفتح مصر .

(٣) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣١

ملكها وراثيا لآبائه من أيام الملك العادل نور الدين ، ولم تزل متوارثة فيهم الى أن مات الأشرف سنة ٦٦١ هـ — وبموته آلت إلى سلطان مصر وانقرض منها ملك بني أيوب^(١) .

(ب) إحياء الخلافة العباسية :

تولى الظاهر عرش مصر في وقت كانت البلاد فيه مفككة العرى مفصومة الوحدة والاضطرابات شاملة كل ناحية من النواحي . فمصر تتنازعها عدة عوامل من مناوشات الصليبيين لها واستبداد الأمراء من المماليك بالأمر فيها وتطلع الأيوبيين بالشام إليها وتهديد التتار لها ، والبلاد الشامية كأنها ممالك متعددة فبعضها في أيدي الأيوبيين ، والصليبيون يحتلون سواحلها ، والتتار قد أغاروا عليها واحتلوا جزءا عظيما منها بعد أن تم لهم الاستيلاء على جزء كبير من البلاد الشرقية من أقاصى بلاد ما وراء النهر الى حوض دجلة والفرات .

ولما أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد في ٣ يناير سنة ١٢٥٨ م ، ودحر جيوش الخليفة ولم يبق في طريقه الى أبواب بغداد مقاومة سلم الخليفة نفسه بعد أن وعده هولاكو بالأمان ، ثم لم يلبث أن قتل^(٢) بعد أيام قلائل هو وولده أبو العباس أحمد وأبو الفضائل عبد الرحمن^(٣) . وبقتل هذا الخليفة خلت البلاد الاسلامية من الخلافة وليس من أمراء المسلمين من يجرؤ على إعادة الخلافة الى سابق عهدها .

حقا لقد شغل كل أمير إسلامي بالعمل على بقاء سلطته في دولته التي أمر عليها أو مقاطعته التي ملكها وليس له وراء ذلك غاية أو مأرب إلا أن يكون رغبته

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المتبدا والخبر ، ج ٥ ص ٣٨٥

(٢) تختلف الروايات في كيفية قتل الخليفة المستعصم وفي هذا يقول ابن واصل ص ٣٨٥ ب : وأما الخليفة رحمه الله فانهم قتلوه لكن لم يطلع أحد على قتله كيف كان . فقليل إنه خنق وقيل وضع في عدل ورفس حتى مات وقيل غرق في الدجلة والله أعلم بحقيقة ذلك .

(٣) Browne, A Literary History of Persia II. pp. 462-463. (٣)

في اتساع منطقتة أو ازدياد نفوذه في بعض النواحي الأخرى . ولم يفكر أحد في إعادة الخلافة سيرتها الأولى ؛ فظل منصبها شاغرا حتى اعتلى عرش مصر الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) .

أخذ بيبرس في السنة التالية من توليته عرش مصر يعمل على إعادة الخلافة العباسية الى مكاتها بعد أن قضى عليها هولاكو في بغداد . وكان بيبرس يرمى من وراء ذلك الى أن يقوى عرشه في مصر ضد أحقاد نظرائه من المماليك ويجعل حكمه شرعيا في البلاد . ويعزو السيروليم ميور سعى بيبرس لإحياء الخلافة العباسية بمصر الى خوفه من قيام الشيعة لإرجاع الدولة الفاطمية . وهذا الرأي بعيد عن الصواب إذ أننا لا نجد ما يؤيده في المصادر العربية والافرنجية ؛ فإنه على أثر المؤامرة التي دبرت سنة ١١٩٤م لإرجاع الخلافة الفاطمية بمصر لم نسمع عن أى محاولة أخرى لإعادة الفاطميين الى حكم مصر . ولعل السيروليم ميور اعتقد أن طائفة الاسماعيلية التي كانت تقطن سورية في ذلك الوقت والتي كانت على عدااء مع بيبرس ربما تفكر في إرجاع الخلافة الفاطمية ؛ ولكن هذه الطائفة لم يكن لديها من القوة ما يجعلها تعمل على تقويض سلطة الملك الظاهر بمصر ، كما أنه ليس لدينا من النصوص ما يجعلنا نعتقد أنهم فكروا في إرجاع الخلافة للفاطميين ، ولم نسمع أنهم اشتركوا في المؤامرات التي دبرها شيعة مصر لاعادة الخلافة الفاطمية .

على أن الملك الظاهر لم يكن أول من فكر في إحياء الخلافة العباسية بل سبقه الى التفكير في ذلك الملك الناصر يوسف صاحب دمشق الذي ما كاد يعلم من

(١) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 14-15.

(٢) اشترك في هذه المؤامرة مع بقايا الفاطميين شيخ الاسماعيلية وملك صقلية وعمورى ملك بيت

المقدس وتمكن صلاح الدين من القضاء عليها .

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 197-198.

(١)
الأمير عيسى بن مهنا أن أميراً عباسياً قدم إلى دمشق حتى أرسل يستدعيه إليه؛ غير أنه فوجئ بقدوم التتار فعاد الأمير ثانية إلى عيسى بن مهنا . وعند ما قدم الملك المظفر قطز إلى دمشق على أثر انتصاره على التتار في موقعة عين جالوت أخبره الأمير عيسى بن مهنا بقدوم ذلك الأمير العباسي . فقال له "إذا رجعنا إلى مصر أنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله" (٢) . ونستفيد من ذلك أن قطز كان يرمي إلى تولية هذا الأمير خليفة للمسلمين؛ غير أنه لم يعمر طويلاً حتى ينفذ هذه الفكرة (٣) .

مما تقدم يتضح لنا كيف أن الأمراء المسلمين في ذلك الوقت كانوا يميلون إلى إحياء الخلافة العباسية؛ وظلت هذه الرغبة ملحوظة حتى تولى بيبرس سلطنة مصر فشرع في تنفيذ ما فكر فيه هؤلاء الأمراء المسلمون لكي يعزز زعامته للإسلام . وقد تحققت آماله في إحياء الخلافة عندما ورد إليه كتاب من الأمير علاء الدين طبرس والأمير علاء الدين البندقداري يتضمن أن رجلاً وصل إلى دمشق يدعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر العباسي ومعه جماعة من عرب خفاجة؛ فكتب إليهما السلطان يوصيهما به خيراً ويكلفهما بأن يعينا من يقوم في خدمته ويرسلا معه حجاباً إلى مصر (٤) وأعد العدة لاستقباله . وعند ما علم بجيئه طار إلى لقائه وخرج معه الوزير بهاء الدين ابن حنا وقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز والأمراء والعساكر؛ واليهود يحملون

(١) هذا الأمير هو أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن القي بن علي بن أبي بكر بن الخليفة المسترشد ابن المستظهر بالله . وكان قد اختفى أثناء هجوم التتار على بغداد ثم تمكن من الفرار وأقام عند حسين بن فلاح أمير بني خفاجة ثم ذهب إلى دمشق وأقام عند الأمير عيسى بن مهنا . السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨ (٢) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٩٣ (٣) ذكر السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ؛ أن الملك المظفر قطز بايع الأمير أبا العباس أحمد بدمشق وزاد على ذلك فقال إن هذا الأمير سار في جماعة من أمراء العرب ففتح عانة والحديثة وهيت والأنبار وانتصر على التتار ثم كاتبه علاء الدين طبرس نائب دمشق لينذهب إلى الملك الظاهر غير أنه امتنع عن الذهاب إلى مصر لما علم أن أميراً عباسياً آخر قدم إليها ورجع إلى حلب فبايعه صاحبها شمس الدين البرلي . وسرى فيما بعد أن هذا الأمير هو الذي استدعاه بيبرس على أثر مقتل الخليفة المستنصر بالله .

(٤) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨

التوراة والنصارى يحملون الإنجيل وساروا جميعا الى المطرية لمقابلته . وحين وقع نظر الملك الظاهر عليه ترجل وعانقه وركب الخليفة وهو لابس شعار بني العباس ومعه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصلا الى قلعة الجبل^(١) . وهنا نرى من بيبرس ظاهرة تدل على مبلغ احترامه للخليفة وتقديسه لمن يهيا لهذا المركز ؛ إذ أبى حين وصوله الى القلعة أن يتقدم الإمام أحمد في الدخول ، ولم يشأ بعد أن استقرا في مكانهما أن يجلس على مرتبة أو كرسي معه .

لم يقتصر الظاهر على هذا بل عقد مجلسا في قاعة الأعمدة دعا اليه القضاة والعلماء والأمرء وسائر أرباب الدولة ليشهدوا بإثبات نسب هذا الإمام^(٢) ؛ وحضر هذا الاجتماع شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، كما شهدته العربان الذين قدموا الى مصر مع الإمام أحمد . ولما انتظم عقد المجلس جلس الملك الظاهر بين يدي هذا الإمام العباسي واستدعى العربان الذين قدموا معه من بغداد ؛ فأقرؤا جميعا بين يدي قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز بأن الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله بن الخليفة الناصر لدين الله المتصل بالنسب بالعباس بن عبد المطلب ، وأقر ذلك أيضا بعض القضاة والفقهاء ، فقبل قاضي القضاة شهادتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة ثم قام بعد ذلك الملك الظاهر وبايعه "على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها"^(٣) وكذا بايعه القضاة ولقبوه بالمستنصر بالله ، ثم أرسل الملك الظاهر لأخذ البيعة له من الناس على اختلاف طبقاتهم وتم ذلك ونقشت السكة في مصر باسميهما ، وكذا أمر

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٧٤ ؛ أبوالمحسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٧ ب ؛ Sir William Muir, The Caliphate p. 593.

(٢) كان لفظ الإمام من ألقاب الخلفاء أنفسهم وقد يطلق أحيانا على كبار العلماء . القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ج ٦ ص ٩

(٣) النوبرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨ - ١٩ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٩ - ٤٥٠

بالدعاء للخليفة قبل الدعاء له في خطبة الجمعة . ولم يكتف بذلك بل دعاه ليخطب ويصلي بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة ، فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء بالجامع وخطب الإمام أحمد خطبة بليغة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذي ردّ الخلافة لبني العباس^(١) .

رأينا كيف أن الملك الظاهر كان حريصا عند شروعه في مبايعة الأمير العباسي الذي قدم إليه ، فلم يبايعه بالخلافة إلا بعد أن تأكد من صحة نسبه إلى بني العباس بخلاف الملك المظفر قطز الذي ما كاد يعلم أن أميرا عباسيا وصل إلى دمشق حتى سارع إليه وبايعه بالخلافة .

وعلى الرغم من ذلك فإنه يفهم من كلام بعض المؤرخين أنهم يشكون في نسبة هذا الخليفة إلى العباسيين . ويتضح لنا ذلك من عبارة أبي الفدا^(٢) في هذا الصدد ونصها : "وفي هذه السنة (٦٥٩ هـ) قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه بن الإمام الظاهر بالله بن الإمام الناصر" ثم يقول في موضع آخر عند كلامه على سفر الخليفة إلى بلاد الشام لمحاربة التتار "وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود وتوجها إلى دمشق" . كذلك نجد مفضل بن أبي الفضائل^(٣) يسمى هذا الخليفة باسم المستنصر بالله الأسود .

ولعل الشك الذي يبدو في عبارة هذين المؤرخين من حيث صحة نسب هذا الامام إلى العباسيين إنما تطرق إليهما من سواد لونه ، وإكن سواد اللون لا يمنع صحة النسب ، فقد كان بعض الخلفاء العباسيين كالمأمون مثلاً أسمر اللون . ويستدل على ذلك بما رواه لنا بن إياس^(٤) حيث قال إن أم الخليفة المستنصر كانت أم ولد حبشية .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠١

(٢) المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٣

(٣) النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٠٥

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠٠

أما النويرى^(١)، والمقرئى^(٢)، وأبو المحاسن فلم يظهر لنا من كلامهم عن هذا الخليفة ما يشعرنا بأنهم كانوا يشكون في صحة نسبه، بل يثبت لنا الأخير أن هذا الخليفة ينتمى حقيقة إلى بنى العباس ويذكر سلسلة نسبه إلى عبد الله بن العباس الهاشمى .

وتنفيذا لرغبة الملك الظاهر في تقوية عرشه ضد مناوئيه من أمراء المماليك وإحاطة مملكته بسياج من الهيبة والاحترام رأى أن يعقد اجتماعا يتلى فيه تفويض الخليفة العباسى له بالسلطة . فخرج في ٤ شعبان سنة ٦٥٩ هـ إلى المطرية وضرب هناك خيمة كبيرة وجلس على كرسى والأمراء بين يديه . ولما اكتمل عقد الاجتماع صعد القاضى نحر الدين بن لقمان — صاحب ديوان الإنشاء — المنبر وقرأ على الأمراء تقليد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر .

وقد أورد لنا النويرى^(٤)، والمقرئى^(٥)، وأبو المحاسن^(٦) صورة هذا التفويض تقتطف منه ما يلى :

”بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى اصطفى الإسلام بملايس الشرف وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحکم عليها من الصدف ، وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف وقبض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف... وبعد، فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا فى تسطير مناقبه وبره من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدما ... وما بدت يد من المكرّمات إلا كان لها زندا ومعصا ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما. ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطانى

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨ - ٢٠

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٥١

(٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٣ ص ١٨٨ أ

(٤) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ٢١ - ٢٨

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٥٣ - ٤٥٧

(٦) النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٨ - ١٨٨ ب .

الملكى الظاهري الركنى شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوى الإمامى المستنصرى أعز الله سلطانه تنويها بشريف قدره واعترافا بصنعه الذى تنفذ العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا ... وأبدى من الاهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمرا لورامه غيره لا تمتنع عليه ... وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنه لولا اهتمامك لا اتسع الحرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكريّة والمجازية واليمينية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا ، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعدّ فى الأعلى ولا فى الأدنى . فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا ... وأبسط يدك بالاحسان والعدل ... وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام . فاذا استعنت بأحد منهم فى أمورك فنقب عليه تنقيبا ... وأمرهم بالأناة فى الأمور والرفق ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق وأن يعاملوا الضعفاء فى حوائجهم بالشغور الباسم والوجه الطلق ... ومما تؤمرون به أن يعفى ما أحدث من سيئ السنن وجدد من المظالم التى هى من أعظم المحن ... وحقيق بالمقام الشريف المولوى السلطانى الملك الظاهري الركنى أن تكون ظلمات الأنام مردودة بعدله ... ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضخى على الأمة فرضا ... وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة الى ما كان عليه فى الأيام الأولى . فأيقظ لنصرة الاسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا وكن فى مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا وأيد كلمة التوحيد فما تجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا . ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها ... وشيد منها كل ما غادره العدو منهدما ... وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا ... وكذلك أمر الأسطول ... الى أن يقول : والله يمدك بأسباب نصره ويوزعك شكر نعمه فان النعمة ستتم بشكره .“

فلما فرغ من قراءته أحضر للسلطان الملك الظاهر خلعة السلطنة وهي (جبة بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف) فلبسها وسار الموكب من باب النصر في طريق مفروش بالبسط إلى القلعة وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة فالصاحب بهاء الدين بن حنا يحمل التقليد على رأسه وتبعهم سائر الناس على الأقدام فكان منظرا لا يحيط به الوصف ^(١).

شرع الملك الظاهر بعد ذلك يعدّ العدة لإعادة الخليفة إلى كرسيه ببغداد؛ فرتب له بعض الأمراء والعساكر وهياكله كل سبل الراحة وخرج السلطان ومعه الخليفة وأولاد صاحب الموصل ^(٢). ولما وصلوا إلى دمشق قيل للملك الظاهر إن تأسيس خلافة قوية الأركان في بغداد قد تكون خطرا عليه فأوغر ذلك صدره على الخليفة وتركه هناك يخترق الصحراء برفقة قوة من الأعراب والترك ^(٣). فتابع الخليفة السير حتى وصل إلى الرحبة ^(٤). وهناك فارقه أولاد صاحب الموصل وأبوا السير معه وقالوا « ما معنا مرسوم بذلك » وأرسلوا معه ستين رجلا من مماليك والدهم، ثم رحل الخليفة من الرحبة بعد أن أقام بها ثلاثة أيام إلى مشهد على ومنها إلى عانة. وهناك تقابل بالأمر أبي العباس أحمد ^(٥)؛ وكان معه سبعائة فارس من التركمان تمكن الخليفة من استمالتهم إليه واضطر أخيرا هذا الأمير إلى الانضمام إلى الخليفة بعد أن أمنه، ثم رحل

(١) المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٥٧

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 15-16

(٢) المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٦٢

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 16

(٤) تقع على شاطئ الفرات جنوب قرقيسيا وتبعد عن بغداد مائة فرسخ . ياقوت : معجم البلدان .

(٥) كان صاحب حلب شمس الدين البرلي قد بايع هذا الأمير بالخلافة عند ما امتنع عن الذهاب إلى مصر لما علم أن المستنصر قدم إليها ، ولقبه بالحاكم بأمر الله ونقش اسمه على الدراهم ، ثم جهزه على رأس جيش صغير فذهب إلى عانة حيث قابل المستنصر بالله ودخل تحت طاعته كما رأينا . السيوطي : تاريخ

إلى الحديثة ففتحها من غير مقاومة ، وقصد بعد ذلك إلى هيت فأغلق أهلها الباب دونه فظل محاصرا لها حتى تمكن من فتحها ونهب أموال من بها من اليهود والنصارى^(١) .

ولما علم التتار بذلك أدركوا أن الخليفة ما جاء إلا للاستيلاء على كرسي الخلافة وأخذ البلاد منهم فخرجوا لقتاله بقيادة قرايغا ووقعت بين الفريقين معركة دموية انتهت بانتصار التتار وهزيمة الخليفة وجيشه واستشهاده في تلك الموقعة سنة ٦٦٠ هـ . ولم يفلت من جيشه سوى بعض الأمراء ومن بينهم الأمير أبي العباس أحمد الذي قدم إلى مصر فيما بعد وتلقب بالحاكم بأمر الله^(٢) .

ولما بلغ الظاهر خبر الهزيمة أظهر لذلك أشد الأسف لا على قتل الخليفة وهزيمة جيشه فقط ، بل على ما أنفقه في سبيل ذلك أيضا من الأموال الكثيرة والمعدات التي تفوق قيمتها وصف الواصفين^(٣) . كما أنه رأى أن سياسته في إحياء الخلافة العباسية خاب فألها ففكر في الأمر حتى انجلى رأيه عن إقامة خليفة آخر تكون له الزعامة الدينية على البلاد التي تحت سيطرته ليستقر له الأمر فيها ؛ ومن هنا نجد أنه يبعث في طلب أمير عباسي آخر وهو أبو العباس أحمد^(٤) . ولما قدم عليه

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ القسم الثاني ص ١١٨٩ — ١١٩٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٢٦٧ .

(٣) ذكر المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٦٧ ؛ أن مقدار ما أنفقه الملك الظاهر على الخليفة وأولاد صاحب الموصل بلغت نحو مليون دينار نقدا و ٦٠٠٠٠ دينار عينا . أما السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٣١٧) فقال إنه صرف نحو مليون دينار ذهبا وستين ألف درهم .

(٤) ذكر أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢١٥ إن هذا الأمير كان قد قدم إلى مصر سنة ٦٥٩ هـ وأنه بويع بالخلافة في أواخر سنة ٦٦١ هـ . أما المفضل : النهج السديد ص ٩٢ ، المقرئى : السلوك ص ٤٦٨ و ٤٧٧ ؛ فيفهم من كلامهما أنه قدم إلى مصر سنة ٦٥٠ هـ ، وأن الملك الظاهر احتفل بلقائه وأنزله في البرج الكبير بقلعة الجبل ، ثم بايعه بالخلافة في أوائل سنة ٦٦١ هـ . على أن الرواية التي لايشوبها غموض وتتفق مع مجرى الحوادث هي التي ذكرها السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ؛ وهي أن هذا الأمير العباسى قدم إلى عيسى بن مهنا على أثر قتل الخليفة المستنصر بالله وانهزامه عند هيت على يد التتار ، فكتب الأمير عيسى الملك الظاهر يخبره بقدوم الأمير أبى العباس أحمد ، فأرسل يستدعيه إليه . ولما قدم إلى مصر أكرمه الملك الظاهر وبايعه بالخلافة سنة ٦٦١ هـ .

سنة ٦٦١ هـ احتفل بمبايعته بالإيوان الكبير بقلعة الجبل بحضور القضاة والأمراء وأر باب الدولة ، ثم قرئ نسبه بعد ما ثبتت صحته لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز الذي بايعه على أثر ذلك ، ثم تلاه السلطان فبايعه " على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أعداء الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها والوفاء بالعهود وإقامة الحدود وما يجب على الأئمة فعله في أمور الدين " . فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده " أمور البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق وأقامه قسيمه في القيام بالحق وفوض إليه سائر الأمور وعقد به صلاح الجمهور " . ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم في مبايعته ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ؛ وبذلك أعيدت الخلافة العباسية ثانية إلى مصر ، غير أنه في هذه المرة لم يكن هناك تفكير في الاستيلاء على بغداد كما أن الخلفاء العباسيين بمصر أصبحت سلطتهم منذ ذلك الوقت مقصورة على الأمور الدينية ^(٣) .

على أن مسألة الخلافة العباسية لم تكن قد انتهت تماماً بمبايعته الحاكم بأمر الله بالخلافة سنة ٦٦١ هـ ، إذ لم تمض ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى نرى بيبرس يرسل إلى مصر — على أثر وصوله إلى دمشق بعد استيلائه على قلعة صفد — رجلين ادعى أحدهما أنه مبارك بن الإمام المستعصم ؛ أما الثاني فقال إنه من أولاد الخلفاء ؛ ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل وفد إليها في ذلك الوقت أيضاً على بن الخليفة المستعصم ^(٤) . ويتضح من هذا أن أبناء البيت العباسي كانوا يعتبرون عاصمة الديار المصرية ملجأ أميناً لإيوائهم . غير أننا لا ندرى ما الذي دفع الملك الظاهر

(١) ابن شاكر الكتبي : عبون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣٠

(٢) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٧٧ - ٤٧٩

(٣) Stanley Lane-Poole N. I p. 265.

(٤) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٢٩

(٥) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٤

إلى إرسال هذين الرجلين إلى مصر مع أنه قد بايع قبل ذلك أميرا عباسيا بالخلافة .
 لعل السبب في ذلك يرجع إلى رغبة بيبرس الصادقة في استمرار الخلافة العباسية
 بمصر . ويتبين لنا ذلك من عبارة النويري في هذا الصدد . ^(١) وهاك نصها " وفي شهر
 رمضان من سنة ٦٦٤ هـ وصل إلى دمشق ولد الخليفة المستعصم بالله المسمى بالمبارك
 الذي كان عند هولاكو وصحبته جماعة من أمراء العربان فأنزله الأمير جمال الدين
 النجيبى في أعز مكان . فلما وصل السلطان إلى دمشق سير إليه جلال الدين بن
 الدوادار والطواشى مختار فمأ عرفاه وظهر أنه بخلاف ما ادّعا فسير إلى مصر تحت
 الاحتياط " . على أننا نرى أن هناك سببا آخر دفع بيبرس إلى ذلك وهو رغبته
 في إضعاف نفوذ الحاكم بأمر الله فيهدده كلما حدثته نفسه بالتدخل في شئون الدولة
 بخلع ومبايعة خليفة آخر . وقد أخذ بيبرس لنفسه الحيلة حتى لا يجعله يشغل
 المكانة التي كان يتمتع بها سلفه فجعله شخصا عاديا مراقبا سجيناً في القلعة ^(٢) .

ولا شك أن الرغبة الأكيدة التي جالت في نفس الظاهر بيبرس والتي أراد
 أن يحققها من وراء عقد الخلافة الإسلامية لرجل من العباسيين رغبة سياسية أكثر
 منها دينية وعبارة أدق إن الظاهر كان يريد امتداد ملكه واتساع سلطانه بمساعدة
 الخليفة له باعتباره حامى الدين ؛ فإن فكرة الزعامة الدينية تعمل في الرؤوس مالا تعمله
 أساليب السياسة أيا كان نوعها ومالا تتاله أسنة السيوف مهما أراقت من دماء .
 ولم يكن غرض بيبرس من تولية ذلك الخليفة المقتول إعادة ملك العباسيين واسترداد
 ما كان لهم من عز وجاه ؛ فإن ذلك كما يقوّض دعائم ملك التتار الذين استولوا
 على بغداد يهدم سلطة الظاهر في مصر والشام ؛ وبيبرس لا يهدم سلطانه بيده .
 وصفوة القول أن الأمم الإسلامية كانت في هذا الوقت لا تزال متعلقة بأهداب
 الخلافة ناظرة إلى الخليفة نظرة إكبار وإجلال ، كما كانت لا تزال تنظر إلى من يحقق

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٢٩

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 16.

فكرة إقامة الخليفة بنفس العين التي كانوا ينظرون بها إلى الخليفة نفسه . وتبجلى لنا
 رغبة الشعب العامة في إبراز فكرة الخلافة فيما يرويه بن إياس^(١) عن بعض الشعراء
 حين بويع الخليفة بمصر :

يا أسد الـترك يا رُكنهم * ويا آخذَ الثَّارِ بعدَ المخافة

كسرت الطُّغاةَ جَبَرَتِ العُفَاةَ * قطعتَ الفراتَ وصلتَ الخلافةَ

ولعلنا نرى من خضوع بيبرس للخليفة في المجلس الحافل بعظماء الرجال وكبار
 الدولة مثلاً ضربه للحاضرين وللشعب بوجوب احترام وتقديس هذا الخليفة
 ولنفسه هو باعتباره السلطان عليهم القائم على شئون الدولة والمالك لزام الحكم فيها
 قد أبت نفسه أن ترتفع في المجلس على منضدة أو أريكة في حضرة أمير المؤمنين
 ليريهـم أن هذه المنزلة لم يسم اليها إلا الخليفة . فكان ذلك أكبر عامل بعث في نفوس
 الشعب الخضوع والتقديس لتلك الشخصية . هذا الى ما تنطوى عليه نفوسهم
 من إكبار فكرة الخلافة .

ومما هو جدير بالذكر أنه لما استقر ملك بيبرس في البلاد المصرية والشامية
 أصبح في غنية عن ظهور الخليفة في المجتمعات العامة ، كما لم يصبح في حاجة الى
 إسماع كلمته للشعب . لذلك نراه يزوج به في أعماق دار^(٢) لا يصل اليه أحد من
 خواص الدولة ورجالات الشعب . ولعل السرف في إخفائه أنه خاف على نفسه من
 طول اتصال الشعب به حتى لا يتألب عليه ويقيم مقامه الخليفة فتنتقل الى يده
 السلطة الزمنية أيضا . ومن ذلك يتضح لنا أن الظاهر لم يرم بعمله هذا الى إحياء
 الخلافة الاسلامية فحسب وإنما فعل ذلك لأسباب سياسية أيضا .

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠٣

(٢) ذكر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثاني ص ١٩٠ ؛ أن الملك الظاهر
 أنزل الخليفة الحاكم في مناظر الكيش التي أنشأها أحمد بن طولون وزاد على ذلك ابن إياس : بدائع
 الزهور في وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠٤ فقال إن السلطان رتب لهذا الخليفة ما يكفيه كل يوم هو وعائلته
 كما أمره أن يصعد القلعة في أول كل شهر ليقدم له فروض التهنتة .

٢ - سياسة بيبرس الخارجية

(١) موقف بيبرس إزاء الصليبيين :

رأى بيبرس بعد أن وطد سلطته في مصر أن يعمل على إحياء الإمبراطورية الإسلامية، لذلك كان من أهم أركان سياسته مناضلة الصليبيين الذين كانوا لا يزالون مقيمين على سواحل الشام . وعلى الرغم من أن وسائل القضاء عليهم قد توفرت منذ انهزامهم في موقعة المنصورة سنة ١٢٥٠ م إلا أنه لم يشرع في القضاء على دولتهم ببلاد الشام إلا منذ تولى بيبرس سلطنة مصر سنة ١٢٦٠ م. ويرجع ذلك إلى انشغال سلاطين المماليك بالعمل على إيقاف خطر المغول وضم الشام إلى مصر بعد أن انفصلت عنها على أثر اختيار أمراء دمشق الناصر داود الأيوبي سلطاناً عليهم^(١)؛ فكان لابد من التغلب على تلك العثرات قبل أن يستطيع سلاطين المماليك مواجهة الصليبيين مواجهة تامة .

وقد نجح المماليك في أيام الملك المظفر قطز في إزالة العقبة الثانية وذلك بعد إجلائهم المغول عن دمشق على أثر هزيمتهم على يد بيبرس في موقعة عين جالوت

(١) كان لاستقلال دمشق وانفصالها عن الجبهة الإسلامية في أيام الحروب الصليبية الأولى أثر كبير في تقدم الصليبيين ، إذ حالقت مملكة دمشق الدولة الصليبية ببيت المقدس سنة ١١٣٩ م ضد أتاك الموصل (Stevenson p. 143) . فلما صارت دمشق والموصل بيد نور الدين وضع الخطر على مملكة الصليبيين (Stevenson p. 173) ثم لما انفصلت دمشق مرة أخرى بتوزيع القوات الإسلامية على أثر إقامة صلاح الدين بمصر ونور الدين بالشام ضعفت المقاومة الإسلامية وقل الخطر الإسلامي إلى حد ما ثم زاد وبلغ النهاية العظمى لما أصبحت دمشق والقاهرة والموصل بيد صلاح الدين (Stevenson p. 230) غير أنه لما انقسمت مملكته على أثر وفاته بين أهل بيته ضعفت الجبهة الإسلامية أمام الصليبيين وشواهد ذلك واضحة ؛ فالهدنات التي عقدها العادل مع الصليبيين كان من أسبابها انشغال الأيوبيين بأموهم والمعاهدة التي عقدها الكامل مع فردريك الثاني كان من أسبابها انشغاله بأخيه المعظم صاحب دمشق . Stanley Lane-Poole, pp. 213, 215, 217, 225-226.

من هذا كله نرى أهمية انصواء الشام ومصر تحت سلطان واحد في مصير الصليبيين .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٨٣

التي مهدت الطريق لانضواء الشام ومصر تحت سلطان واحد سنة ١٢٦٠م^(١)؛ وبذلك تهيأت الأسباب التي تنذر بالخطر على دولة الصليبيين بالشام^٢. أما عن المغول الذين أسسوا دولة لهم بالعراق، فإنه على الرغم من تطلع المسيحيين الى هذه القوة الناشئة لتساعدتهم في حروبهم ضد المسلمين وتضمن لهم امتلاك الأراضي المقدسة تمكن بيبرس بفضل انتصاراته عليهم في بلاد الشام وتحالفه مع بركة خان سلطان مغول القفجاق من أن يجعل أمد الحلف بينهم وبين ايلخانات فارس قصيرا . وكان من أثر ذلك أن انصرف مغول فارس الى الاهتمام بمصالحهم الشخصية ، كما أنه قد أساء الى سمعة المسيحيين في غرب آسيا ما ارتكبه إخوانهم في الدين في دمشق وغيرها من مدن الشام من الفظائع في تلك المدة القصيرة التي أقامها بين ظهرانيهم مغول فارس حيث أولوهم عطفهم ورعايتهم^(٢) .

وقد عمل بيبرس على مناوأة الامارات اللاتينية في الشرق (من سنة ١٢٦١ — ١٢٧١ م) . ولم تمض سنة من تلك السنوات العشر بدون حملة يرسلها بيبرس الى تلك الامارات . فبدأ حملاته بغزوات صغيرة على أنطاكية — التي أعلنت عطفها على المغول — وقيليقيا وجهات عكا^(٣) . وكانت خاتمة أمره معهم أن ضيق عليهم الحصار واستخلص البلاد منهم حتى لم يبق لهم إلا النذر اليسير مما كان بأيديهم . وسنعرض لحروبه معهم والأسباب التي كانت تحمل الظاهر على غزوهم عدة مرات في مواقع متفرقة والتي جعلت منازلهم لهم تستمر مدة عشر سنوات تقريبا وفي كل موقعة ينتزع بلدا أو أكثر الى أن ألجأهم الى الانضواء في صقع لا يكاد يذكر بجانب ما كان لهم أيام صلاح الدين ومن خلفه من السلاطين الى عهده . نعم كان بيبرس في غزواته ضد الصليبيين ينتصر عليهم ويستولى على مواطنهم

(١) Stevenson : The Crusaders in the East p. 334.

(٢) Sir Thomas Arnold : The Preaching of Islam p. 223.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 267.

وينتقص مدنها من أطرافها وإن كان قد لقي كثيرا من المشقات والمتاعب من جراء نيل مقصده وتتم رغباته ؛ ومن ثم لم يهزم أمامهم أو يمتنع عليه أحد حصونهم .
على أن بيبرس لم يشرع في تنفيذ سياسته إزاء الصليبيين إلا بعد أن عقد عدة تحالفات مع الدول المحيطة بمملكته ؛ فتحالف مع بركة خان سلطان مغول القفجاق ضدّ خانات فارس وتبودلت بينهما البعث بين سنة ١٢٦١ - ١٢٦٣ م ، كما عقد تحالف دفاعية مع ميخائيل باليولوجس (Michael Palaeologus) امبراطور الدولة البيزنطية . ولم يكتف بذلك بل وسع دائرة تحالفاته فأرسل بعثا الى منفرد (Manfred) ملك صقلية وتسكانيا وتحالف مع سلطان السلاجقة الروم^(١) .

وقد بدأت مناوأة بيبرس للامارات اللاتينية بإغارة بعض أمرائه على بلاد أنطاكية وانتصارهم على الفرنجة سنة ١٢٦٠ م . وكان من أثر ذلك أن قدمت رسلهم اليه تطلب الصلح فأجابهم الى طلبهم^(٢) . غير أن الفرنجة لم ينفذوا ما وعدوا به من إطلاق سراح الأسرى المسلمين فعنفهم لقسوة قلوبهم على إخوانهم في الدين وأمر باستخدام أسرى المسيحيين في بناء حصون دمشق .

ولما هدا روع بيبرس من جهة الملك المغيث رأى أن في استطاعته أن يزحف بكل جنوده على الصليبيين . على أن السبب المباشر في إغارته عليهم يرجع الى تقضيم العهود إذ امتنعوا عن تسليم بعض المعادل ؛ فقام إظهارا لسخطه وغادر مصر الى بلاد الشام سنة ١٢٦٣ م^(٣) حتى إذا توسطها جاءت رسل الصليبيين بكتب يتجاهلون فيها وصول السلطان اليهم ؛ فكتب اليهم كتابا قال فيه ”إن من يتولى أمرا فعليه باليقظة

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (١) pp. 265-266.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٣ - ٤٦٤

(٣) Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (٣) p. 19.

ومن خفى عليه خروج هذه العساكر وجهل ما عليه الوحوش في الفلاة والحيتان في المياه من كثرتها التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته خيل هذه العساكر . ولعل وقع سنايبكها قد أصم أسماع من وراء البحر من الفرنج ومن في موقان^(١) من التتار . فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرّون فأى شيء تعملون ؟ . ولما رأى الظاهر مراوغتهم وأنهم أصبحوا يظهرّون التمسك بأهداب الهدنة بعد أن كانوا يكتبونه بندمهم عليها أحضر رؤساءهم وقال لهم "ما تقولون" ؟ . قالوا : "نتمسك بالهدنة التي بيننا" . فأجابهم بقوله "لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان وانفاق الأموال التي لو جرت لكنت بحارا ونحن لما حضرنا إلى هاهنا ما آذينا لكم زرا ولا غيره . وأتم منعم الجلب والميرة عن العسكر وسيرتم إلينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها وسيرنا نسخة يمين لم تحلفوا عليها وسيرنا الأسارى إلى نابلس ثم إلى دمشق ، وما سيرتم أتم أحدا وسيرنا رسولا يعلمكم بوصول الأسرى فلم تبعثوا أحدا ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم . كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم ... ثم إنا سيرنا رسولا إلى [بلاد السلاجقة] الروم وكتبنا إليكم بتسفيرهم في البحر فأشترتم عليهم بالسفر إلى قبرس ؛ فأخذوا وضيق عليهم وأتلف أحدهم . هذا مع إحساننا إلى رسلكم وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى . وما زالت الحرب قائمة والرسل مترددة . فإن كان هذا بغير رضاكم فإنه نقص في حرمتكم" . ثم ذكرهم بما كان من عفو الملك الصالح نجم الدين أيوب عنهم حين خرجوا عليه مع عمه الصالح اسماعيل بن العادل وأخذهم مقابل ذلك مدينتي صفد والشقيف وأنهم غدروا وناصروا لويس التاسع وصحبوه إلى مصر ... إلى أن قال "وبالجملة أتم أخذتم هذه البلاد من الملك الصالح اسماعيل لإعانة مملكة الشام وغيرها ... وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجاتهم فردّوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم

(١) إحدى أقسام أذربيجان . ياقوت : معجم البلدان .

فإني لا أقبل غير ذلك". فقالوا: "نحن ما ننقض الهدنة وإنما نطلب مراحم السلطان في استدامتها ونزيل شكوى التواب ونخرج من جميع الدعاوى ونفك الأسرى ...". فلم يقبل السلطان منهم ذلك وأمر بإخراج رسل الفرنجة ووجه الأمير علاء الدين طبرس إلى كنيسة الناصرة؛ فسار إليها وهدمها ولم يلق من الفرنجة أى مقاومة^(١). لم يكتف بيبرس بما أحدثه جيشه بكنيسة الناصرة؛ بل جرد جيشا إلى مدينة عكا فافتحم أبوابها، ثم سار بنفسه إليها وحاصرها من جهة البر ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م). وكان الفرنجة قد حفروا خندقا حول تل الفضول بالقرب من عكا واتخذوه قلعة يحاربون من فوقه.

رأى بيبرس هذا فلم يمنعه من مهاجمتهم تحصنهم بالتل؛ بل ذهب إليهم بجيشه وهناك رتب عساكره بنفسه وهم الجميع بردم الخندق وسرعان ما انتهوا منه وصعدوا فوق التل وانقضوا على الصليبيين ففروا منهزمين إلى المدينة والجيش يتعقبهم بعد أن هدم الأبراج وأحرق الأشجار وامتلاء الجوّ بالدخان. وحين دخل الصليبيون مدينة عكا، أغلقوا أبوابها كيلا يتمكن المسلمون من اقتحامها؛ غير أن الأمراء حملت على الأبواب الواحد بعد الآخر ثم انقضوا على الصليبيين دفعة واحدة شتتوا فيها شملهم إذ ألقى فريق منهم في الخنادق وقتل عدد عظيم وامتلاّت أيدي الجيش المصرى بالأسرى والغنائم^(٢). وهكذا ذاق الصليبيون وبال أمرهم ونالوا عاقبة غدرهم وعدوانهم على ما ليس لهم سلطان عليه من المدن والقرى.

وفي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) سار بيبرس إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير لمحاربة التتار؛ غير أنه لما أتت إليه الأخبار بارتدادهم عن البيرة ابتداء في مهاجمة المدن اللاتينية؛ فسار إلى قيسارية ونصب عليها المجانيق ثم اقتحمها ففر أهلها إلى

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٣ — ٤٨٧

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٥ — ٤٨٩

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East p. 338.

قلعتها واضطروا إلى تسليمها بعد أن استمرّ الهجوم عليها خمسة أيام، ثم هدمت أسوارها رغم تحصينات لويس التاسع لها. ولم يكن بيبرس يشجع الجند أثناء ذلك فحسب بل كان يشاركهم في هدم الأسوار بنفسه .

لم يترك بيبرس الفرنجة عند حدّ هذه الهزيمة التي نزلت بهم في قيسارية بل لم يكد ينته من هذه المعركة حتى أرسل جيشا إلى عثليت وحيفا أوقع التخریب فيهما، ثم حوّل وجهه نحو قلعة أرسوف البحرية الواقعة جنوبي قيسارية وشرع في مهاجمتها، غير أن سكانها (الفرسان الهوسبتاليين) دافعوا عنها دفاع الأبطال مدة أربعين يوما. وبينما كان بيبرس يهاجم المدينة كان الحماس الديني بالغاً أشدّه في نفوس الفقراء والدراويش حتى النساء الذين تجمعوا لحفر الخنادق تحت الأرض . وفي النهاية اضطّر بيبرس للمفاوضة مع الحامية وأمنهم على حياتهم، ثم أكرههم على العمل في تخریب حصونهم بأيديهم . وعند ما شرع في العودة إلى القاهرة زين بهم موكبه وهم يحملون الصليبان مكسرة والأعلام منكسة ^(١) .

وقبل أن يغادر الملك الظاهر ساحة القتال أقطع أمراءه قطائع من الأرض التي انتزعها من الصليبيين وسجل هذه العطايا في صحيفة ^(٢) أوردتها كل من النويري ^(٣) والمقرئزي ^(٤) . وقد بدأها بوصف حكمه وعظمته بألفاظ تم عن الفخر والاعتزاز بالنفس، وأنه هو الذي وطّد دعائم الدين الإسلامي بهزيمة أعدائه من التتار

(١) Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (١) p. 20.

(٢) ذكر مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٣٨ — ١٣٩ و ١٤٤ ؛ أن الظاهر بعد أن قتر منح أمراءه بعض الاقطاعات أرسل النسخ التي سجل فيها العطايا لأمرائه إلى مصر ليوقع عليها الوزير والخازن دار وديوان الجيش ، ثم أعيدت إليه ثانيا ووزعت على أصحابها . ولما تم ذلك حضر الأمراء إلى السلطان ليقدموا له فروض الشكر على ما منحه إياهم وقدم بعد ذلك قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان إلى غزة وكتب إقرارا بتملك هذه المنح للأمرء وافق عليه السلطان ثم أعطى كل أمير نسخة منه .

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٢٧٧ — ٢٨٠

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٣٠ — ٥٣٤

والصليبيين ، كما أشاد فيها بذكر ما قام به أمراؤه من الخدمات الجليلة التي جعلته يؤثرهم على نفسه ويمنحهم البلاد والضياع .

ما كان الظاهر ينازل الصليبيين ويتجشم المتاعب في محاربتهم مضجيا بكل ماله من عدة وعدد في سبيل الإيقاع بهم إلا لعدم وفائهم وتعديهم على ما ليس لهم من المدن والقلاع وتتابع إغاراتهم على ممتلكات سلطان مصر .

ففي سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) أغار بوهمند السادس ملك أنطاكية على مدينة حمص^(١) ، فأرسل إليها بيبرس قوة لنجدتها ثم سار من مصر بكل ما لديه من الجنود . ولما وصل إلى غزة سير جيشا إلى ناحية حمص بقيادة الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي والأمير سيف الدين قلاوون الألفي ، فأغاروا على الفرنجة ، ثم ورد عليهم كتاب السلطان بالتوجه إلى طرابلس فساروا على غرة من العدو ونزلوا على حصن الكراد وأغاروا على ساحل البحر من جهة طرابلس واستولوا على بعض القلاع . أما بيبرس فإنه توجه لزيارة بيت المقدس والخليل ، فزار قبر سيدنا إبراهيم عليه السلام وأفاض النعم على حراسه وأمرهم بعدم السماح لأهل الذمة بزيارة هذا المكان المقدس^(٢) . ثم اتجه نحو مقصده فتقدم نحو عين جالوت وأرسل بعض الأمراء في عدة من العسكر لغزو صور وصيداء وجهة القرن ، ثم سار بنفسه إلى عكا وأقام بها حتى قدم إليه هؤلاء العساكر محملين بالغنائم فرحل معهم إلى مدينة صفد^(٣) . وهناك وافته الحملة التي سیرت لتخليص حمص بعد أن قامت بمهمتها^(٤) .

تجمعت هذه القوى أمام صفد . ولم يتخل بيبرس عن جيشه أثناء الهجوم بل كان يشغل بنفسه في محاصرتها ويشجع الجنود . وقد ضرب لنا المثل الأعلى بما كان

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (١) p. 21.

(٢) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الثاني ص ٢٨٥ — ٢٨٦

(٣) كانت صفد في ذلك الوقت إحدى معاقل الفرسان الداوية : King : The Knights Hospitallars in Holy Land p. 260.

(٤) المقريري : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٤٥ — ٥٤٦

يبذله من الجهد والعناية بالمرضى والجرحى؛ وفي نفس الوقت منع شرب الخمر في المعسكر، وشدد العقوبة على من تحدّثه نفسه بالنهب أو باتلاف بالمزروعات^(١). ظلت الحرب قائمة بين الفريقين على قدم وساق وكلاهما يزداد همة ونشاطا إلى أن ضعف الصليبيون آخر الأمر عن المقاومة؛ فسقطت قلعة صفد بعد حصار دام ثلاثة أسابيع على الرغم من أنها كانت محصنة تحصينا قويا وأضطر رئيس الداوية إلى التسليم على أن يؤمنهم بيبرس على حياتهم وأن يرحلوا إلى عكا سالمين^(٢). فأمنهم على أن تخرج الحامية من القلعة بغير سلاح ولا لامة حرب وألا يتلفوا ذخائر القلعة^(٣). على أن الفرنجة لم يلبثوا أن نقضوا الأمان ونكثوا العهد. فقد وجد بيبرس أنهم عندما خرجوا من القلعة حملوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم كما وجد معهم بعض الأسرى من المسلمين أخرجوهم معهم على أنهم نصارى فأخذ مامعهم ثم ضرب أعناقهم على تل بالقرب من صفد. ولم ينج منهم سوى رجلين أحدهما الرسول الذي أسلم وظل في خدمة بيبرس، وثانيهما أطلق بيبرس سراحه وسمح له بالذهاب إلى عكا ليخبر الفرنجة بما شاهده^(٤).

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 267
(٢) King: The Knights Hospitallers in Holy Land p. 261.
(٣) النويري: نهاية الأرب ج ١٨ القسم الثاني ورقة ٢٩٠؛ وقد زاد على ذلك المفضل: كتاب النهج السديد ص ١٤٩، فقال إنه اشترط عليهم أن يفتشهم عند خروجهم، فان وجد مع أحد منهم شيئا مما منعهم في أخذه انتقض العهد.

(٤) هناك رواية ذكرها مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١٥٠، يفهم منها أن جنود حامية صفد الصليبيين لم تخل بالشروط وأن السلطان لم يكن مرتبطا معهم شخصيا بعهد أمان وإليك نصها (... حكي الأمير ركن الدين بيبرس العلائي أن السلطان لم يحلف لأهل صفد وإنما أجلس مكانه كرمون أغا التتري وأوقف الأمراء في خدمته، فحلف لهم كرمون وعمل عليهم الوزير الذي لهم وكان نصرانيا، فنزلوا على يمين كرمون. فلما نزلوا جعلوا عليهم الحجّة أنهم أخذوا معهم ما لم يقع عليه اليمين فضربت رقابهم عن آخرهم وكانوا نحوًا من ألفي فارس).

(٥) المقرئزي: السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٤٧ — ٥٤٨؛ هذا، وقد كان الشخص الذي أسلم ودخل في خدمة السلطان فارسا من الداوية. أما الثغري الذي ذهب إلى عكا ليخبر الفرنجة بما رآه فكان من فرسان الأسبتار King: The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 261.

وهنا تبدولنا صورة يراها المطلع في ظاهرها غدرا ولكن إذا ما بحث عن أسبابها وعللها اتضح له أنها لم تخرج عن كونها جزءا طبيعيا لمن حلت بهم . فلم يتعد بيبرس بفعله حدود ما أمنهم عليه وشرطوه على أنفسهم . وهذا العمل يعتبر غدرا لو أنه قتلهم بعد التأمين في وقت لم ينقضوا فيه عهدا . أما وهم قد نقضوا العهد فليس فعله اذن من الغدر أو الخيانة في شيء . ولا معنى لحمل بعض المؤرخين من أمثال Muir هذا العمل من بيبرس على الغدر والنكث . وفي ذلك يقول ميور^(١) " إن هذا الجرم الفظيع عزاه فريق إلى أن الأسرى حين خروجهم حملوا أسلحتهم وأمتعهم ، كما أن فريقا آخر يرى أنه يرجع إلى أن بعض المسلمين وجدوا مسجونين بالقلعة . على أن هذه الأسباب لا تنحو عن ذلك الفاتح تلك النقطة السوداء التي لصقت بالناسانية بل بإيمانه " .

فهذا المؤرخ أصدر حكما قاسيا على بيبرس تجلت فيه الأهواء والميول وكفانا بالظاهر من صفات عالية وأخلاق فاضلة ووفاء بوعوده ، أنه لم يفعل مثل هذا بغير من حلت بهم ممن كانوا يطلبون الأمان فيؤمنون وأمثلة ذلك كثيرة في كل غزواته معهم .

تم الأمر على ما ذكرنا واستولى الظاهر على مدينة صفد بعد أن خرب قلعتها ، غير أنه في السنة التالية أعاد بناءها واشترك في ذلك بنفسه وكتب على أسوارها عبارات تدل على انتصاراته وتغلبه على الصليبيين تقتطف منها ما يأتي : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » . أمر بتجديد هذه القلعة المحروسة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها من خلصها من أيدي الفرنج الملاعين وردّها إلى أيد المسلمين ونقلها من مسكن إخوة الداوية إلى سكن إخوة المؤمنين فأعادها للإيمان كما بدأها أول مرة وجعلها الكفار خسارة وحسرة . ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوّض عن الكائنات

بالجوامع والبيع بالمساجد وبدل الكفر بالإيمان والناقوس بالأذان والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه التي هي أعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرؤوس، سلطان الإسلام والمسلمين... سيد التتار، فاتح القلاع والحصون والأمصار، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين^(١)“ .

فما تقدّم نرى أن غزوات بيبرس انقلبت منذ سنة ١٢٦٥ م إلى محاولات في سبيل التوسع والفتح . فاستولى على قيسارية وارسوف وسوى بخصونها الأرض^(٢)، ثم نراه بعد أن يستولى على صفد يوجه نظره إلى هونين (Chateaufort) والرملة فيستولى عليهما من غير مقاومة^(٣) .

وعند ما توجه الملك الظاهر لمقابلة جيوشه العائدة من بلاد سيس بعد انتصارها على هيتوم ملك أرمينية سنة ١٢٦٦ م علم أن سكان قرية «قاراً»^(٤) يتعدّون على أصحاب الضياع ويغيرون على المسلمين ويبيعون من تقع عليه أيديهم بيع الرقيق إلى الفرنجة بخصن عكاء^(٥) . فلم ير الظاهر بدا أمام هذه الفطائع من الإغارة عليهم في عقر دارهم وضربهم ضربة شديدة، فأحرقت صوامعهم ومزقت أوصال رهبانهم وحوّلت كنيستهم إلى مسجد وأخذ شبانهم مماليك في أيدي المماليك وسيروا إلى مصر حيث ترقى بعضهم إلى المناصب العالية^(٦) .

بعد أن استقرّ مقام الظاهر بمصر توجه في جماعة من أمرائه إلى بلاد الشام . فتزل غزاة ورحل منها إلى صفد وعلم إذ ذاك بتوجه التتار إلى الرحبة فسار إلى

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٣٦ - ١٣٨

(٢) Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages p.267.

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 261.

(٤) تقع على الطريق من دمشق إلى حمص . ياقوت : معجم البلدان .

(٥) المقرئ : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٥٢ - ٥٥٣

(٦) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 24.

دمشق ولما دخلها بلغه خبر ارتدادهم . فعاد ثانيا إلى صفد^(١) ، ثم حاول أن يفاجئ عكاء بهجومه ؛ فسير فرقتين من الخيالة متخفيتين بأن ألبس عسكر إحداها ملابس الفرسان الاسبتار ، والثانية ملابس فرسان الداوية . غير أن هذه الحملة لم تلبث أن كشف أمرها ، وعلى الرغم من ذلك فقد قام المسلمون بمذبحة هائلة مع السكان الذين يقيمون خارج أسوار المدينة^(٢) .

ولما رأى بيبرس أن المدن اللاتينية في ذلك الوقت ترغب في عقد الصلح اتبع خطة واضحة إذ اتفق مع بعضها وترك البعض الآخر يتحمل هجماته ؛ فعقد الصلح مع أميرة بيروت^(٣) ومدينة صور التي اضطرت إلى دفع مبلغ كبير من المال^(٤) وأطلقت سراح الأسرى المسلمين ، كما عقدت الهدنة بينه وبين الاسبتار بحصن الأكراد والمرقب^(٥) . وقد أسهب القلقشندي في بيان هذه المهادنة ونكتفى هنا بذكر بعض ما وقع عليه الصلح بين الطرفين لتبين منه قوة الملك الظاهر وجيشه ولتعترف أيضا حال الصليبيين بوجه عام وما آل إليه أمرهم من الاستكانة والضعف ؛ فقد نصت هذه الهدنة على :

(١) أن يكون أمده عشر سنين وعشرة أيام وعشرة ساعات تبتدى من يوم

الاثنين الرابع من رمضان سنة ٦٦٥ هـ . ١٢٦٦

(٢) ألا تنقض بموت أحد الطرفين .

(١) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٥٨

(٢) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 262

(٣) ذكر العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٤ ، أن رسل هذه الأميرة قدمت إلى الملك الظاهر وهو بصفد في شعبان سنة ٦٦٥ هـ لأن أخاها كان قد غرر بمركب بها جماعة من التجار متوجهين إلى قبرس ؛ فطلب منهم السلطان أن يحضروا إليه مال هؤلاء التجار ويطلقوا سراحهم ، فلبوا طلبه وعقد الصلح معهم .

(٤) هذا المبلغ كان عبارة عن الدية التي أخذها أولاد السابق شاهين غلام الملك الظاهر . وكان قد قتل بصور فقرر السلطان عليهم دفع ١٥٠٠٠ دينار صورية . النويری ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٢٩٨

(٥) Stevenson, The Crusaders in the East p. 340.

(٦) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣١ — ٣٩

(٣) ألا يأخذ بيت الاستتار الجزية التي كانت مفروضة على بلاد الاسماعيلية وحماه وشيزر وأفامية وأبي قبيس .

(٤) أن يتولى أمر سكان هذه البلاد فيما يختص "بالحبس والاطلاق والحماية" نائب من قبل الظاهر ونائب من قبل الاستتار ؛ فإن كانوا مسلمين حكم فيهم بشريعة الإسلام ، وإن كانوا مسيحيين عوملوا بمقتضى الشريعة المسيحية . هذه هي أهم شروط هذه المهادنة . وهناك شروط أخرى تليها في الأهمية يطول بنا المقام في ذكرها ؛ غير أننا نشير إلى أن كثيرا من مواد هذه المهادنة ينص على تقسيم الكثير من البلدان مناصفة بين الظاهر والصليبيين .

وفي السنة التالية (٦٦٦ هـ = ١٢٦٨ م) وجه بيبرس ضربه القاضية الثانية ضد بقايا المملكة اللاتينية . فبعد مهاجمته أسوار عكا ظهر فجأة أمام يافا في ٧ مارس سنة ١٢٦٨ م — وكانت المعاهدة التي بينه وبين صاحبها قد انتهت على أثر وفاته سنة ١٢٦٦ م ولم يجددها مع ابنه (Guy d'Ibelin) ^(١) — فانقض عليها من غير سابق انذار وتمكن من الاستيلاء على المدينة وتخريبها . ثم سار السلطان شمالا قاصدا الشقيف أرنون التي كان يمتلكها الفرسان الداوية وكانت محصنة تحصينا قويا ، فلم يستطع الوصول إليها إلا في ٦ أبريل من السنة المذكورة ، واستخدم في هدم أسوارها ستة وعشرين منجنيقا . وبعد تسعة أيام من وصوله تمكن من الاستيلاء عليها ^(٢) .

(١) ذكر النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٢٩٩ أن بيبرس عند ما قدم إلى صفد لبناء قلعتها وفد عليه مقدم يافا وطلب منه أن يجدد عقد الهدنة بينه وبين ابن صاحب يافا فامتنع السلطان عن ذلك .

(٢) زاد العيني (عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٧) على ذلك فقال : إن المسلمين لما استولوا على مدينة يافا لجأ أهلها إلى القلعة وطلبوا الأمان على أن يخرجوا بأموالهم وأولادهم ؛ فأجابهم السلطان وتسلم القاعة منهم .

(٣) ذكر المفضل (النهج السديد ص ١٦٤ — ١٦٥) أن الملك الظاهر توسل بحيلة للاستيلاء على الشقيف . وتلخص في أنه عندما قدم إليها عثر على كتاب من الفرنجة المقيمين بعكا يتضمن إفادة التواب =

ولما تم استيلاء بيبرس على الشقيف اتجه إلى شمال سورية؛ فصار إلى طرابلس وهاجم البلاد المحيطة بها، ولم يستطع الأمير يمووند السادس أن يوجه ضده أية مقاومة^(١)، ثم رحل إلى صافيتا وانطرسوس فتلقاه صاحبهما بالترحاب وأطلق سراح ثلاثمائة أسير كانوا عنده، فلم يتعرض السلطان لبلاده وتقدم نحو الشمال إلى حمص ومنها سار إلى حماه؛ وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق للزحف على بلاد أنطاكية تولى قيادة إحداها ونزل بها على أفامية . وعندما وصل إلى أنطاكية وافته بقية جيوشه^(٢)، وبدأ يهاجمها في أوائل مايو سنة ١٢٦٨ م (رمضان سنة ٦٦٦ هـ)، واقتتل الفريقان قتالا شديدا أسر أثناءه حاكم المدينة . وكان بيبرس في ذلك الوقت يرغب في عقد الصلح لوقف تيار القتال حقنا للدماء التي تراق، فحاول أن يوسط ذلك الحاكم الذي أسره في أن يلقى السكان أسلحتهم ويسلموا المدينة؛ غير أنهم أبوا ذلك وظلوا يدافعون عن مدينتهم ممتنعين عن تسليمها . حينئذ لم يجد بيبرس بدا من مهاجمة أسوار المدينة وأوصد أبوابها في وجه السكان، وأنقض عليهم ذبجا وقتلا وأسرا . وكان عددهم نيفا ومائة ألف نسمة بما فيهم الرهبان والقسس^(٣) .

وحين رأى رجال الحامية — وكان عددهم ثمانية آلاف — أن المدينة وقعت في أيدي المسلمين، ارتدوا إلى القلعة ثم سلموها في اليوم التالي على أن يؤمنوا على حياتهم . وبذلك سقطت مدينة أنطاكية بعد حصار دام خمسة أيام^(٤) .

= بالشقيفين أن المسلمين لا يستطيعون الاستيلاء على الحصن إلا إذا دافعوا عنه دفاعا مجيدا . ولما اطلع بيبرس عليه أرسل إلى المقدم المقيم بالشقيف كتابا يذكر فيه أمارات بينه وبين أهل عكا ويحذره من الوزير المقيم عنده ومن جماعة وردت أسمائهم في الكتاب ، كما أرسل كتابا آخر للوزير يحذره من هذا المقدم ويأمره فيه بأنه إن احتاج إلى مال يأخذه من ملك ذكر اسمه في الكتاب . فلما وقف أهل الشقيف على هذه الكتب وقع الخلاف بينهم في الوقت الذي كانوا محاصرين فيه ، فاضطروا إلى تسليم حصن الشقيف .

(١) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 263

(٢) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٦٧

(٣) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Fgypt, p. 25.

(٤) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 263.

ولم يكتف بيبرس بهذا الدمار الذي أنزله بالمدينة بل أسر حامية القلعة ووزع^(١) أفرادها على الأمراء^(٢) . ثم أرسل إلى يميند — وكان إذ ذاك بطرابلس — رسالة تهكم يشاطره فيها الحزن على مصير حاضرة ملكه وضمنها عبارات التقريع والسخرية . وقد أوردناها كل من النويري^(٣) ، والمفضل^(٤) ، والعيني^(٥) . وسنكتفى بذكر بعض فقراتها لأهميتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم » قد علم القومص الجليل المبجل المعزز الهام الأسد الضرغام يميند نخر الأمة المسيحية رئيس الطائفة النصرانية ... ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وماشاهده بعد رحيلنا من إحراق العمار والأعمار، وكيف كنست تلك الكنائس على بساط الأرض ... وكيف قتلت الرجال واستخدمت الأول وتملكت الحرائر ... وكيف نهبت لك ولرعيك الأموال والمواشي، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب ... وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت ... وكيف فارقنا بلادك ولا بقيت بها ماشية إلا وهى لدينا ماشية ولا جارية إلا وهى لدينا جارية ... وها نحن نعلمك بما تم ونفهمك بالبلاء الذى عليك قد عم . رحلنا عنك من طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرون شعبان (كذا فى الأصل) ونزلنا

(١) يفهم من عبارة النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٠٨ فى هذا الصدد، والمفضل : كتاب النهج السديد ص ١٧١ — ١٧٢ ، أن الحامية هى التى طلبت من السلطان أن يأخذهم أسرى . واليك نص عبارة النويري " ... وأما القلعة فاجتمع بها ثمانية آلاف مقاتل غير الحرير والأولاد فتحاشروا بها ولم يكن بالقلعة ماء يكفيهم فسبوا يوم الأحد ثانى يوم الفتح يطلبون الأمان من القتل وأنهم يؤخذون أسرى فلوقت طلع السلطان فصادف جميع من فى القلعة قد خرج إلى ظاهرها وعليهم الملابس الحسنة ؛ فاستغاثوا للسلطان فعفا عنهم من القتل وأحضرت الحبال فربطوا بها وتسلم كل أمير جماعة من الأسرى " . أما عبارة المفضل فلا تختلف اختلافا كبيرا فى ألفاظها ومعانيها عما ذكره النويري ، لذلك نكتفى بالإشارة إليها .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٧

(٣) نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٠٨ — ٣١١

(٤) كتاب النهج السديد ص ١٦٧ — ١٧١

(٥) عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٩ — ٥٤٢

بأنطاكية في مستهل رمضان . وفي حالة التزلزل خرجت عساكرك الى المبارزة فكسروا
وتناصروا فما نصرُوا ، وأسر من بينهم كند اسطبل فسأل في مراجعة أقرانك ودخل
إلى المدينة وخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك فتحدثوا معنا فرأيناهم
إلى رأيك من إتلاف النفوس بالعرض الفاسد ... فلما رأيناهم قد فات فيهم
الفوت وأنهم قد قدر الله عليهم بالموت رددناهم وقلنا نحن الساعة لكم نحاصر ...
فرجعوا متشبهين بفعلك ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ... وفتحناها
بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع عشر رمضان ... وبعد هذه المكتوبة
لا ينبغي لك أن تكذب خبرا كما أن بعد هذه المخاطبة يجب ألا تسأل غيرها مخبرا .

ولما تم لبيبرس فتح أنطاكية سلم قلعتها للأمير بدر الدين بيلبك الخازن دار
والأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ، ثم أمر باحضار الغنائم وقسمها بين أفراد جيشه .^(١)
وعلى أثر انتهائه من ذلك سار إلى القلعة وأشعل النار فيها فامتد لهيبها إلى أنحاء المدينة ؛
وبذلك تركها أثرا بعد عين .^(٢)

هزت كارثة أنطاكية جميع الصليبيين فهرب الفرنج الداوية ببغراس وتركوا
الحصن خاليا ، فأرسل الظاهر قوة من جنده احتلت القلعة واستولت عليها ،
ثم أعدها بالعدة والرجال ، وأصبحت منذ ذلك الوقت في عداد الحصون الإسلامية .^(٣)
كذلك هال أمر هذه الحوادث سكان القلاع الصليبية الأخرى ورغبوا في مودة
الظاهر كيلا ينال إخوانهم ؛ فطلبت إمارة طرابلس المفاوضة في الصلح ،
وبدأت المفاوضة فعلا ؛ ورافق بيبرس سفراءه في زى خادم ليتعرف خباياها
ويدرسها تمهيدا لمحاصرتها فيما بعد ، وكذلك عكا — وهى البقية الباقية من دولة

(١) زاد على ذلك العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٩ ، فقال إن ما خص بيبرس من
غنائم أنطاكية أرسده لعارة الجامع الذى أنشأه بالحسينية بالقاهرة .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٣١٢ و ٣١٩ — ٣٢٠ ؛ المقرئى : السلوك
ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٨ (٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ص ٥

بيت المقدس — طلبت المفاوضة والصلح^(١) فقدمت رسل صاحبها إلى السلطان بدمشق على أثر عودته من أنطاكية وتفاوضت معه في هذا الأمر^(٢). فتقرر عقد معاهدة بينهما على أن تكون بلاد عكا مناصفة بين بيبرس وصاحبها وأن تظل حيفا وصيدا على حالهما. غير أن هذه المواد عند ما عرضت بعكا لإقرارها لم تصادف قبولا^(٣).

أما بلاد صور فقد أغار عليها بيبرس قبل أن يعود إلى مصر في أواخر يولية سنة ١٢٦٨ م^(٤). وعلى الرغم من أنه كان من سياسته أن يوطد دعائم الصلح بينه وبين بعض المدن اللاتينية، فإن البعض الآخر — كصور — لم يعط أية مهادة. وقد زحفت الجيوش الإسلامية مرة أخرى في ربيع سنة ١٢٦٩ م على أراضي عكا وصور، وساهم بيبرس بنفسه في هذه الحركات وتهاون مع بيروت وما جاورها من البلاد^(٥).

لم تفرهمة بيبرس الحربية عن مناوأة الصليبيين، فكان يستولى على معاقلم الواحد بعد الآخر رغم ما كان يصل إليهم من المدد من أوربا^(٦). وكان السلطان ينظر دائماً إلى بوهمند السادس كأكبر خصم له. والواقع أنه كان أقوى الأمراء الصليبيين؛ فبعد أن نزع بيبرس منه أنطاكية عمد إلى إتمام إسقاطه بالاستيلاء

(١) Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, p. 269.

(٢) العيني: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٤

(٣) يفهم مما ذكره المقرئى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٧١ فى هذا الصدد أن السلطان أرسل إلى صاحب عكا محي الدين بن عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيث ليحلفا صاحب عكا على هذه المعاهدة وكان معها هدية فيها عشرون نقسا من أسرى أنطاكية، فلم يوافق على بعض موادها.

(٤) أورد العيني: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ و ٥٥٠، السبب الذى من أجله أغار بيبرس على مدينة صور، فقال إنه عند ما خرج من دمشق بعساكره إلى الديار المصرية جاءته امرأة فى أثناء الطريق وأخبرته بأن ابنها لما دخل صور غدر به صاحبها وأخذ ماله، فركب السلطان وشن الغارة على مدينة صور وغنم منها غنائم كثيرة.

(٥) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 342.

(٦) Muir: The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 25.

على طرابلس . وكان من الضروري قبل استيلائه على تلك المدينة أن يستولى على الحصون الخارجية ، لذلك شرع في الاستيلاء على حصن الأكراد وبدأ في محاصرته في شعبان سنة ٦٦٩ هـ (فبراير سنة ١٢٧١ م) ، وظل المسلمون يحاصرون القلعة حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها في ٣٠ مارس من السنة المذكورة ، واضطرت الحامية إلى ترك أسلحتها وتسليم القلعة ، فعاملهم السلطان معاملة حسنة وأمنهم على حياتهم وأطلق سراحهم .

غير أن بعض الفرسان الهوسبتاليين عادوا للحرب وصمموا على التضحية بحياتهم حتى يخرجوا المسلمين من القلعة ، فلم ير المسلمون بدا من إحضار آلات الحصار داخل القلعة ليكونوا على استعداد لهدم الملجأ الأخير لهؤلاء الفرسان ، ورأى السلطان أن يستولى على بقية الحصن من غير أن يصيب تحصيناته خسائر كثيرة . لذلك أرسل إلى الحامية خطابا مزقورا^(١) على اعتبار أنه مرسل من رئيس الفرسان الهوسبتاليين يأمرهم فيه بتسليم الحصن . وكان من أثر ذلك أن فتح الهوسبتاليون باب المفاوضات مع السلطان ونظمت شروط التسليم . وفي اليوم التالي ساروا إلى طرابلس^(٢) .

وبعد أن تسلم بيبرس الحصن كتب إلى رئيس فرسان الاسبتار^(٣) - وهو صاحب حصن الأكراد^(٤) - كتابا هذا نصه : " إلى (افير أوك) جعله الله ممن لا يعترض

(١) ليس هناك في المصادر العربية ما يشير إلى أن بيبرس أرسل خطابا مزقورا لحماية حصن الأكراد . ونحن نستبعد ذلك على بيبرس . ولو أن هذه الواقعة كانت حقيقية لأشار إليها Stevenson, Muir لا سيما وأن Muir خاصة كثيرا ما ينحى باللائمة على بيبرس في بعض مواقفه . وقد أجمعت المصادر الأخرى على أن أهل قلعة حصن الأكراد لما غلبوا على أمرهم سهلوا القلعة وطلبوا الأمان فأمنهم السلطان وأطلق سراحهم ثم رحلوا إلى طرابلس .

(٢) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 270

(٣) كان رئيس فرسان الاسبتار في هذه السنة . Hugh Revel : King : Op. Cit p. 271

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٦ ؛ العيني : عقد الجمان

ج ٢٠ المجلد الثالث ص ٥٦٣

على القدر ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر، ولا نعتقد أنه ينحى من أمر الله بالقدر ولا يحى منه محجور البناء ولا مبنى الحجر . نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذى حصنته وبنيتة وخليته وكنت الموفق لو أخليته واتكلت فى حفظه على اخوتك فما نفعوك، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك . وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن وتبقى أو تخدم سعيدا وتشقى .“

وأمام هذا الهجوم المتواصل حسبت بقايا الصليبيين أن الصلح والاستكانة خير ما تستطيع أن تكسب . فلم يكذب بيبرس ينتهى من حصن الأكراد حتى سارع مقدم الداوية بأنطرسوس إلى طلب الصلح وبعث مفاتيح حصنه إلى السلطان، فصالحه على أن يرسل اليه نصف ما يتحصل من غلال بلاده . وعين واليا من قبله على هذه البلاد . كذلك قدمت اليه رسل الاسبتار بحصن المرقب تطلب الصلح، فتعاهد معهم على مثل ما تعاهد به مع الداوية بأنطرسوس، وقرر أن تكون الهدنة^(١) بينهم ولمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام .

ولما تم لبيبرس الاستيلاء على حصن الأكراد رحل الى حصن عكار^(٢) وبدأ هجومه عليه فى ١٧ رمضان سنة ٦٦٩ هـ (٢٩ إبريل سنة ١٢٧١ م) وشددت عساكره الحصار . وحين رأى سكان الحصن ألا طاقة لهم بقتال جيش بيبرس طلبوا الأمان ؛ فلبى السلطان طلبهم وأمنهم على حياتهم^(٣) . وبذلك تمكن من الاستيلاء على هذا الحصن ثم استعدت ليهاجم طرابلس بنفسه . ولكن أخبار

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٨٩ — ١٩٠

(٢) يقع شمالى طرابلس وهو مبنى على جبل بنفس الاسم .

Le Strange: Palestine Under Moslems pp. 80, 390.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٧

قدوم الأمير ادوارد^(١) وبعض الصليبيين الى عكا في ٩ مايو سنة ١٢٧١ م جعلته يرضى بعقد الصلح^(٢).

على أن بيبرس قد شرع فعلا في مهاجمة طرابلس ، فأحاطت عساكرها وشددت الحصار عليها ، فأرسل اليه أميرها بوهمند السادس يقول له : ” ما مرادك أيها السلطان في هذه الأرض ؟ “ . فقال : ” جئت لأرعى زرعكم وأخرب بلادكم ثم أعود الى حصاركم في العام الآتي “ . فأرسل اليه أمير طرابلس يستعطفه ويطلب منه عقد الصلح^(٣) ، فسير اليه السلطان الأمير فارس الدين الأتابك والأمير سيف الدين بلبان الرومي الدوادار بمقترحات لعقد الصلح ، فامتنع بوهمند عن قبولها وعزم على مواصلة القتال وقال للأميرين : ” إن السلطان لما أخذ أنطاكية مني بالسيف كان عذري مبسوطة عند الفرنج ، ولما قصد حصن عكار فطلب (كذا في الأصل) مني أن أنزل عن نصف بلادى ، فلم أجبه خوفا من الفرنج أن يعيروني بتسليمي البلاد من غير حرب و قتال وأنا أعلم أنى لا أقدر به ، لكننى لا يحسن بى أن أسلم اليه البلد من غير قتال حتى لا يكون على عتب من ملوك الفرنج “ . فعاد الأمير سيف الدين الى السلطان وأخبره بذلك ، فرأى أن يعامله بالحسنى ويتفق معه على أن تكون له عرقة وجبيل وأعمالها . أما ساحل أنطرسوس والمرقب وبانياس فتكون مناصفة بين

(١) هذا الأمير هو الذى أصبح فيما بعد ملكا على إنجلترا باسم (Edward I). وقد أبحر من Southampton في أغسطس سنة ١٢٧٠ م ، وبصحبه ثلاثمائة فارس وثلاثة عشر مركا ؛ فلما وصل إلى سردينيا سمع بوفاة لويس التاسع ملك فرنسا الذى كان قد أبحر إلى تونس على رأس حملة صليبية ، فأبحر الأمير ادوارد إلى قرطاجنة ووصل إلى معسكر الصليبيين بعد إمضاء الهدنة بين الصليبيين وملك تونس . ولم يعجب هذا الأمير اختتام هذه الحملة الصليبية على هذا النحو الذى انتهت إليه فانصرف إلى صقلية حيث قضى فيها الشتاء ثم أبحر في الربيع إلى عكا . King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 268.

(٢) Stevenson, Crusaders in the East, p. 343 ; King, The Knights

Hospitallers in the Holy Land, p. 271.

(٣) المبنى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٦٦

السلطان والداوية والاسبتارية؛ فرفض بوهمند أيضا هذه الشروط، فما كان من السلطان إلا أن صمم على ما اشترطه عليه أولا، فلم ير بوهمند السادس بدا من من ذلك الصلح وتهادن معه لمدة عشر سنوات .

ولما تمت هذه المهادنة توجه صاحب طرابلس الى أبغا ملك التتار يستصرخه على المسلمين، وذكر له ما فتحه بيبرس من البلاد والحصون فأمر به فضرب بين يديه . وقال له : أنت ما جئت إلا لتخوفني منه وتنفرني عنه وتملاً قلوب عسكري رعباً^(١) . ✓

وهكذا تم للظاهر الكثير من رغباته ومآربه من الصليبيين الذين كان يبذل جهده على استخلاص البلاد الشامية كافة منهم وضمها الى حوزته . وكانت هذه المهادنة المعقودة بينه وبين أمير طرابلس خاتمة أعماله الجدية معهم وإن كانت المناوشات بينه وبينهم قد ظلت قائمة حتى أواخر أيامه . ففي أوائل يونية سنة ١٢٧١ م كان مركز قيادة بيبرس بصفد فسار منها^(٢) إلى حصن القرين^(٣) وهاجمه حتى استولى عليه في ١٢ يونيه^(٤) . ولما رأى أهله ألا طاقة لهم بملاقاة

✓ (١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٢ - ١٩٥

(٢) مدينة في جبال عاملة (وهي من جبال لبنان) المطلة على حصص . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) يقع هذا الحصن بالقرب من صفد ويسمى أيضا Montfort أو Starkenburg

King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 271

وقد ذكر مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٧ - ١٩٩ : أن بيبرس لما دخل القرين قدم اليه رسولا صاحبي قبرس وطرابلس وتحدثا معه في الجلاء عن هذا الحصن . فقال له رسول صاحب طرابلس : " البرنس غلام السلطان وقد شفع عندك في هذا الحصن وسألك أن ترحل عنه " فقال السلطان : " كلامه عندي مقبول ، ولو جاءني رسوله قبل نزولي عليه ما خالفته . وقد نزلت عليه ولا يمكنني الرحيل عنه " . ثم تحدث معه رسول صاحب قبرس فقال : " صاحبي سيرني لأنظر إلى السلطان هل رحل أم لا ؛ فإنه بلغه أن العساكر تقدمت إلى مصر " . فقال السلطان : " رحلت من عساكري الأتقال والضعفاء ، ثم قال : فهل لم يسألك حاجة نقضها له فإنه عندنا ضيف ؟ " فقال الرسول : " لم يأمرني بشيء " . ثم مضى مرعاد فقال : " حاجته عندك أن تدفع له بعلبك ونابلس " ، فقال له السلطان : " إنا نأخذ منكم حصونكم أولا فأول وتطلبوا مني حصوني ؟ " .

(٤) Stevenson: The Crusaders in the East, pp. 343-344. (٤)

المسلمين طلبوا الأمان فأمنهم السلطان وقرر خروجهم إلى حيث شاءوا على ألا يستصحبوا معهم مالا ولا سلاحاً^(١). ثم سار السلطان إلى أبواب عكا، ولم يلبث بعد ذلك أن عاد إلى القرين وأمر بهدم قلعتها فهدمت^(٢).

وفي هذه الأثناء كان الأمير إدوارد لا يزال بعكا وقد تمكن من إعداد قوة يتراوح عددها بين ستة آلاف وسبعة آلاف جندي؛ فرأى بيبرس من جهته أن يعمل على منع بارونات جزيرة قبرس من الانضمام إليه، فأرسل أسطولا إلى هذه الجزيرة للاستيلاء عليها؛ غير أن هذا الأسطول مالبت أن حطمته عاصفة عند شواطئها. وفي شهر يونية من سنة ١٢٧١ م تقدم الأمير إدوارد وهيو ملك قبرس إلى الناصرة، وكانا يأملان من ذلك أن يرغما بيبرس على رفع الحصار عن حصن القرين، غير أن أملهما هذا لم يتحقق، فانتهر إدوارد فرصة عودة السلطان إلى مصر في شهر يولية من هذه السنة وأغار على الرملة واللد^(٣).

ولم يمض على هذا الحادث وقت طويل حتى قام الصليبيون في عكا بإغارة أخرى على البلاد المجاورة لقاقون^(٤) (Kakun) عند ما كان السلطان منشغلا بصدد غارة التتار في نوفمبر من السنة المذكورة؛ فسير إليهم الأمير أقوش الشمسي فردّهم على أعقابهم وأسر منهم عشرين فارساً^(٥).

وعلى الرغم من أن النصر كان حليف بيبرس في جهات عكا وصور فإنه سارع إلى تلبية طلبات الصلح لعدم انقطاع المدد الحديد من أوروبا ولرغبته في التفرغ لصدد غارات المغول الذين تحركوا هذه السنة وغزوا شمال الشام. فاتفق مع رسل صاحب

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ - ورقة ٩٩

(٢) النويري: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٣٣٢

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 272.

(٤) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 344. — وقاقون حصن بفلسطين

بالقرب من الرملة. ياقوت: معجم البلدان.

(٥) مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٠٤ - ٢٠٥

صور على تقسيم بلادها بينه وبين الفرنجة^(١)، وعقد الصلح مع ملك قبرس وحامل لقب بيت المقدس لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام^(٢).

يتجلى لنا من هذه الحوادث والغارات المتتابعة أن الظاهر كان في كل غزواته للصليبيين ينتصر عليهم ويهزم جيوشهم ويستولى على حصونهم ومدنهم واحدة تلو أخرى. ولم نرهم في أية موقعة نالوا منه شيئا أو كتب لهم النصر عليه. وأسباب ذلك لا تخفى على الباحث إذا ما جال ببصره مدققا في حالة هؤلاء الصليبيين وما كانوا عليه من أخلاق وعادات أثناء إقامتهم بهذه الديار التي حلوا بها وقتلوا عليها مدة قرنين من الزمان أريقت خلالها دماؤهم وضاعت أموالهم وبذلوا في سبيلها كل مرتخص وغال. ومن أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمتهم وسقوط مدنهم وضياع شوكتهم في البلاد الشامية حتى آل أمرهم في نهاية حكم بيبرس إلى الانكماش والانزواء في حصن أو حصنين :

(أولا) كان هؤلاء الصليبيون رغم اتحادهم في الدين متنافسين متحاسدين ، قد استحكمت بينهم أسباب الشقاق والنزاع ، وذلك مما كان يؤدي إلى فشلهم في حروبهم .

(ثانيا) لم يكن لهم حاكم مسيطر على جميع مدنهم يعترف له الجميع ويدينون له بالطاعة ، ولم توجد بينهم سلطة عامة تحفظ النظام وتعمل على توحيد كلمتهم وضم صفوفهم مما دعا إلى تشتت أهوائهم وتنازع رغباتهم وانصرافهم عن السبب الذي من أجله جاءوا إلى هذه الأصقاع النائية عن أوطانهم^(٣).

(١) وضع المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٩٥ هذا الاتفاق فقال إنه تقرّر أن يكون للفرنجة من بلاد صور عشرة بلاد ويكون للسلطان خمسة بلاد يختارها والبقية تكون مناصفة بينهم وبينه .

(٢) Stanley Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages,

p. 269.

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt (٣)

(Introduction) pp. XXX - XXXI.

(ثالثا) كانت مصالحهم متشعبة لاختلاف بلدانهم التي أتوا منها إلى تلك الديار. وقد تجلّى هذا الأمر في الفرسان المختلفين ، وكثيرا ما كان يقاتل بعضهم بعضاً^(١) . وفي هذا من إضعاف شوكتهم ونصرة عدوّهم ما لا يخفى .

(رابعاً) نقض الصليبيين العهد التي كانت بينهم وبين المسلمين وامتناعهم عن تسليم بعض المعاقل .

(خامساً) مخالفة الصليبيين لهولا كوزعيم التتار الذين كانوا يترقبون اعتناقهم للمسيحية فيقوى كلاهما على منازلة المماليك في مصر ومهاجمة بلادهم . وقد كان تحالف الصليبيين مع تتار فارس سبباً في تحالف الظاهر مع بركه خان رئيس القبيلة الذهبية التتارية ، وكلاهما مسلم يناصر أخاه على أعدائه على ما سنوضحه فيما بعد .

هذه هي أهم الأسباب التي أدت إلى فشل الصليبيين في غزواتهم وهزيمتهم في حروبهم . وقد يكون من الميسور نجاحهم لو تولى قيادتهم أمير يعترفون بسلطانه . ولكن الانقسام وتضارب المصالح مزقاً شملهم ، فكان الفشل المحتوم نصيبهم .

(ب) غزو جزيرة قبرس :

كان أهل قبرس كثيراً ما يمدّون الصليبيين ببلاد الشام بالمال والرجال . ولا عجب في ذلك فهم أهل ملة واحدة يجمعهم دين واحد . فليس غريباً إذن أن يقوم القبارصة هؤلاء القبرسيون بمساعدة إخوانهم في الدين ، ولا سيما أنهم كانوا جميعاً من الفرسان المتعصبين لدينهم المتحمسين ضدّ أعدائهم المسلمين . وكانوا لهم رداء كلما داهمهم خطر من الأخطار ، بل كانوا واسطة اتصال بينهم وبين مواطنيهم من أهل أوروبا .

لذلك نرى بيبرس بعد إغاراته على الصليبيين بحصن القرين يرسل أسطولاً لمحاربة قبرس التي ساعدت عكاء مساعدة جدية^(٢) . وكان أهلها لما نزل السلطان على حصن

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (١)

Sir William Muir, Op. Cit. p. 28. (٢)

(Introduction) p. XXIX

الأكراد قد سيروا إلى صاحب قبرس يطلبون منه النجدة، فخرج إليهم في عدّة مراكب، فهاج عليهم البحر وحطم ستين مركبا وتابع ما بقي منها السير إلى عكا^(١)؛ فأراد بيبرس أن يغتنم هذه الفرصة فأصدر أوامره بتجهيز المراكب وتسفيرها إلى قبرس، فغادرت المياه المصرية سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م)؛ غير أن عاصفة شديدة هبت عليها بالقرب من الجزيرة فخطمت منها أحد عشر مركبا عند نغر النمسون (Limassol). ولما علم بذلك أهل قبرس انقضوا عليها وأسروا من كان بها من المسلمين^(٢).

لم يلبث بعد ذلك السلطان أن قدم إليه رسول صاحب قبرس يخبره بما حدث لأسطوله، إذ قال له: "إن صاحبي يسلم عليك ويقول لك قد أخذت مراكبك"، فقال السلطان: "قل له لا تفرح فما أخذها إلا بسيفي، ولو سلموا المراكب لأخذوا جزيرته بحول الله وقوته. وقد أخذت في سفرتي هذه أربعة عشر حصنا. ولا شك أن العين لها حق والحمد لله الذي فدى عسكري بالملاحين والعوام وأرجو من الله تعالى تعويض ذلك^(٣)".

لم يكتف بيبرس بما قاله لهذا الرسول، بل أرسل إلى صاحب قبرس كتابا جاء فيه: "إلى حضرة الملك (أوك) جعله الله ممن يوفى الحق لأهله ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله. نعلمه أن الله إذا أسعد إنسانا دفع عنه الكثير من قضائه باليسير وأحسن له بالتدبير فيما جرت به المقادير. وقد كنت عرفتنا أن (الهواء) كسر عدّة من شوانينا ونحن الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين. وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة

(١) فضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١٩٧

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٩؛ العيني: عقد الجمان المجلد

الثالث ورقة ٥٦٤

(٣) مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٠٠

هو العجب ... وما النصر بالهواء مليح إنما النصر بالسيف هو المليح ...
وإن عدت من بحرية المراكب آحاد فعندنا من بحرية المراكب ألوف ...
وأتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول ... فلئن كنتم أخذتم لنا قرية
مكسورة فكم أخذنا لكم من قرية معمورة، وإن استوليتم على سكان فكم أخلينا
بلادكم من سكان، وكم كسبت وكسبنا فيرى أيننا أغنم . ولو أن في الملك سكوتا كان
الواجب عليه أنه سكت وما تكلم^(١) .

لم تفرهمة الملك الظاهر بعد انهزام أسطوله، بل شرع في إنشاء أسطول آخر^(٢)
غير أنه لم يعاود الكرة في مهاجمة جزيرة قبرس لانشغاله بحاربة الصليبيين والمغول .
وقد تمكن في سنة ٦٧٣ هـ من تخليص الأسرى المسلمين الذين أسروا بقبرس ،
فأرسل الرسل إلى صور لا يتابعهم، فتغالى الفرنجة في بيع الرؤساء وباعوا الثوار والرامة
لطائفة منهم، فلم ير بيبرس بدا من إغراء الموكلين بحراستهم بالمال فأطلقوا سراحهم
وساروا إلى القاهرة . فلما علم بذلك الفرنجة بعكاء قامت الفتنة بينهم^(٣) .

(ج) قضاء بيبرس على نفوذ طائفة الاسماعيلية ببلاد الشام :

كان يقطن ببلاد الشام في الوقت الذي عمل فيه بيبرس على مناوأة الامارات
اللاتينية في الشرق طائفة من الاسماعيلية حاول صلاح الدين عبثا القضاء عليها وظلت^(٤)

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٩ - ١٠١

(٢) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٦١٥ (٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار
البشر، ج ٤ ص ٦ (٤) الاسماعيلية هي فرقة من الشيعة عرفت أيضا بالسبعية لأن أصحابها اعتبروا
الإمامة منتهية عند الإمام السابع وهو إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٣ هـ في حياة
أبيه . وقد أصاب أتباع تلك الفرقة كثير من الضرر والأذى على يد خلفاء الصدر الأول من الدولة العباسية ،
فقلسوا الجهات البعيدة عن مركز الخلافة .

وقد أسس حسن بن الصباح المتوفى سنة ٥١٨ هـ شعبة أخرى من الاسماعيلية عرف أتباعها باسم
الحشاشيين (Assassins) كان موطنها قلعة الموت (Alamut) في الشمال الغربي من بلاد فارس ، ثم تفرع
من هذه الشعبة فرع آخر بالشام مركزه الأول حلب . Ismailiya و Enc. Isl. Arts: Assassins
وهذا الفرع الشامي هو الذي حوّل بيبرس وجهته إليه واستولى على حصونه كما سنرى فيما بعد .

بعد وفاته تتمتع بنفوذ كبير اضطر إزاءه الصليبيون الى مملأة هؤلاء الاسماعيلية^(١) وتعدى الأمر ذلك فأصبح ملوك الفرنجة يخشون بأسهم ويعملون على اتقاء شرهم بالهدايا التي كانوا يرسلونها اليهم والتي رأى بيبرس أن يفرض رسوما عليها ليقبل بذلك من شأنهم عند هؤلاء الملوك^(٢).

على أن هذه الطائفة لم تلبث أن ضعف نفوذها وانحازت الى جانب الصليبيين. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل دخلت تحت حماية الفرسان الهوسبتاليين، وظلت منذ ذلك الحين تدفع لهم جزية سنوية حتى عقد بيبرس هدنة مع صاحب حصن الأكراد والمرقب سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) اشترط عليه فيها أن يتمتع هؤلاء الفرسان عن أخذ الجزية التي كانت تدفعها لهم طائفة الاسماعيلية وأمراء حماه وشيزر وأفامية^(٣). وصارت رسل الاسماعيلية منذ ذلك الوقت تفد على السلطان مزودة بالأموال التي كانوا يحملونها من قبل للفرنجة^(٤).

ولما رأى نجم الدين الشجراني صاحب قلاع الاسماعيلية أن الأموال التي يقدمها لسلطان مصر كثيرة أرسل اليه يستأذنه في إنقاصها. وكان بيبرس في ذلك الوقت مستاء منه لأنه لم يفد اليه عندما نزل بالقرب من بلاد الاسماعيلية، فأمر بعزله هو وولده وقلد صارم الدين مبارك بن الرضى صاحب العليقة بلاد الدعوة^(٥) الاسماعيلية على أن تكون مصياف^(٦) وبلادها خاصة بالسلطان، ثم أرسل جيشا اليها بقيادة الأمير

(١) Stanley Lane-Poole, p. 270.

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩ ؛ المقریزی : السلوك ص ٥٤٣

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 262; Steven-

son : The Crusaders in the East p. 340. (٤) المقریزی : السلوك ص ٥٥٧

(٥) إحدى حصون الاسماعيلية بالشام .

(٦) إحدى حصون الاسماعيلية بالشام وهي واقعة على الساحل قرب طرابلس وعلى مسيرة يوم من

حصن . ياقوت : معجم البلدان p. 507 Le Strange : Palestine under Moslems,

عن الدين العديمي فامتنع أهلها عن تسليمها أول الأمر ، ولم يلبثوا بعد ذلك أن فتحوا له أبوابها عندما علموا أنه نائب السلطان ، وتمكن بذلك من الاستيلاء عليها ، فلم ير نجم الدين وولده بدا من الدخول في طاعة بيبرس ، فطلبوا منه السماح لهما بالحضور بين يديه فأجابهما السلطان الى طلبهما . وعندما قدم اليه نجم الدين وولاه حصون الاسماعيلية بالاشتراك مع صارم الدين وقرر عليه أن يدفع له كل عام مائة وعشرين ألف درهم ، كما قرر على صارم الدين أن يدفع له ألف دينار ^(١) . ثم أخذ السلطان بعد ذلك (١٢٧٠ - ١٢٧٣ م) يستولى على حصون الاسماعيلية الواحد بعد الآخر ^(٢) ، وانتهى الأمر بأن تخلوا عن قلاعهم ، فأقطعهم بيبرس في مقابل ذلك بعض الأراضي المصرية ليستوطنوها . فكان في هذا القضاء على قوتهم التي شغلت الظاهر وجيشه ردحا من الزمن . ومن العجيب في أخلاق بيبرس أنه بعد إجلائهم عن مواطنهم الى الديار المصرية استخدمهم في قضاء أغراضه ^(٣) .

(د) علاقة بيبرس بالمغول :

١ - مغول فارس :

لم ينس المغول ما حل بهم في موقعة عين جالوت ، فظلوا يوالون الزحف والإغارة على البلاد الشامية وغيرها . فرأى بيبرس أن يتحالف مع بركة خان سلطان مغول

(١) البويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ، القسم الأول ورقة ٢٥٤ - ٢٥٥ ؛ المقرئى : السلوك

ص ٥٨٦ - ٥٨٧ .

(٢) Stanley Lane-Poole, p. 270. وقد أورد المقرئى : السلوك ص ٦٠٨ ، عند كلامه على حصون الاسماعيلية ، أن بيبرس على أثر استيلائه عليها أقام بها شعائر الإسلام وشرائعه .

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 27.

(٤) كان بركة خان أول من أسلم من أمراء المغول . ولم يكن على وفاق مع هولاكو . ويرجع ذلك لعدة أسباب منها أن بركة خان لم يرض بما فعله هولاكو ببلاد المسلمين فعنفه لقتله الخليفة المستعصم ، كذلك لم يرق في عينه تأسيس دولة هولاكو بفارس لا سيما بعد إدراج بلاد آران وأذربيجان داخل حدودها مع أنهما كانتا من إرث جوشي أبي بركة حسب وصية جنكركخان (Enc. Isl. Art Berke) . وهناك سببان آخران لهذه العداوة التي كانت بين بركة وهولاكو ؛ أولهما عدم مظاهره بركة للخان الأعظم قوبلاي =

القفجاق ضد اياخانات فارس ؛ غير أنه لم يعتمد كل الاعتماد على هذا التحالف بل ضرب الطرق والوديان المؤدية الى الشام حتى لا يجد المغول اذا تقدموا ما يحتاجون اليه من الميرة^(١)، كما أن هولاء كوثالاف مع المسيحيين في الشرق وبخاصة مع ملك أرمينية والصليبيين لكي يقوى بذلك على صد هجمات بركة خان وسطان الممالك بمصر^(٢).

وقد كان لكل من التتار والصليبيين غاية يرمقونها من وراء هذا التحالف. فالتتار أرادوا تقوية جانبهم بانضمام هؤلاء المسيحيين إليهم في الحروب ضد الدولة التي هزمتهم بالشام - وهي مصر - وردتهم على أعقابهم إلى بلاد فارس ووقفت لهم بالمرصاد أمام فتوحاتهم وسيرهم في غزاهم. والصليبيون لم ينسوا الأمر الذي من أجله احتلوا المدن الشامية، كما لم ينسوا ذلك العداء الديني بينهم وبين المسلمين، فأرادوا هم أيضا أن يستميلوا إليهم التتار الذين كانوا يطمعون كثيرا في اعتناقهم المسيحية ليكونوا جميعا يدا واحدة على أعدائهم المسلمين شاميين ومصريين.

ولم تكن حالة المغول مما تجعل سلطانا كالظاهر يطمئن على بلاده في الوقت الذي كان يرمى فيه إلى تكوين امبراطورية واسعة الأطراف متحدة الأواصر. ولذلك كانت الحروب بينهم وبين بيبرس متواصلة، ولم ينقطع عن مطاردتهم من الولايات التي كانوا يغربون عليها كلما سنحت لهم الفرص بذلك.

ففي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) وصل إلى الظاهر أن التتار أغاروا على البيرة وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق، فجهز جيشا لمحاربتهم بقيادة الأمير عز الدين إيفان

= وانتصاره لأخ صغير له اسمه (Arigha-Buga)؛ فاعترف بركة بهذا الأخ الصغير خانا أعظم على جميع بلاد التتر، وثانيهما أن هولاء كومتد أن صار بركة ملكا على مغول القفجاق (١٢٥٦ - ١٢٦٧ م) منع عن ذلك الفرع المغولي نصيبه المعتاد من مغنم الحرب. (وكان المعتاد أن يجمع التتر ما يحصل من البلاد التي يستولون عليها ويقسموه خمسة أقسام : قسمان للخان الكبير، وقسمان للعسكر، وقسم لبيت باتوخان ببلاد القفجاق) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٠١ - ١٠٣

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, (١)
p. 266.

Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam p. 226. (٢)

الملقب بسم الموت، ثم سار على أثره إلى أن وصل إلى غزة. وهناك علم أن عساكره لما قدمت البيرة وأشرفت عليها إلى التتار هاربين وتركوا وراءهم عددهم وأثقالهم طعمة سائغة لخنده^(١).

لم يلبث السلطان بعد ذلك أن أمر بعجالة ما حرب من البيرة وبجمل آلات القتال إليها من مصر والشام وباعداد كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كلف بعض الأمراء وصاحب حماة بأن يقيموا على البيرة حتى يخلى الخندق من الحجارة التي رماها التتار فيه. وبينما هو منشغل بهدم سور قيسارية ورد إليه كتاب من هؤلاء الأمراء ذكروا فيه ملاقوه من شدة وعناء في إخلاء ذلك الخندق، فكتب إليهم: "إنا بحمد الله ما خصصنا عنكم براحة ولا دعة ولا أتم في ضيق ونحن في سعة، ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار وناقل الأحجار ومرابط الكفار وقد تساوينا في هذه الأمور وما ثم ما تضيق به الصدور^(٢)".

وهذه الكلمات تعطينا صورة واضحة عن اشتغال بيبرس وجيوشه برد الإغارات التي كانت تتوالى على نواحي متعددة من بلاده، كما تبين لنا ملاطفته لأمرائه وتشجيعه لمن تدمر منهم وظنوا أنهم جهدوا وحدهم في غزوهم، وأن غيرهم من بقية الجيش لا ينالهم من العناء مثل ما يلقون، كما يتضح لنا أيضا ما تنطوى عليه نفسية هذا الملك من الجِدِّ في محاربة المغول والصبر على جهادهم حتى تتم أمانيه ويريح بلاده من غاراتهم وإفسادهم في الأرض.

وهكذا ظل المغول في فارس يناضلون المماليك حتى مات هولاكو سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) وخلفه ابنه أباقا^(٤) الذي سار على سياسة أبيه في مناوأة المماليك ومصادقة

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٠.

(٢) المقرئ: السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٢٥.

(٣) اختلف المؤرخون في اليوم الذي توفي فيه هولاكو، ففي أنى الفدا: المختصر في أخبار البشر

ج ٤ ص ٢ أنه مات في تاسع عشر ربيع الآخر، وفي مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١٤٥

سابع ربيع الآخر؛ وفي المقرئ: السلوك ص ٥٤١، Enc. Isl. Art Hulagu أنه توفي في يوم

الأحد التاسع عشر من شهر ربيع الآخر. (٤) ورد هذا الاسم في المصادر العربية أباغا، أبغا.

الصلبيين ؛ فقد تزوج من ابنة امبراطور القسطنطينية (Michael Palaeologus) ؛ ومن ثم كان يعطف على المسيحيين . غير أن علاقته بالبابوات والملوك المسيحيين في أوربا كانت سياسية أكثر منها دينية ، فكان يرسل كلمنت الرابع (Clement IV) الذي كتب إليه كتابا سنة ١٢٦٧ م ، كما راسله جريجورى العاشر (Gregory X) عام ١٢٧٤ م ونيقولا الثالث الذى أرسل إلى أباقا سفارة مؤلفة من خمسة من الرهبان الفرنسيسكان عام ١٢٧٨ م . وكان الغرض الأساسى من تلك المفاوضات هو تنظيم حملة مشتركة ضد المماليك فى مصر وسورية الذين لم تلن قناتهم بعد ، وكانوا أعداء ألداء للغول . أما الغرض الذى كان يسعى إليه المسيحيون من هذا الحلف فهو الاستيلاء على الأراضى المقدسة التى جاهدوا من أجلها سنين عدة ^(١) .

على أن بيبرس قد تمكن من دفع ذلك الخطر المشترك الذى كان يهدد الدين والبلاد فهزمت جيوشه جند هولاء المغولية ، وسنرى أنها واصلت انتصارها على جند ابنه أباقا الذين كانوا يتهززون فرصة اشتغال الظاهر بحاربة الصليبيين ويغيرون على بلاده وقد حدث ذلك سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) أثناء قدومه من مصر إلى غزة ورحيله منها إلى صفد إذ أغاروا على الرحبة ^(٢) ، غير أنهم مالبثوا أن ارتدوا عنها كما أسلفنا .

وعلى الرغم من أن العداء كان مستحكما بين المغول والمماليك فى ذلك الوقت ، فقد فكر أبغا فى سنة ٦٦٧ هـ فى عقد صلح مع الملك الظاهر وتوسط له فى ذلك صاحب سيس ، إذ أرسل لبيبرس عندما قدم إلى أرسوف فى هذه السنة كتابا ينهاه فيه بأن رسول أبغا يود مقابله ، فبعث السلطان أميرا من حلب ليحضره إليه ورحل من أرسوف إلى دمشق ؛ وهناك وفد عليه الرسول وأعطاه تاب أبغا وقد جاء فيه : "إن الملك أبغا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ومن خالفه

(١) Browue, A Literary History of Persia Vol. III pp. 18-19

(٢) بلدة واقعة على نهر الفرات .

هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا ،
فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا^(١) .

غير أن هذه الرغبة في عقد الصلح لم تلق قبولا لدى بيبرس إذ قال لرسول أبغا :
” أعلم أنى وراءه بالمطالبة ، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من
بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض^(٢) “ . ولم يلبث التتار بعد ذلك أن اتفقوا مع
الصلبيين في السنة التالية على الاغارة على بلاد الشام — وكان السلطان إذ ذاك مقيما
بالأسكندرية — فلما علم بذلك قدم إلى قلعة الجبل ، فوردت عليه الأخبار بأن التتار
أغاروا على الساجور^(٣) ، فسير الأمير علاء الدين البندقدار إلى بلاد الشام على رأس جيش
كبير لمحاربتهم . وسار السلطان ومعه فريق من جنوده . ولما وصل إلى دمشق
بلغه أن التتار ارتدوا وولوا منهزمين^(٤) .

غير أنهم عاودوا الكرة في سنة ٦٧٠ هـ فأغاروا على عين تاب وعمق الحارم —
وكان الظاهر إذ ذاك مقيما بدمشق — فلما رأى جدّهم في إغارتهم ، أرسل إلى مصر
ليستدعى الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى وثلاثة آلاف فارس لطرد التتار وردّهم إلى
بلادهم . وعند ما وصل البيسرى إلى دمشق سار السلطان بالعساكر إلى حلب ،
وأرسل إلى كل من مرعش وحران والرهااء فريقا من جيشه على رأسه أحد الأمراء^(٥) .
وسار السلطان إلى مصر لما علم بإغارة الصليبيين على قاقون ، وظل أمراؤه يحاربون
التتار حتى استولى الأمير علاء الدين طيبرس الوزير على حران ، ثم عبر الفرات وعاد
إلى مصر ، فانتهاز التتار فرصة غيابه وقدموا إليها وهدموا أسوارها^(٦) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٧٤

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩

(٣) نهر بجهات منبج بالقرب من حلب وتقع عليه عين تاب وتل باشر . ياقوت : معجم البلدان

و Le Strange : Palestine Under Moslems. pp. 42, 406, 415, 527

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٨٤

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٠٤ — ١٠٥

(٦) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٤ — ٢٠٦

لم يلبث الظاهر بعد ذلك أن عاد إلى بلاد الشام ونزل بمروج قيسارية حيث تهادن مع الصليبيين بعكاء، ثم رحل إلى دمشق فحضرت إليه رسل التتار تطلب الصلح فأكرم وفادتهم وأرسل معهم هدية لأبغا^(١).

وعلى الرغم من هذه السياسة الودية التي اتبعها بيبرس إزاء سلطان المغول في فارس، فإنه بلغه في العام التالي (٦٧١هـ) — وهو ببلاد الشام — أن التتار قصدوا الرحبة وتقدموا منها إلى البيرة، فتوجه إليهم على رأس جيش كبير وأخذ معه عشرة مراكب من بحيرة بالقرب من حمص وحملها على الجمال. ولما وصل إلى الفرات وجد التتار على شط النهر فأمر بإقامة جسر، ثم شرع هو وعساكره في عبور الفرات وألقى المراكب في النهر، فأبحر عليها بعض جنوده وتراموا مع العدو بالنشاب وتقاتل الفريقان في النهر، وظل الحال على ذلك حتى وصل السلطان إلى معسكر التتار، وهناك أخذت جنوده في مناوشتهم وقتلوا منهم عددا كبيرا^(٢)، ثم عاد السلطان وعساكره في النهر. ولما وصل إلى الشاطئ الشرقي من ناحية الشام بلغه أن التتار الذين كانوا بالبيرة هربوا وتركوا جميع ما كان معهم من العدد والمجانيق، فسار إليها ومنح واليها ألف دينار ثم رحل منها إلى دمشق^(٣).

لم يرفع التتار بهذه الهزائم التي كانت تنزل بهم، إذ نراهم في سنة ٦٧٢هـ يشرعون في الإغارة على بعض البلاد في الوقت الذي قدم فيه السلطان إلى بلاد الشام. ولما علم بيبرس عند وصوله إلى عسقلان أن أبغا قصد بغداد أرسل إلى القاهرة يستدعي جيوشه فلحققت به عند يافا، ثم سار بعد ذلك إلى دمشق، غير أنه لما تقدم إليها بلغه أن التتار عادوا إلى بلادهم فأمر بإعادة عساكره إلى مصر^(٤).

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٠٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢١٢ — ٢١٥

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٣٤

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢١٧ — ٢١٨

لم يلبث المغول بعد ذلك أن اتجهوا اتجاها آخر في مناوأة بيبرس، فقصدوا البيرة سنة ٦٧٤ هـ ومعهم خمسة عشر ألفا من السلاجقة الروم بقيادة معين الدين سليمان البرواناه^(١). غير أنهم ارتدوا عنها عند ما بلغهم تقدم السلطان إليهم. ويرجع السبب في ذلك إلى خروج البرواناة عليهم وانحيازه للملك الظاهر واتفاقه معه على القدوم إلى بلاده. وكان من أثر ذلك أن تغير أبغا ملك التتار على البرواناه وأرسل يستدعيه، فاعتذر بانشغاله بإعداد جهاز ابنة السلطان ركن الدين قلج أرسلان^(٢). غير أنه لم يلبث بعد ذلك أن سار إليه وأرسل جيش الروم إلى أبلستين. ولما علم بتقدم الملك الظاهر إلى بلاده أرسل إلى أبغا يخبره بذلك فأمدّه بجيش من المغول، ثم حدث أن اختلف أمراء الروم على البرواناه واتفق بعضهم على الانحياز للملك الظاهر، فسيرهم السلطان غياث الدين كيخسرو إليه فتقابلوا معه بعين تاب وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكريا ليحضروا إليه بقية الأمراء فلبى السلطان بيبرس طلبهم. وفي هذه الأثناء كان البرواناه قد عاد إلى قيسارية^(٣) فحال بينهم وبين السلطان غياث الدين وغيره من الأمراء فرجعوا إلى الملك الظاهر. وعند ما وصلوا إليه أكرمهم وأرسلهم إلى القاهرة. وظل البرواناه مقيا بقيسارية، أما السلطان فلم يلبث بعد ذلك أن عاد إلى مصر^(٤).

(١) البرواناه لفظ فارسي معناه الحاجب. أبو الفدا: ج ٤ ص ١٠؛ وكان في يد معين الدين هذا مقاليد الحكم في الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى منذ سنة ٦٤٢ هـ، وعلى يده كان مقتل السلطان ركن الدين قلج أرسلان سنة ٦٦٤ هـ. Enc. Isl. Arts : Kilidj Arslān IV, Mu'in al-din Sulaiman Parwāna.

(٢) مدينة ببلاد الروم اسمها الحالى البستان وهي قريبة من افسوس (Ephesus) مدينة أهل الكهف. ياقوت: معجم البلدان؛ Le Strange: Palestine Under Moslems p. 277.

(٣) قيسارية أو قيصرية: اسم أطلقه الرومان على كثير من بلاد امبراطوريتهم بالشرق وبشمال أفريقيا وأسبانيا أيضا. ومن هذه قيصرية فلسطين الواقعة على الشاطئ على مسافة أربعة وعشرين ميلا جنوبي حيفا، ومنها قيصرية الروم وهي المقصودة هنا وتقع على نهر قاراصو إحدى فروع نهر قزل إرمك. ياقوت: معجم البلدان؛ (Enc. Isl. Art. Kaisariya)

(٤) العيني: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ورقة ٥٩٨ — ٦٠١

على أن أهم الوقائع التي دارت بينه وبين المغول كانت عند الأبلستين ذلك أنه قد شرع في السفر في رمضان سنة ٦٧٥ هـ للاستيلاء على بلاد الروم . وتنفيذا لهذه الرغبة سار إلى بلاد الشام ومعه الأمراء والعساكر، فوصل إلى دمشق ورحل منها إلى حلب ، ثم وردت إليه الأخبار باتفاق التتار والروم على لقائه ومحاربتة^(١) ، فارتب بيبرس جيشه وطلع بعساكره على جبال تشرف على صحراء الأبلستين ، فانصببت عليهم الخيول الإسلامية من الجبل انصباب السيول وحملوا عليهم حملة رجل واحد وقتلوا منهم عددا كبيرا، وانجحت المعركة عن هزيمة التتار والروم هزيمة منكرة، فولى البرواناه هو وأصحابه الأدبار^(٢) .

ولما انتهت الموقعة أرسل الملك الظاهر إلى قيسارية الأمير سنقر الأشقر ومعه كتاب بتأمين أهلها^(٣)، ثم لم يلبث بعد ذلك أن توجه بيبرس إليها بنفسه على رأس جيش كبير فخرج الأهالي يتقدمهم القضاة والأشراف، وقابلوه في موكب حافل تصدح فيه الموسيقى ودخلوا به مدينتهم فترل بدار السلطان^(٤)، ثم جلس على عرش قيسارية حيث تولى السلاجقة الروم الحكم عامين من الزمان . وهناك أقبل عليه الأهالي فقدموا له فروض الطاعة، ثم أمر بأن يتعاملوا بالعملة الظاهرية وقسم ثروة البرواناه على جيوشه^(٥) .

ولما فرغ بيبرس من ذلك تهيأ لصلاة الجمعة، وخطب له الخطباء بجوامع قيسارية السبعة ، ثم رأى أن بقاءه بها ربما كان خطرا عليه وعلى البلاد الشامية لتوقع معاودة التتار بجمعهم انتقاما لمن قتل من جيوشهم وتخليصا لمن أسر من

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٢٧ — ٦٢٨

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١١٨

(٣) ابن شاكركاكتى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٧٧

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 28.

(٥) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages

p. 271

رجالهم ، فرحل إلى الأبلستين و مر على مكان المعركة ليرى جثث القتلى من التتار ؛
وهناك أمر بجمع من قتل من عساكره ودفنهم . وكان يرمى من وراء ذلك إلى اظهار
كثرة من قتل من التتار ^(١) .

وقد كان ما توقعه بيبرس . فإنه بعد أن غادر قيسارية سار أبغا إلى الأبلستين .
ولما زار ساحة القتال ووجد أن أغلب القتلى من التتار تأثر تأثراً عميقاً أسال دموعه ،
وتغير على البرواناه عند ما علم أنه كان السبب في حمل الملك الظاهر على القدوم إلى
بلاد الروم ، ثم رحل إلى قيسارية ليثأر لجيشه المهزوم وليعيد نفوذ المغول وحكمهم
فيها . وعند ما دخلها صب على أهلها وابلا من العذاب وانتقم من مسلميها شر انتقام
لمقابلتهم سلطان مصر بالتجلة والترحاب وقتل منهم خلقاً كثيراً ^(٢) .

أما عن موقف البرواناه في ذلك الوقت فإن أبغا استصحبه معه إلى معسكره
على أثر انتهائه من قيسارية ؛ وهناك استشار أمراءه في أمره فأشار عليه فريق منهم
بقتله ، ورأى الفريق الآخر أن يعمل أبغا على إعادته إلى بلاده لينظمها وليحمل إليه
نراجها . وقد لقيت هذه الفكرة قبولا لدى أبغا فأطلق سراحه ؛ غير أن نساء أمراء
المغول الذين قتلوا في المعركة عند ما علمن بذلك اجتمعن وأقمن ثورة في وجه أبغا ،
فكلف أميراً من بلاد سييس بأن يأخذ معه مائتي فارس ويسير بالبرواناه إلى مكان
معين ثم يقتله ، فاستدعى هذا الأمير البرواناه وقال له إن أبغا يود أن تركب أنت
وأصحابك معه ، فركب هو وأصحابه ثم أحاط به الفرسان ، فسألهم أن يمهلوه ريثما يتوضأ
ويصلي ، فأمهلوه حتى فرغ من صلاته ثم انقضوا عليه وقتلوه ^(٣) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٣١ — ٦٣٢

(٢) Browne, A Literary History of Persia, Vol. III, p. 19 ، مفضل بن

أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٧٠ (٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ

الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٢ . (٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ Dynasty of Egypt, pp. 28-29

الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٤ ؛ مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٧٤ — ٢٧٥

وهنا نتساءل عن تقاعد الظاهر وعدم عودته الى مقاتلة التتار وقد تحمل هو وجيشه من المتاعب ولاقوا من الصعوبات ما يجعله حقيقا بالاستماتة في الدفاع عن هذا البلد وتخليصه نهائيا من يد التتار ، وعلم ما حاق بهم من جيوشه والسبب الذي من أجله هاجموا المدينة بعد أن هزموا عندها . لعل الجواب هو أن الظاهر بعد انفضاض الموقعة ومسيره الى حارم أمر بتسيير جيشه الى مصر ، وانتقل هو أيضا من حارم ذاهبا الى دمشق . وفي هذه الآونة انقض أيغا على المدينة ، ولم تثن الفرصة للظاهر أن يتراجع اليها ليقيا شر هذا العدو حتى داهمها وقتل أهلها ، وعدا ذلك فإن الجيش المصرى قد بلغ به الضعف غاية أقعدته عن الرجوع دفاعا عن قيسارية ، إذ قل العدد وهلكت المواشى ونفقت الأقوات وعدم العلف لكثرة مالاتى الجيش في هذه المعركة من وعورة الطريق وصعوبة المسالك وزمهرير البرد . وهناك أمر آخر حال دون رجوع بيبرس الى قيسارية بعد مغادرتها ، ذلك أنه بعد أن فارقتها الى دمشق لم يلبث أن عاجلته منيته فتوفى قبل أن يتمكن من إعادة الكرة على الأعداء ويردّهم على أعقابهم .

٢ - مغول القفجاق :

لم تكن العلاقة بين بركة خان والظاهر كما كانت بينه وبين هولاكو وخلفه . ولا عجب إذا رأينا القبيلة الذهبية^(١) تخالف أبناء جلدتها من التتار وتدخل في حلف

(١) لما قسم جنكز خان إمبراطوريته وأملاكه بين أولاده الأربعة ، كان نصيب جوجى وهو أكبر أبنائه البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين . وكان اسم تلك البلاد عامة القفجاق ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية (Golden Horde) نسبة الى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبى . وكان غالب أهلها تركا وتركان . ولما مات جوجى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) انقسمت بلاده أنصبة بين أولاده الأربعة عشر . وكان أكبر أولئك الأبناء أوردا (Orda) وهو الذى خلف أباه على سائر المملكة أول الأمر وثانهم باطو (Bātū) الذى آثرته قبائل القسم الغربى من المملكة على أخوته وأعلنه ملكا عليها واعترف بذلك جنكز خان نفسه قبل مماته . لهذا انكش سلطان أوردا إلى القسم الشرقى فقط وعرف باسم القفجاق الشرقى أو القبيلة البيضاء (White Horde) . وكان مركز مملكة باطو الجهات الواقعة على الشاطئ الأيسر لنهر الفولجا . وقد اتخذها عاصمة سماها (Sarāi) وهو الذى غزا أوربا فتوغل =

مع المماليك بمصر مع ما هم عليه من العداء لآخوانهم نثار فارس . فقد اعتنق رئيسها بركة الإسلام^(١) . وكان لإسلامه وما كان بينه وبين المماليك بمصر من الصلات الوثيقة أثر كبير في انتشار الإسلام بين أهالي تلك القبيلة . فقد حذا حذوه الكثير من زعماء المغول في هذه البلاد رغم مقاومة الكثيرين لذلك الدين وحيلولتهم دون انتشاره بينهم ، حتى إنهم فكروا في خلع بركة خان حين أعلن إسلامه وعرضوا تاج المغول على هولاء كو ألد أعدائه^(٢) .

ولما علم بيبرس بإسلام بركة كتب إليه يغريه بقتال هولاء كو^(٣) . وقد أفضنا القول فيما كان بين بركة وبينه من العداء ، كما ذكرنا كيف تحالف هولاء كو مع

= في روسيا وبولندا والمجر ودلماشيا (٦٣٥ — ٦٤٠ هـ) [١٢٣٧ — ١٢٤٠ م] ، وطارت شهرته حتى اعتبره سائر قبائل التتر بجميع بلاد القفجاق أحق أبناء جوجي خان رغم وجود أوردا على قيد الحياة . وصار باطو بعد ذلك يلقب بخان القبيلة الذهبية وهو لقب شامل لجميع بلاد القفجاق شرقيا وغربيا ، فأصبح يعدل في السلطان والعظمة الخان الأعظم ما نجو خان الذي خلف كيوك سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ م) . ولقد مات باطو خان سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) وتولى بعده مباشرة ولده طرطق ، لكنه توفي في نفس تلك السنة ، فتولى بعده بركة خان ثالث أبناء جوجي خان . Enc. Isl. Arts : Cingis Khan, Bātū Khan, Bereke.

(١) يقال في سبب إسلامه إنه تلاقى يوما مع عير للتجارة آتية من بخارى فاختلف بتاجر من منهم وسألها عن الإسلام فشرحاه شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والاخلاص له . وقد كاشف أوّل الأمر أصغر إخوته عن تغييره لدينه واعتناقه الإسلام وحجب إليه اعتناقه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين الجديد . ويذكر الجوزجاني الذي جمع تاريخه في حياة بركة خان ، أن بركة خان قد اعتنق الإسلام منذ طفولته . ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند (Khodjand) . ويذكر لنا نفس المؤلف أن جميع جيشه كان مسلما ، كما يذكر بعض الثقات أنه قد جرت العادة أن يحمل كل فارس في جيشه سجادة للصلاة حتى إذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم ، كما لم يكن في جيشه من يتعاطى أي مسكر . وكانت جماعته تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقهاء وعلماء الكلام . وكان في حوزته عدد كبير من كتب الدين ، كما كانت معظم مجالسه ومحاوراته مع العلماء . وكانت المحاورات الدينية تشغل أكثر مجالسه ، كما كان سنيا مغاليا شديدا التمسك بدينه . Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, pp. 228-229.

على أن بركة خان لم يكن متعصبا تعصبا أعمى يشهد بذلك أن عاصمته صراى كانت منذ سنة ٦٦٠ هـ

(١٢٦١ م) كرسيًا لأسقفية مسيحية . Enc. Isl. Art : Bereke .

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, pp. 239-240 .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٥

الصليبيين ضد سلطان مصر؛ فلم يكن بد إذن من أن يكون بركة والظاهر — ودينهما الاسلام — في كفة واحدة ضد عدوهما المشترك الذي يريد الإغارة على بلادهما والقضاء على دينهما .

وقد دخل بركة خان في حلف مع الظاهر بيبرس الذي ابتدأ تلك العلاقات الودية من جانبه بأن احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية، يبلغ عددها المائتين، وكانوا قد فزوا إلى سورية لما ظهر لهم من العداء المستحكم بين ملكهم وبين هولاءكو، ثم توجهوا من سورية إلى مصر حيث استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط بيبرس الذي أقنعهم بصحة الدين الإسلامي واعتناقه^(١) وأنزلهم في دور بنيت لهم في اللوق وهي المعروفة الآن بباب اللوق — كما سيأتي — وبعث إليهم الخلع والأموال، وأمر كبارهم وأدج بعضهم في سلك الممالك ومنحهم بعض الإقطاعات . وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التي عامل بها بيبرس هؤلاء المغول أن تكاثروا وافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام ديناً لهم^(٢) .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل قدم إلى مصر سنة ٦٦١ هـ رسل الملك بركة ومعهم كتاب منه جاء فيه ” ... فليعلم السلطان أنني حاربت (هولاءكو) الذي من لحي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين الإسلام لأنه باغى (كذا في الأصل) والباغى كافر بالله ورسوله . وقد سيرت قصادي ورسلى صحيفة رسل السلطان ... ووجهت ابن شهاب الدين غازى معهم لأنه كان حاضرا في الوقعة ليحكى للسلطان ما رآه بعينه من عجاب القتال ، ثم ليوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات والسعادات ، لأنه أقام إماما من آل عباس في خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله ، فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لاسيما لما بلغنى توجهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار^(٣) ... “ .

(١) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 228.

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ — ٤٩٥

أرسل إليه السلطان الرد^(١) في سبعين ورقة بغدادية^(٢)، وأنفذ إليه هدية مع الأمير فارس الدين أقوش المسعودي والشريف عماد الدين الهاشمي ، وأمر الخطباء بأن يدعوا للملك بركة بعد الدعاء له على المنابر بمكة والمدينة والقدس والقاهرة .

ولما رأى بيبرس أن امبراطور القسطنطينية عطل رسله عن الذهاب إلى بركة خان^(٤)، أحضر البطارقة والأساقفة الذين كانوا عنده وسألهم عن مصير من ينقض العهد فأجابوا بأنه يحرم من دينه؛ فأخذ السلطان إقرارا منهم بذلك وأرسل إلى الامبراطور راهبا يونانيا ومعه قسيس وأسقف ليعلنوه بقرار الحرمان . ولم يكتف بذلك بل كتب إليه كتابا أغلظ له فيه القول .

وعندما وصل هؤلاء القسيس إلى الامبراطور أطلق رسل الملك الظاهر^(٥)، فساروا إلى بركة خان . ولما قاربوا معسكره قابلهم الوزير شرف الدين القزويني فأزله في منزلة

(١) ذكر ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ٢ ص ٤٢٢ ب " أن بيبرس جمع في هذا الكتاب من الترغيب والاستمالة والاغراء على (هولاكو) وإظهار الميل إليه وأنه وصف فيه جنود الديار المصرية وما هي عليه وأهلها من حب الجهاد في سبيل الله تعالى ... " .

(٢) كان الورق البغدادى أجود أنواع الورق وأكبره سعة . ويستعمل في كتابة المصاحف ومكاتبة كبار الملوك . وفي ذلك يقول القلقشندي (صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧٦) " ... وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادى ؛ وهو ورق تخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزائه ، وقطعه وافر جدا ، ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة ، وربما استعمله كتاب الإنشاء في مكاتبات القانات ونحوها " .

(٣) ذكر بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٧٣ ؛ أن هذه الهدية كانت تحتوى على ختمة شريفة مكتوبة بخط عثمان بن عفان وسجادات للصلاة متنوعة الألوان وسيوف وخوذ مذهبة ومنجنيقات ومشاعل وسروج خوارزمية وقناديل مذهبة وخيول عربية . وهناك أصناف أخرى أوردتها مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٢ — ١١٣ ، ولم يشر إليها بيبرس الدوادار وهي الفيل والزرافة اللذان أرسلهما بيبرس لبركة ، وكذلك بعض الملابس والأواني الصينية .

(٤) كانت رسل الملك الظاهر قد سارت إلى القسطنطينية في طريقها إلى بركة . ولما أقبل عليهم الامبراطور ميخائيل باليوولوجس أكرمهم ووعدهم بالمساعدة على التوجه إلى البلاد الشمالية ، غير أنه لم يف بوعده ، وظل يماطلهم بحجة أن أحد رسل هولاكو قد وصل إليه في ذلك الوقت وأنه يخشى أن يعلم بأمرهم ؛ فطلبوا منه أن يعيدهم إلى مصر إذا لم يتمكن من مساعدتهم في التوجه إلى بركة ، وذلك بعد أن قضوا عنده ستة وثلاثة أشهر ماتت في أثنائها الحيوانات التي أرسلها بيبرس مع رسله ليسلموها للملك بركة .

(٥) المقرئ : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٩٨ و ٥١٤

حسنة، ثم استدعاهم الملك بركة لمقابلته . وعندما مثلوا بين يديه أخذ منهم الكتاب الذي أرسله إليه بيبرس وأمر وزيره بقراءته . ولما فرغ من ذلك احتفل بقدمهم وأضافهم عند زوجته (حجب خاتون) وظل يستدعيهم من وقت لآخر ويتحدث إليهم في بعض الشئون ، وطلب منهم أن يذكروا له شيئاً عن النيل وعن الأمطار في مصر ، كما سألهم عن الفيل والزرافة اللذين كانا ضمن الهدية التي أرسلها بيبرس إليه ، ثم عادوا إلى مصر بعد ما أقاموا عنده ستة وعشرين يوماً ، وذكروا عند عودتهم أن كل أمير وأميرة في بلاط بركة خان له إمامه ومؤذنه الخاص وأن الأطفال يحفظون القرآن في المدارس ^(٢) .

لم تقتصر العلاقة بين الملك الظاهر وبركة على هذه المراسلات التي تبودلت بينهما . والتي كان من أثرها قدوم كثير من مغول القبيلة الذهبية إلى مصر واعتناقهم الإسلام وإقامتهم بها ، بل اقترنت بزواج الملك الظاهر بابنة بركة خان ^(٣) . وبذلك ارتبطت دولة مغول القفجاق بدولة المماليك بمصر برباط المصاهرة وتوثقت العلاقة بينهما وظلت الحال على ذلك بعد وفاة بركة سنة ٦٦٥ هـ .

وفي عهد خلفه منكوتمر استمرت العلاقات الودية قائمة بين الدولتين وتبودلت الرسائل بينهما للاتفاق على مناوأة بيت هولاكو والقضاء عليه ؛ فأرسل بيبرس في سنة ٦٦٦ هـ إلى منكوتمر كتاباً يغريه فيه بقتال أبغاء ^(٤) وأجابه على ذلك منكوتمر بأن أرسل إليه رسالة فوّض له فيها الاستيلاء على جميع ما أخذه هولاكو من أراضي المسلمين ، كما طلب منه أن يساعده على استئصال شأفة مغول فارس . وقد حمل هذه

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٩ — ١٢٠

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 229.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 266.

(٤) لم يترك بركة خان بعد وفاته ولداً فال ملكه إلى منكوتمر (Mongke-Timur) وهو ابن أخيه

باطو خان (Enc. Isl. Art. Berke)

(٥) العيني : عقد الجان ج ٢٠ المجلد الثالث ص ٥٣٧

الرسالة إلى بيبرس عدة رسل من بيت بركة - وكان الفرنجة قد أسروهم وأخذوا ما معهم، ثم أطلق سراحهم القائمون بإدارة عكاء . ولما علم بذلك الملك الظاهر أصدر أوامره بمنع التجار الأجانب بالأسكندرية من السفر حتى يعوضوا ما أخذه أصحابهم من هؤلاء الرسل^(١) .

وهكذا ظلت العلاقة ودية بين بيبرس ومغول القبيلة الذهبية في الوقت الذي كان فيه العداء قائماً بينه وبين مغول فارس، حتى أوقع بهم - كما رأينا - وهزمهم هزيمة منكرة سنة ١٢٧٧ م، واستحكم العداء بينهم منذ ذلك الوقت . ولم تكن هناك جريمة أشد في نظر مغول فارس من أن يروا رجلاً منهم في علاقة حسنة مع المماليك، حتى كانت الوسيلة الفذة للايقاع بأى مسلم من رعايا المغول هي اتهامه بالاتصال بالمماليك في مصر^(٢) .

(هـ) علاقة بيبرس بأرمينية :

ابتدأت العلاقات تظهر لأول مرة بين بيبرس وأرمينية في الوقت الذي تقدم فيه هيثوم^(٣) (Hethum) على رأس جيش كبير إلى عين تاب سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م)؛ فسير بيبرس إلى حلب جيشاً مكوناً من عسكر حماه وحمص^(٤) . ولما تقابل الجيشان

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٧ - ٢٠٨

(٢) Browne, A Literary History of Persia, Vol. III. p. 20.

(٣) كان هيثوم ملك أرمينية المسيحي الأثر الأول في العمل على إقناع أمبراطور المغول مانجو خان (٦٤٦ - ٦٥٥ هـ = ١٢٤٨ - ١٢٥٧ م) ، وحمله على إرسال تلك الحملة التي فتحت بغداد تحت قيادة هولاكو (٦٥٤ - ٦٦٣ هـ = ١٢٥٦ - ١٢٦٥ م) الذي أظهر العطف الشديد للمسيحيين وبخاصة النسطوريين منهم بتأثير زوجته المسيحية ؛ ومن ثم اعتنق الكثيرون من المغول الذين فتحوا بلاد أرمينية وجورجيا الدين المسيحي وتعبدوا على يد المسيحيين من سكان تلك الجهات . : Sir Thomas Arnold The Preaching of Islam, p. 221

وقد انضم هيثوم هذا إلى هولاكو رغبة منه في حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك بالجنوب، وصارت تلك المملكة ولاية تابعة لدولة المغول في فارس (Enc. Isl. Art. Armenia)

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٧٩ ؛ المقرئ : السلوك ج ١

وهزم الأرمن استنجد هيثوم بالتتار، فقدم إليه سبعمائة فارس كانوا ببلاد سلاجقة آسيا الصغرى . وقد تمكن بمساعدتهم من متابعة السير ومحاصرة بلدة حارم . غير أن لساقط الثلج وزمهير الشتاء اضطهرهم إلى التراجع ثانية^(١) .

ولما تم للملك الظاهر الاستيلاء على قلعة صفد من الصليبيين رحل إلى دمشق سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) وأمر عساكره بالسير إلى سيس والإغارة عليها^(٢)، فخرجوا من دمشق بقيادة الملك المنصور صاحب حماء واخترقوا مضائق قيليقيا . وبذلك تمكنوا من الدخول إلى بلاد سيس حيث التقوا مع الملك هيثوم ، فاقتتل الجيشان ودارت الدائرة على الأرمن، فهزم ملكهم وأسر أحد أولاده « ليفون » ، ثم دخل المسلمون سيس وغنموا كل ما فيها^(٣) .

لم يلبث بعد ذلك هيثوم أن أرسل إلى بيبرس أخاه فاساك (Vassak) شافعا في ولده، فوعده السلطان بتلبية طلبه، على أن يعمل هيثوم على إطلاق سراح سنقر الأشقر وأن يرد القلاع التي أخذها من مملكة حلب، وهي بهسنا ودر بساك ومرزبان وشبح الحديد^(٤) . أظهر هيثوم استعداداه لتلبية الطلب الأول بعد أن طلب من السلطان أن يمهله بعض الوقت ، وتردد في تسليم القلاع، فكتب إليه السلطان يقول : ” إذا كنت تقسو على ولدك وولى عهدك فأنا أقسو على صديق ما بيني وبينه نسب ويكون الرجوع منك لا منى “ . فلما ورد هذا الكتاب إلى هيثوم سارع في طلب الصالح على شروط منها : أن يعمل على إطلاق سراح سنقر

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt (١)
p. 23.

(٢) وهي عاصمة أرمينية الصغرى (قيليقية) وموقعها بين أنطاكية وطرسوس . ياقوت : معجم البلدان

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٢

(٤) كان هولاكو قد أسر سنقر هذا أثناء إغارته على حلب واستيلائه عليها من الملك المنصور؛

المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٨ (٥) العيني : عقد الجمان . المجلد الثالث ورقة ٥٤٤ ؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ص ٥

الآشقر وأن يسلم لبيبرس قلعة بهسنا ودر بساك وكل ما أخذه من البلاد الإسلامية ،
وفي مقابل ذلك يطلق السلطان سراح ليفون . ثم كتبت الهدنة بأنطاكية وأرسل
بيبرس أحد أمرائه إلى مصر ليحضر ليفون ، فقدم إليه بدمشق وحلفه على نسخة
الصالح التي حلف عليها والده ^(١) .

على أن أمد هذه الهدنة لم يطل ، فان بيبرس على أثر انتصاره على المغول عند نهر
الفرات سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) وتشتيته شملهم قام بعدة حملات سنة ٦٧٣ هـ على
حدود آسيا الصغرى كللت كلها بالنجاح . وفي إحدى غزواته المروعة التي قام بها على
الأرمن لنقضهم العهد كانت مدينتا ^(٢) سيس ^(٣) والمصيصة مسرحا للسلب والنيران
وعاثت جنود الظاهر فسادا في كل البلاد من طرسوس إلى أطنة ؛ وكانت غنائمهم
عظيمة حتى لقد ملأت فضاء أنطاكية ^(٤) .

فما تقدم نرى أن الأرمن لو ظلوا بعيدين عن نفوذ التتار ولم يخضعوا لرغباتهم
لكان خيرا لهم وأدعى إلى بقائهم آمنين في ديارهم بعيدين عن إثارة غضب المصريين
عليهم وتنكيلهم بهم هذا التنكيل الذي انتهى بسقوطهم وإضعاف شوكتهم
وتشتيت شملهم ^(٥) .

(١) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٦٩

(٢) ذكر مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٢٦ ، أن سبب خروج السلطان هذه
المرة إلى سيس هو أن معين الدين البرواناه كان قد كتب إلى بيبرس يحرضه على الدخول إلى بلاد الروم لما
ضاق ذرعا بأجاي (Atchai) بن هولاءكو الذي فكر في قتله ؛ غير أن البرواناه لم يلبث أن غير رأيه
وكتب إلى السلطان يقول له " أقصد هذه السنة (٦٧٣ هـ) سيس ، وفي السنة القادمة أملكك البلاد " .
فلقى هذا القول قبولا لدى الظاهر وذهب إلى سيس سنة ٦٧٣ هـ .

(٣) مدينة على شاطئ نهر جيحان وهي تقارب طرسوس وبينها وبين أطنة تسعة أميال . ياقوت :

معجم البلدان ؛ Le Strange : Palestine under Moslems p. 505.

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.

p. 27. المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٦١٧ — ٦١٨

(٥) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.

p. 24.

(و) علاقة بيبرس بملوك أوروبا :

كانت علاقة بيبرس بالملوك المعاصرين له مختلفة؛ ففي الوقت الذي كان فيه العداء مستحكماً بينه وبين الصليبيين والمغول في فارس نراه يخطب ودّ امبراطور الدولة البيزنطية^(١) ويوفق في ذلك فيعقد معه محالفة دفاعية . وقد وجد هذا الامبراطور من سلطان مصر خير معين وعضد له على عدوّهما معا في البلاد الشامية .

ولما استحسنت بين الدولتين عرا المسالمة طلب الامبراطور من بيبرس بطريقا من الطائفة المملوكية لمن يعتنقون هذا المذهب في دولته ؛ فأرسل إليه السلطان الأمير فارس الدين أقوش المسعودي ومعه الرشيد الكحال وبعض الأساقفة . فلما وصلوا إليه استقبلهم بكل مظاهر الحفاوة والتكريم وأطلع الأمير أقوش على المسجد الذي جدد بناءه ؛ ثم عاد هذا الأمير ومعه البطريق مجملا بالهدايا . وعند ما علم السلطان بأن الامبراطور جدد بناء ذلك المسجد شرع في تأييده ؛ فأرسل إليه الحصر والقناديل المذهبة والمباخر والسجادات والطيب^(٢) .

(١) كان امبراطور القسطنطينية « ميخائيل باليولوجس » مخالفا في المذهب لكنيسة روما ، كما كانت عدوّا للصليبيين الذين يعتنقون المذهب الكاثوليكي وهؤلاء بحكم مذهبهم كانوا أعداء لكنيسة القسطنطينية وعوامل العداء متصلة في نفوس الفريقين . ومن الطبيعي أن تقوى عوامل البغضاء والكراهية في نفس الامبراطور ميخائيل لكل من ينتمى إلى كنيسة روما سيما هؤلاء الذين تسموا باسم الصليبيين لما أتوه من العبث وسوء الإدارة أثناء حكمهم للدولة الرومانية الشرقية مدة نصف قرن ، فقد أسسوا دولة بها سنة ١٢٠٤ م ظلت قائمة هناك إلى أن جاء هذا الامبراطور ففرض عليها سنة ١٢٦٢ م ؛ وبذلك تمكن من إعادة الدولة البيزنطية إلى القسطنطينية . Camb. Med. ؛ Stanley Lane-Poole p. 260 Hist. IV pp. 507 et Seq.

(٢) بنى هذا المسجد مسلمة بن عبد الملك في خلافة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ . وقد هدمه اللاتين أثناء إغارتهم على القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٢٦٢ م) ؛ العيني : عقد الجمان . المجلد الثالث ورقة ٤٨١ ؛ Stanley Lane-Poole p. 266.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٢٦٢ ؛ المقرئى : السلوك

وقد أحسن الملك الظاهر صنعا بالتحالف مع هذا الامبراطور ليستعين به هو أيضا على الصليبيين ، وليفسح المجال للتجارة المصرية في بلاده حتى يصير التجار وغيرهم آمنين على أنفسهم وأموالهم ، هذا إلى وقوفه في وجه اللاتين الذين كانوا يوالون إمداداتهم إلى إخوانهم الصليبيين بالشام .

على أن بيبرس لم يلبث بعد ذلك أن أساء الظن بحليفه سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) عند ما عاق رسله عن مواصلة السير إلى بركة خان كما تقدم فاعتقد أنه انضم إلى جانب هولاء . وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد الامبراطور في السنة التالية يرسل إليه الهدايا^(١) مما يدلنا على أنه كان يحرص على مخالفة بيبرس . على أن هناك حادثة تشعرنا بأن العلاقة بين السلطان والامبراطور أصبح يشوبها بعض الفتور وذلك على أثر زواج أبا بن هولاء كو من ابنة امبراطور القسطنطينية^(٢) . فكان من أثر هذه المصاهرة أن تقرب كل من أبا والامبراطور من الآخر وفي هذا ما فيه من الخطر العظيم على دولة بيبرس .

لم يكتف الملك الظاهر بمخالفته امبراطور القسطنطينية ، بل تبادل مع منفرد ملك صقلية وتسكانيا^(٣) الرسل والهدايا ، فأرسل في سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) وفدا^(٤) مزودا بالتحف وعددا من الزراف وجماعة من التتار الذين أسروا في موقعة عين جالوت بخيولهم التتارية وعدتهم^(٥) . ولما قدم هذا الوفد إلى الامبراطور تلقاهم بالترحاب وأعجب بالهدية وخاصة الزراف والتحف . ولم يلبث بعد ذلك أن أرسل إلى السلطان هدية مع أحد رسله^(٦) وبذلك توثقت عرا الصداقة بين البلدين وازدادت

(١) المقرئى : السلوك ص ٥١٤ ، ٥٣٧

(٢) Browne : A Literary History of Persia p. 18.

(٣) Stanley Lane-Poole. p. 266.

(٤) يفهم مما ذكر في Ens. Isl. Art, Ibn Wāsil أن هذا الوفد كان برئاسة جمال الدين

ابن واصل . (٥) Camb. Med. History VI p. 177. (٦) أعاد الامبراطور

مع هذا الرسول مملوكين بحريين عندما أساء الأوب على أثر قدومهما إليه مع هدية السلطان . ولما وصلا

إلى مصر أمر بيبرس بتأديتهما فاعتقلا بقلعة الجزيرة . ابن واصل : مفرج الكروب ص ٤٠٠ ب .

رسوخا في عهد شارل صاحب أنجو^(١) (Charles of Anjou) على أثر الكتب والهدايا التي تبودلت بينهما سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) ، وفضلا عن ذلك فإنه أصبح لبيبرس بعض النفوذ في صقلية . ويتضح لنا ذلك من هذا الكتاب الذي أرسله إليه أحد كبار رجال دولة الملك شارل ، إذ قال له فيه ” إن مخدومه (شارل) أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذا في بلاده وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه^(٢) “. وربما كان يقصد من وراء هذا الكتاب إلى تحقيق رغبة الملك شارل في عقد معاهدة تجارية بين دولة المماليك ومملكة صقلية .

ولم تقف مساعي بيبرس عند هذا الحد بل عقد معاهدات تجارية مع جيمس ملك أراجونة (Aragon) وألفنس أمير إشبيلية الذي تبودلت بينه وبين الملك الظاهر^(٣) الرسل والهدايا . وكان ألفنس هذا قد أرسل إلى السلطان رسالة يخطب فيها ودّه فأجابه بيبرس على ذلك بأن أرسل إليه رسلا مزودين بالهدايا ؛ وكانوا كلما مروا على بلدة من بلاده قابلهم أهلها بالحفاوة والإكرام واستمروا على ذلك الحال حتى قدموا إليه ، فأكرم وفادتهم وقبل الهدية منهم ثم أعد لهم مركبا أبحروا فيه إلى الأسكتدرية^(٤) فوصلوا إليها في صفر سنة ٦٧٥ هـ .

(ز) اتساع نفوذ بيبرس في بلاد النوبة :

كان أهل هذه البلاد خاضعين لسلطان مصر يؤدون إليه الجزية ؛ غير أنهم كثيرا ما كانوا يمتنعون عن دفعها ويشقون عصا الطاعة كلما سنحت لهم الفرص ؛ وقد

(١) كان شارل هذا قد قام بقيادة الحملة الصليبية الثامنة على أثر وفاة قائدها لويس التاسع ملك فرنسا . غير أن القائد الجسديد حوّل غرض الحملة إلى ما تطلبته مصالح مملكته صقلية ؛ فألزم ملك تونس المستنصر محمد بن يحيى بن عبد الوهاب بدفع مبلغ من المال كغرامة حربية وفرض عليه جزية سنوية تدفع إلى خزانه مملكته . ابن أبي الفضايل : كتاب النهج السديد ص ١٢١ ، Barker, The Crusades.

pp. 87-89. (٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٣

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages

p. 266. (٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ٢٢٧

حدث ذلك في أواخر عهد الملك الظاهر حيث كان على البلاد رجل اسمه شكندة يؤدى الجزية ويقدم فروض الطاعة لمصر، فثار عليه ابن أخيه « داود » ووقع بينهما الشقاق والنزاع إلى أن تغلب عليه وانتزع الملك من يده ^(١).

ولما تولى داود عرش بلاد النوبة امتنع عن دفع الجزية السنوية لسلطان مصر وتجاوز حدود مملكته مغيرا على بعض قرى الديار المصرية وأستولى على كثير من الأسرى المسلمين بأسوان وعيذاب ^(٢).

وعند ما لم يقو شكندة على استرداد ملكه من ابن أخيه سار إلى مصر مستنجدا بالملك الظاهر . فاتهز بيبرس هذه الفرصة ليثار من أهالى بلاد النوبة الذين كانت غزواتهم لاتنقطع عن صعيد مصر؛ فجهز مع شكندة قوة من الجند بقيادة شمس الدين أفسنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم وأمرهما بتسليم البلاد إليه على أن يكون ريعها للملك الظاهر . فغادروا مصر إلى بلاد النوبة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م)، ولما وصلوا إلى دنقلة خرج إليهم ملكها داود على رأس جيش كبير ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى جنوبها فهزم جيش النوبة هزيمة منكرة وأسر كثير منهم وبيع السبي بثلاثة دراهم .

أما داود فإنه على أثر هزيمة جيشه عبر النيل إلى البر الغربى . فلما علم بذلك الأفرم والفارقانى رجا بمن معهما وتابعوا السير جميعا للقضاء عليه ؛ غير أنه عندما أحس بهم ترك أمه وأخته وابنة أخيه وقصد إلى أحد ملوك بلاد النوبة ، فاتهزوا فرصة غيابه وأسروا أقرباءه ثم عادوا إلى دنقلة وملكوا عليهم شكندة ^(٤).

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٦

(٢) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages

p. 271.

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ؛ ابن شاكر

الكتنى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٥١ و ٥٢

ولما تم لهم ذلك فرضوا عليه أن يقدم للسلطان في كل عام عددا من الفيلة والزراف والفهود والخيول والأبقار وأن يكون نصف محصول الأرض للسلطان والنصف الآخر لعمارة البلاد وحفظها، ثم عرضوا على أهالي بلاد النوبة الإسلام أو الجزية أو القتل، فاختاروا الجزية وأن يقوم كل منهم بدفع دينار عينا. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كتبوا نسخة من هذه الشروط وحلقوا شكندة عليها كما حلقوا أيضا رعاياه على طاعة نائب السلطان^(٢). فأين هذا مما صنعه عبد الله بن سعد ابن أبي سرح معهم؟ فإنه عند ما لم يستطع التغلب عليهم والاستيلاء على بلادهم سنة ٣١ هـ عقد معهم صلحا أشبه بمعاهدة تجارية لتعهد فيها مصر بإمدادهم بالحبوب والعدس وتعهدهم النوبة بتقديم الرقيق.

(١) أورد مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٣٦ — ٢٣٨، نص هذا اليمين وقد جاء فيه "والله والله والله وحق الثالوث المقدس والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية والأنبياء والرسل الخواريين والقديسين والشهداء والأبرار وألا أجدد المسيح كما جدد يودس وأقول فيه ما تقول اليهود... أنني أخلصت نبي وطوبى من وقى هذا وساعى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه واننى أبذل جهدى وطاقى فى تحصيل مرضاته واننى ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى وهو ما يصل من مشاطرة بلادى على ما كان يتحصل لمن تقدم من الملوك بالنوبة وأن يكون النصف من المتحصل لمولانا السلطان... والنصف الآخر مرصدا لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها وأن يكون على فى كل سنة من الأفيلة ثلاثة ومن الزرافات ثلاثة ومن إناث الفهود خمسة ومن الصهب الجياد مائة ومن الأبقار الجيدة أربعائة رأس واننى أقرر على كل نقر من الرعية الذى تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين دينارا عينا وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه شكندة ولأمه وأقاربه ومن عهد من عسكره بسيف العسكر المنصور أحمله إلى الأبواب العالية واننى لا أترك شيئا منه قل ولا جل ولا أخفيه ولا أمكن أحدا من إخفائه ومتى خرجت عن شىء مما قرر على أعلاه كنت بريئا من المسيح ومن السيدة الطاهرة وأخسر دين النصرانية وأصلى لغير الشرق وأكفر بالصليب واعتقد ما يعتقدونه كذلك اليهود، ثم اننى لا أترك أحدا من العربان ببلاد النوبة صغيرا ولا كبيرا ومن وجدته احتطت عليه وأرسلته إلى الأبواب العالية واننى مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به مولانا السلطان فى وقته واننى لا أنفرد بشىء من الأشياء واننى عبد مولانا السلطان عند نصره وغرس صنائعه وسيفه المنصور وأنا ولى من والاه وعدو من عاداه والله على ما أقول وكيل وشهيد".

(٢) المقرئى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٢٢

ولما فرغ الأميران الأفرم والفارقاني من تمليك شكندة على بلاد النوبة عادا ومن معهما إلى القاهرة ، نخلع عليهما الملك الظاهر وحبس أم داود وأخته وابنة أخيه وأمر بالأياع من السبي يهودى أو نصرانى وألا يفرق بين المرأة وأولادها^(١) . ولم يلبث بعد ذلك داود أن قبض عليه الملك الذى نزل عنده وسيره إلى الملك الظاهر فى أوائل سنة ٦٧٥ هـ ، فاعتقل بقلعة الجبل^(٢) .

وهكذا اتسع نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة ، ويقول ميور فى ذلك^(٣) : إن هذه هى أول مرة خضعت فيها هذه البلاد خضوعا حقيقيا للنفوذ الإسلامى رغم الهجمات التى كانت تتوالى عليها من حين لآخر .

(ح) ازدياد سلطة بيبرس فى الأماكن المقدسة بالحجاز :

اهتم بيبرس بشئون مكة والمدينة وكان ما بين شرفائهما من المشاحنات والخلاف أكبر معين له على بسط نفوذه وسيادته على تلك الأصقاع . فلبى أولا طلب الشريف بدر الدين مالك وقسم إمارة المدينة بينه وبين الأمير جماز ، كما انتهز فرصة الخلاف الذى وقع بين أميرى مكة سنة ٦٦٧ هـ واتفق معهما على أن يعطيهما ألف درهم فى كل عام على ألا يأخذا مكوسا من أهالى مكة وألا يمنع أحد من زيارة بيت الله وألا يتعرض لتاجر وأن يخطب باسم السلطان فى الحرم والمشاعر وتضرب السكة باسمه^(٤) .

ولما رأى الملك الظاهر أن الأمر استقر له ببلاد الحجاز شرع فى الرحيل إليها فى شهر شوال سنة ٦٦٧ هـ لقضاء مناسك الحج واستصحب معه قاضى القضاة صدر الدين سليمان الحنفى وصاحب ديوان الانشاء نحر الدين بن لقمان ونحو ثلثمائة مملوك

(١) ابن شاکر الکتبی : عیون التواریخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٥٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : کتاب النهج السدید ص ٢٣٦

(٣) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 28.

(٤) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٠ و ٥٧٩

وبعض الأجناد . وعند ما وصل إلى المدينة في أواخر ذى القعدة من هذه السنة زار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم سار منها إلى مكة فأدى بها فرائض الحج . ولما فرغ من ذلك علق كسوة^(١) بيت الله الحرام بيده وأعطى خواصه مبلغا كبيرا من المال ليوزعوه على أهالي الحرمين ، كما خلع على أكابر رجال الحجاز وأمير ينبع وأميرى مكة وزاد في المال المقرر لهذين الأميرين ليسهلا للناس الحج إلى بيت الله الحرام وعين نائبا له بمكة تلبية لطلب^(٢) أميرها . وبذلك ازداد نفوذ بيبرس في تلك الأماكن المقدسة .

(ط) تبادل المراسلات بين نجاشى الحبشة وبيبرس :

ارتبطت مصر بعلاقات الود مع الحبشة في عهد بيبرس ، فأرسل ملكها كتابا إلى الملك الظاهر يتوَدِّد فيه إليه ويطلب منه أن يرسل إليه مطرانا . وقد خاطبه فيه بقوله :
 ”أقل الممالك فخر أملا لك يقبل الأرض وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر ،
 خلد الله ملكه . إن رسولا وصل إلى جهة وإلى قوص بسبب الراهب الذى جاءنا
 فذبحنا ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده ، فيرسم مولانا السلطان للبطررك
 يعمل لنا مطران يكون رجلا جيدا عالما لا يحب ذهباً ولا فضة ويسيره إلى مدينة
 عوان . فأقل الممالك يسير إلى ثواب الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه وهو يسيره
 إلى أبواب السلطان . وما أخرت الرسل إلى الأبواب إلا أننى كنت في بيكار فإن
 الملك داود قد توفي وقد ملك ولده . وعندى فى عسكرى مائة ألف فارس من المسلمين
 وإنما (كذا فى الأصل) النصارى فكثير لا يعدوا كلهم غلمانك وتحت أوامرك ،

(١) كان بيبرس يرسل إلى الحجاز فى كل عام كسوتين : إحداهما للكعبة ، والأخرى لقبر النبي صلى الله عليه وسلم . (٢) المقرئى : السلوك ص ٥٨٠ — ٥٨٢ ؛ العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٥١ (٣) ذكر القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٣ ، أن المطران فى عصره هو القاضي الذى يفصل فى الخصومات بين أهل طائفته .

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢١٩ — ٢٢١

والمطران الكبير يدعوك ... وكل من يصل إلى المسلمين من بلادنا نحفظهم
ونسفرهم كما يحبون . والرسول الذي حضر إلينا من جهة وإلى قوص مريض
وبلادنا ونعمة .

فكتب إليه بيبرس يقول ^(١) : "ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل في مملكته
حطى ملك أمحره أكبر ملوك الحبشان ، الحاكم على ما لهم من البلدان نجاشي عصره
وفريد مملكته في دهره ، سيف الملة المسيحية ، عضد دين النصرانية ، صديق
الملوك والسلاطين ، سلطان الأمحره ، حرس الله نفسه وبني على الخير أسه ، فوقفنا
عليه وفهمننا ما فيه . فأما طلب المطران ، فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا
نعرف الغرض المطلوب ، وإنما كتاب السلطان الملك المظفر ورد مضمونه أنه وصل
من جهته كتاب وقاصد وأنه أقام عنده حتى يعود إليه الجواب . وأما ما ذكره من
كثرة عساكره وأن من جمعتها مائة ألف من المسلمين ، فالله تعالى يكثر في عساكر
المسلمين . وأما وخم بلاده فالآجال مقدرة من الله تعالى وما يموت أحد إلا بأجله ،
ومن فرغ أجله مات " .

فما تقدم نرى كيف أصبح بيبرس مهيب الجانب وموضع احترام الملوك الغربيين
والشرقيين المعاصرين له ، فكانوا جميعاً يخشون بأسه ويعملون كل ما في وسعهم للتودد
إليه والتقرب منه ويرجع الفضل في ذلك إلى ما اشتهر به بيبرس من حسن السياسة
والنبوغ في فن الحرب .

(١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٢٢١ — ٢٢٢

الباب الرابع

حضارة مصر في عصر الظاهر بيبرس

- (١) النظام السياسى والادارى .
 - (٢) القضاء .
 - (٣) الجيش والبحرية .
 - (٤) الحضارة المادية .
 - (٥) منشآت بيبرس .
 - (٦) الحياة العلمية والأدبية .
 - (٧) الحالة الاجتماعية .
-

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم
موسمًا من موسمي القرآن الكريم

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم
موسمًا من موسمي القرآن الكريم

في المجلد الثاني

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم
موسمًا من موسمي القرآن الكريم

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم
موسمًا من موسمي القرآن الكريم

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم
موسمًا من موسمي القرآن الكريم

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم
موسمًا من موسمي القرآن الكريم

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم
موسمًا من موسمي القرآن الكريم

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم
موسمًا من موسمي القرآن الكريم

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم
موسمًا من موسمي القرآن الكريم

الباب الرابع

حضارة مصر في عصر الظاهر بيبرس

١ - النظام السياسى والإدارى

لم تشغل بيبرس الحروب الخارجية عن الاهتمام بشئون مصر الداخلية؛ فقد وضع أساس النظام السياسى لدولة المالك ونظم إدارتها وكان صاحب الأمر المطلق فيها إذ لم يكن لديه مجلس نيابى يستشير بمقتضى دستور أو نظام خاص .

وعلى الرغم من أنه أعاد الخلافة إلى العباسيين فإن الخليفة لم يكن له فى عهده من الأمر شىء اللهم إلا ما كان متعلقا بالدين وحراسته ^(١) . وهكذا لم تصبح للخلافة فى عصره أى صبغة سياسية، كما لم يبق للخليفة أى نفوذ بعد أن كان الناس لا يرون لهم حاكما غيره يجمع فى يده بين السلطتين الروحية والزمنية .

أما عن نظام الحكم فى عصر بيبرس فقد كان ملكيا وكانت السلطة قبل انتقالها إليه لا ينالها إلا أقوى الأمراء نفوذا وأكثرهم أنصارا وأشدّهم دهاء . فرأى بيبرس بعد أن وطد سلطته فى مصر أن يعمل على حصر وراثته العرش فى أسرته ^(٢) ، بمعنى أن يكون الحكم فيها ملكيا وراثيا فى أبنائه . وقد مهد لذلك بأن جعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لابنه الملك السعيد سنة ٦٦٠ هـ . ثم لم يلبث بعد ذلك أن ولاه عهد السلطنة عندما وافته الأخبار بقدم التتار إلى بلاد الشام سنة ٦٦٢ هـ ، لينوب عنه فى مصر أثناء اشتغاله بحجارتهم ، وأقام لذلك احتفالا عظيما زينت فيه القاهرة وتنافس الأمراء وكبار رجال الدولة فى إقامة معالم الزينة تكريما له فاستبشر بذلك

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 30.

(٢) Muir Op. Cit p. 32.

العامة والخاصة وتقرر أن يكون أتابكه عز الدين أيدير الحلي ، ثم قرئ تفويض عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء وقد جاء فيه :^(٢)

”الحمد لله منى الغروس ومبهج النفوس ... ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد كثير الله عدده وعدده ... ونصلى على سيدنا محمد الذى أطلع الله به نجم الهدى وألبس المشركين به أردية الردى ... كانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو وتوسمنا منه حسن الجنا المرجو ورأينا أنه الهلال الذى أخذ فى ترقى منازل السعود إلى الأبدار وأنه سرنا الذى صادف مكان الاختيار له حسن الاختيار . أردنا أن ننصبه فى منصب أحلنا الله فسيح غرفه ونشرفه بما خولنا الله من شرفه وأن تكون يدنا ويده تقتطفان من ثمره ... جعل الله مطلع سعده بالاشراف محفوفا وأرى الأمة من ميامنه ما يدفع للدهر صرفا ويحسن بالتدبير تصرفا بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها وغورها ونجدها وعساكرها وجندها وقلاعها وثغورها وبرورها وبحورها وولاياتها وأقطارها ومدنها وأمصارها وسبلها وجبلها ... وما ينسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشام وغير شام ... ومن يسكنها من حقير وجليل ... وجعلنا يده فى ذلك كله الميسوطة وطاعته المشروطة ونواميسه المضبوطة ، ولا تدبر ملك كلى إلا بنا أو بولدنا يعمل ، ولا سيف ولا رزق إلا بأمرنا هذا يسلم وهذا يسأل ، ولا دست سلطنة إلا بأحدنا يتوضّع منه الإشراق ، ولا غصن قلم فى روض أمر ونهى إلا ولدينا ولديه تمتد له الأوراق ، ولا منبر خطيب إلا باسمينا يمس ولا وجه درهم ولا دينار إلا بنا يشرق ويكاد تبرجا لا بهرجا يتطلع من خلال الكيس . فليقلد الولد ما قلده من أمور

(١) يفهم مما ذكره النورى ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١٦٠ ، أن بيبرس لم يكتف بهذا التفويض بل دعا الأمراء فى صفر سنة ٦٦٧ هـ ليقسموا يمين الطاعة للملك السعيد ؛ ولما تم له ذلك جدد تفويض عهد السلطنة إليه .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٨ و ٥١٥ — ٥١٦

العباد ، وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد ... والله لا يعدمنا منه إشفافا وبرا ويجعله أبدا للأمة سنداً وذخراً^(١) .

على أن نظام ورائة العرش لم يكن مألوفاً عند المماليك ؛ فقد كانوا يعتقدون أنه لا فضل لأحد على الآخر إلا بالمهارة الحربية وكثرة الأتباع والحدق في تدبير المؤامرات . وفي أغلب الأحوال كان يرث التاج ابن السلطان وهو طفل لم يبلغ الحلم فلا يلبث أن يخلعه أتابك^(٢) كما فعل الملك المظفر قطز مع الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيك^(٣) . وقد فطن بيبرس لذلك عند ما أحس بالموت فكتب وصية لابنه الملك السعيد يحذره فيها من الأمراء المحيطين به . ومنها : ” إنك صبي وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبي . فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحقق ذلك عنه فاضرب عنقه في وقته ولا تعتقله ولا تستشر أحداً في هذا وأفعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصالحك^(٤) ” .

وقد تحقق ما كان يخشاه بيبرس فإنه على أثر تولية ابنه الملك السعيد أخذ الأمراء يعملون على تقويض سلطته حتى اضطروا أخيراً إلى النزول عن العرش بعد أن ظل في الحكم أكثر من سنتين^(٥) .

ولما نزل الملك السعيد عن العرش اتفق الأمراء على تولية الأمير قلاوون سلطنة مصر فامتنع وقال ” أنا ما خلعت الملك السعيد طمعاً في السلطنة والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر^(٦) ” .

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٨١ و ٨٥

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 219. — أتابك : معناها مربى الأمير . وأول من لقب بهذا اللقب نظام الدولة وزير ملكشاه بن الب أرسلان السلجوقي حين قوض إليه ملكشاه تدبير الملكة سنة ٤٦٥ هـ . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ؛ وقد تحول هذا اللقب إلى لقب عسكري في عصر المماليك فأصبح يطلق على القائد العام للجيش .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤١٧ (٤) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار

بنى أيوب ج ٢ ص ١٤٤٠ . (٥) Sir William Muir. Op. Cit. p. 33.

(٦) المقرئى : السلوك ص ٦٥٦

على أن الأمير قلاوون لم يقصد بامتناعه عن تولية سلطنة مصر احترام مبدأ وراثته العرش، ولكنه كان يرمى من وراء ذلك إلى إتاحة الفرصة له حتى يستطيع إخماد نار الفتنة التي أشعلها الظاهرية أنصار الظاهر بيبرس الذين كانوا يكونون أغلبية الجيش، وإبعاد الأمراء الموالين لأسرة بيبرس عن مناصب الدولة. وقد لقي قوله قبولا لدى الأمراء فولواسيف الدين سلامش بن بيبرس سلطنة مصر — وله من العمر سبع سنين — ولقب بالملك العادل، وعينوا الأمير قلاوون أتابكا له، فقبض قلاوون على زمام الأمور في البلاد واتهم فرصة صغر سن سيف الدين سلامش وأخذ يعمل على خلع له ليحل محله في عرش مصر فقبض على الأمراء الظاهرية واستمال إلى جانبه المماليك الصالحة موالى الملك الصالح أيوب فمنحهم الاقطاعات وولاهم بعض الولايات.

ولما اطمأن بال قلاوون من ناحية مناوئيه جمع أمراءه وتحدث معهم في صغر سن الملك العادل وقال لهم: "قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل" فاتفقوا^(١) على خلع سلامش وبعثوا به إلى الكرك وعينوا الأمير قلاوون سلطانا على مصر. وهكذا انتقلت السلطة من بيت بيبرس إلى بيت قلاوون. وهذا يثبت لنا أن مبدأ وراثته العرش لم يكن مقبولا لدى أمراء المماليك. فقد حتمت عليهم نشأتهم أن تكون مؤهلات السلطنة عندهم المهارة الحربية وكثرة الأتباع. وقد استعان بيبرس في إدارة شؤون دولته بالأمراء المقربين إليه فولاهم أرقى المناصب، كما أنه أحيى وظيفة نائب السلطان التي ابتدعوها في عهد الدولة الأيوبية وذلك لكثرة تغيبه عن مصر ولرغبته في أن ينوب عنه بها أثناء اشتغاله بالحروب الخارجية أحد كبار رجال دولته. فكان هذا النائب يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ويشترك معه في توزيع الاقطاعات وترشيح الأكفاء لمناصب الدولة ولا تتسع سلطته سمي « كافل الممالك والسلطان الثاني »^(٢).

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٧ — ٣٥٨

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

كذلك اتخذ بيبرس وزيرا له ؛ وكان يستشير في أمور الدولة ، كما كان واسطة بينه وبين الرعية ، وكان عليه تنفيذ رغبات السلطان وأوامره وإسداء النصيح والإرشاد له . إذا ما استأنس برأيه في أمر من أمور الدولة . غير أنه لم يكن يتمتع بكامل سلطته لقيام النائب مقام السلطان أثناء غيابه ^(١) ولتدخله في تعيين كبار موظفي الدولة . وقد تولى الوزارة في عهده صاحب بهاء الدين بن حنا . وكانت له منزلة سامية يدلنا على ذلك تلك الرسالة التي خاطبه بها محي الدين بن عبد الظاهر عند ما كان مع بيبرس في قيسارية سنة ٦٧٥ هـ ؛ فقد وجه إليه عبارات تدل على ما كان لهذا الوزير من مقام لم يرتفع إليه غيره ومنزلة لم يسم إليها سواه . وقد تكفل صاحب صبح الأعشى بذكر هذه الرسالة ^(٢) .

وكان يرافق السلطان في أسفاره وحروبه وزير آخر يعرف باسم وزير الصحبة وذلك ليتسنى للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة مقر عمله .

وقد ظلت الوزارة قائمة في ذلك العصر حتى ولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر فلم يتخذ له وزيرا واعتمد على « ناظر الدولة » في إدارة شئون البلاد . وكانت رتبته تلى رتبة الوزارة ويعاونه في عمله كثير من الموظفين يعرفون بالمستوفين ولهؤلاء رئيس يسمى « مستوفى الصحبة » وكانت مهمته إعداد المراسيم الخاصة بتنظيم شئون الدولة وتعيين صغار الموظفين ^(٣) .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد ألغى الناصر وظيفة نائب السلطان واضطلع بما كان يقوم به النائب والوزير ، كما استحدث وظيفة « ناظر الخاصة » وكانت مهمة القائم بأعبائها في أول الأمر مقصورة على إدارة أموال السلطان ؛ غير أنه لم يلبث أن ازداد نفوذه لكثرة تقربه من السلطان فأصبح يتدخل في أموره الخاصة ^(٤) .

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢٣ (٢) القلقشندي : ج ١٤ ص ١٣٩ — ١٦٥

(٣) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢٤

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

مما تقدم نرى كيف أن سلاطين المماليك في ذلك العصر لم يعنوا بأن يتخذوا لهم وزراء يعاونونهم في إدارة شئون الدولة كما كانت الحال في عهد الدولتين الفاطمية والأيوبيه؛ فأضعفوا أولا من نفوذهم ثم استبدلوا بهم بعض كبار الموظفين؛ فأصبح كل من « ناظر الدولة » و « ناظر الخاصة » يقوم بمهام الوزارة . ولعلمهم عمدا إلى ذلك خشية أن يزداد نفوذ الوزراء فيعملون على تقويض سلطتهم وخلعهم من عروشهم كما كانت الحال في أواخر عهد الدولتين العباسية والفاطمية .

وقد ملأ بيبرس بلاطه بكثير من الموظفين نخص بالذكر منهم « الحاجب » وكانت مهمته إدخال الناس على السلطان حسبما تقضى الضرورة بالسماح لهم بالمشول بين يديه مراعى في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم . ولم تقف مهمته عند هذا الحد بل كان يفصل فيما يحدث بين الأمراء والجنود ، وذلك بعد استشارة السلطان أو نائبه؛ ثم أخذت سلطته تتسع تدريجيا حتى أصبح يقضى بين المغول الذين استوطنوا مصر طبقا لأحكام الياسة التي وضعها جنكزخان ^(١) .

وهناك موظفون آخرون يلون الحاجب في المسكنة وهم « الاستادار » و « الدوادار » و « الأمير جاندار » . وكان يعهد إلى الأول إدارة البيوت السلطانية ،

(١) كان هؤلاء المغول على الرغم من استيطانهم مصر واعتناقهم الدين الاسلامي لا يزالون متأثرين بأحكام الياسة ؛ وقد أظهروا رغبتهم في العودة الى اتباعها . وفي ذلك يقول المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢١ ... واحتاجوا (المغول) في ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكزخان والافتداء بحكم الياسة ؛ فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم (كذا في الأصل) والأخذ على يد قويمهم وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما في الياسة ” .

(٢) كان جنكزخان قد وضع بعض تشريعات للمغول وأثبتها في كتاب سماه « ياسة » . ومن أهم ما جاء فيه أنه نص على قتل من يزنى ومن يتعمد الكذب ومن يتجسس ومن يدخل بين اثنين يتخاصمان ويعين أحدهما على الآخر ، ومن يبول في الماء أو على الرماد أو من يعطى بضاعة ويخسر فيها ، ومن يطعم أسير قوم أو يكسوه بغير إذنه ، ومن يجد عبدا هاربا أو أسيرا ولا يرده ؛ ومن يقع قوسه أثناء القتال ، ومن يتردد من الأمراء على أى فرد من الأفراد خلاف الملك . فضلا عن ذلك فإنه قرر ألا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب مؤونة ولا كلفة ؛ وألزم أفراد رعيتيه باحترام جميع الملل والمذاهب . المقرئى :

ويبلغ الثانى الرسائل للسلطان ويقدم إليه المنشورات للتوقيع عليها . أما الثالث فمهمته الوقوف على باب السلطان واستئذانه فى استقبال كبار رجال الدولة وأعيانها^(١) .

وقد أحدث بيبرس إلى جانب ذلك وظائف أخرى منها "رأس نوبة الأمراء" و "أمير المجلس" و "أمير السلاح" . وكان يتولى الأول الرئاسة على أمراء الدولة ، ويعهد إليه بحاكمية الممالك السلطانية . أما "أمير المجلس" فكانت مهمته حراسة السلطان ، وازداد قرب منه حتى أصبح يحرسه فى داخل قصره بل وفى حجره نومه . واختص "أمير السلاح" بالإشراف على مخازن الأسلحة ومعدات الحرب^(٢) .

وكان للسلطان ولاية ينوبون عنه فى إدارة شئون الدولة المصرية ، ومهمتهم تنفيذ الأوامر الصادرة منه وجمع الخراج والرسوم الجمركية . وكانت الأسكندرية أعظم^(٣) الولايات شأنًا فى ذلك العصر لأهميتها التجارية ، وكذلك نجر عيذاب أحد ثغور مصر على البحر الأحمر وكانت تتمز به تجارة الشرق . وكان الوجه القبلى مقسما إلى عدة ولايات ؛ ومن أهم ولاياته : قوص والأشمونين والبهنسا والجزيرة . أما الوجه البحرى فأهم ولاياته : بلبيس ومنوف والمحلة الكبرى ودمهور وقلوب ودمياط^(٤) .

ومن الوظائف الهامة التى ظهرت فى هذا العصر وظيفة «الولاية» ؛ وهى تقابل ما يعرف فى العصر الإسلامى الأول بالشرطة^(٥) . ومهمة صاحبها حفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التى تكفل سلامة الجمهور .

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢٢ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٥

(٣) كان يطلق على الأسكندرية فى عهد الظاهر بيبرس ولاية الأسكندرية ، ثم أطلق عليها نيابة الأسكندرية فى أيام الظاهر برقوق . وكان فى عهده ثلاث نيابات : نيابة الأسكندرية ، ونيابة الوجه

القبلى ، ونيابة الوجه البحرى . القلقشندى : شرحه ج ٤ ص ٢٤ — ٢٥

(٤) القلقشندى : شرحه ج ٤ ص ٢٦ — ٢٨

(٥) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢٣

وكان يقوم بأعباء هذه الوظيفة في عصر بيبرس ثلاثة أمراء، يتولى أحدهم المحافظة على الأمن بالقاهرة وفض المشاكل التي تحدث بين سكانها، ويعهد إلى الثاني بأداء مثل هذا العمل بالفسطاط. أما الثالث فكان يلى شئون القرافة^(١). ولعله كان يحفظ النظام أثناء مرور الجنازات ويراعى الآداب العامة في زيارات القبور وخاصة أيام المواسم والأعياد، كما كان يقوم بحراسة القبور خشية أن يعبت بها اللصوص. وإلا فليس من المعقول أن يتساوى وإلى القرافة مع وإلى كل من الفسطاط والقاهرة إن لم يكن في القرافة عمل يساوى عملهما.

وكان "صاحب العسس" بالقاهرة يتولى الاشراف على مطافئ الحريق بها، فيجلس بعد صلاة العشاء أحيانا بمحطة المطافئ التي اتخذها الممالك بسوق الجمelon الكبير بالقرب من حارة الجدرية بالغورية. وكان يوضع أمامه مشعل يشعل بالنار طول الليل، ومعه السقاءون والنجارون وغيرهم من العمال خشية حدوث الحريق بالليل فيبادرون إلى إطفائه^(٢).

ديوان الإنشاء — وجه بيبرس عنايته إلى ديوان الإنشاء لكثرة المحالفات والمعاهدات التي عقدها مع الملوك والأمراء المعاصرين له وما ترتب على ذلك من تبادل الرسائل بينه وبينهم.

وكان هذا الديوان يتكوّن من طبقتين من الكتاب؛ تعرف الطبقة الأولى منهم بكتاب الدست^(٣)، ومهمتهم قراءة القصص على السلطان بعد أن يفرغ من قراءتها رئيس الديوان، وذلك حسب ترتيب جلوسهم بدار العدل. وكانوا في عهد الملك الظاهر ثلاثة أرفعهم قدرا محي الدين بن عبد الظاهر. أما الطبقة الثانية فتعرف بكتاب الدرج^(٤)، وهؤلاء كانوا يقومون بكتابة ما يدونه صاحب الإنشاء وكتاب

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣ (٢) المقرئى: خطط ج ٢ ص ١٠٣

(٣) سمووا بذلك جلوسهم للكتابة بين يدي السلطان. (٤) عرف هؤلاء الكتاب بهذا الاسم لكتابهم الرسائل والمنشورات على ورق مستطيل مركب من عدة أوصال.

الدست على القصص وغير ذلك من المكاتبات والمراسيم^(١) . وكان عددهم يزداد كلما ازداد عدد كتاب الدست .

وقد تولى رئاسة ديوان الانشاء في أيام الملك الظاهر نحر الدين بن لقمان ، وهو من الكتاب الذين اشتهروا بسعة الاطلاع في الأدب وامتازوا بالمقدرة في فن الإنشاء . وكانت مهمته تسلم المكاتبات الواردة وعرضها على السلطان لبحثها واعتمادها ثم كتابة أجوبتها^(٢) .

وكان رئيس هذا الديوان يلقب الى ذلك الوقت بصاحب ديوان الانشاء ؛ غير أن هذا اللقب لم يلبث أن تغير عندما ولى الديوان القاضي فتح الدين بن القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في أيام المنصور قلاوون ؛ فلقب بكتاب السر ، وصار منذ ذلك الوقت يلقب بهذا اللقب كل من ولى ديوان الانشاء^(٣) .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الديوان في ذلك العصر كان يقوم مقام وزارة الخارجية في الوقت الحاضر ، إذ كانت ترد اليه المكاتبات من جميع أنحاء الولايات والممالك التي كان بينها وبين مصر بعض العلاقات ، كما كانت تحرر به الكتب التي يرسلها السلطان الى حلفائه . وقد ازداد نشاطه في أيام الملك الظاهر لكثرة المراسلات التي تبودلت بينه وبين الملوك الشرقيين والغربيين المعاصرين له .

البريد — تنبه بيبرس الى منفعة البريد فوضع له نظاما ارتبطت بمقتضاه جميع أنحاء مملكته بشبكة خطوط من البريد البري والجوى . وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل^(٤) ؛ ومنها تتفرع سائر الخطوط وتصدر المراسيم السلطانية الى أنحاء

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ (٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣١ (٣) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٢٢٦ (٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ (٥) كان يتفرع من قلعة الجبل أربعة طرق برية يمتد إحداها إلى قوص وآخر إلى عيذاب وثالث إلى الاسكندرية ورابع إلى دمياط ومنها إلى غزة . القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٣

امبراطوريته ، وإليها ترد الرسائل من الحكام والتقارير من ولاية الأقطار بانتظام حتى أصبح البريد في عهده يرد على مصر مرتين في الأسبوع ؛ ولم يتأت ذلك إلا بعد أن أنفق بيبرس أموالاً ضخمة في سبيل ^(١) ترتيبه .

وقد زود بيبرس مراكز البريد بكل ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف ، كما راعى فيها توفر المياه أو وجود قرية بجوارها يستأنس بها عمال البريد ^(٢) ، وأعد بكل منها خيولا لا يسمح بركوبها إلا بمرسوم سلطاني ^(٣) .

وكان يشرف على إدارة البريد صاحب ديوان الإنشاء ؛ فقد عهد إليه حفظ ألواح البريد بالديوان ^(٤) ، فإذا خرج بريدي إلى جهة من الجهات أعطى لوحا من تلك الألواح ليعلقه بعنقه في ذهابه وإيابه ^(٥) .

وكان البريديون ينتخبون عادة من خدم السلطان ذوى الكفاية والذكاء لا بلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء ؛ وكانت لهم مكانة محترمة .

ولم يقتصر بيبرس على البريد العادى في إرسال رسائله بل استخدم الحمام الزاجل ؛ وكان له أبراج بالقلعة ومراكز معينة في جهات مختلفة كمرکز البريد البرى ، لكنها تزيد عنها في المسافة . فإذا نزل بها الحمام ينقل البراج ما على جناحه إلى طائر آخر ليوصله إلى المنزل التي تليها ^(٦) .

وكان الإيجاز من أهم مميزات الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل ؛ فكان يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة مما كانت تحفل به الرسائل

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٦ — ٤٤٧ (٢) القلقشندي :

صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٢ (٣) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ص ١٠٨

(٤) كانت هذه الألواح من الفضة وقد نقش على أحد وجهي كل لوح منها عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ضرب بالقاهرة المحروسة . وعلى الوجه الآخر : "عز مولانا السلطان ... سلطان الاسلام والمسلمين" .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى : ج ١٤ ص ٣٧١

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩١

في ذلك العصر ، ويكتفى فقط بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب في صيغة مقتضبة كالتى تستعمل في البرقيات في وقتنا هذا .

وكانت الرسالة تشد تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها . وقد جرت العادة لزيادة الاطمئنان والثقة أن تكتب الرسالة من صورتين ترسلان مع حمامتين تطلق إحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى ، حتى إذا ضلت إحداهما أو قتلت أو افترسها الجوارح ، أمكن الاعتماد على وصول الأخرى . وقد جرت العادة أيضا ألا يطلق الحمام في الجو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافى ^(١) .

وكان حمام البريد السلطاني يميز بعلامات خاصة كبصم منقاره ببصمات خاصة أو قص ريشه بطرق معروفة ؛ فإذا وصل إلى قلعة الجبل ببطاقة تولى السلطان قطعها بنفسه ^(٢) . وهذا يدل على مبلغ اهتمام بيبرس وحرصه على الوقوف على كل ما يتجدد في أنحاء امبراطوريته فيأخذ حذره ويستعد للطوارئ .

٢ - القضاء

حرص بيبرس على إقامة العدل بين رعاياه ومعاملتهم بالمساواة ؛ فتولى بنفسه النظر في المظالم وأقام لذلك دار العدل التى كان يتولى رئاستها ويجلس بها للفصل في قضايا رعيته في يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وحوله قضاته الأربعة الذين كانوا يمثلون أئمة الاجتهاد ، وكبار موظفيه الماليين والإداريين وصاحب ديوان الإنشاء ^(٣) .

وكان قاضى القضاة في مصر عند ما تولى بيبرس العرش بدر الدين السنجارى ، فعزله الملك الظاهر في سنة ٦٥٩ هـ ، وفوض قضاء القضاة بديار مصر لتاج الدين

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢ ؛ تاريخ البريد في مصر (مصلحة البريد) ص ٤٣ - ٤٤

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٣١ ؛ Stanley Lane-Poole, A History of

Egypt in the Middle Ages p. 246.

(٣) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩

عبد الوهاب بن بنت الأعز^(١)، وكتب له بذلك تقليدا جاء فيه " ... رسم بالأمر
العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى زاد الله فى علائه ... أن نفوض
إليه الحكم العزى بجميع الديار المصرية المحروسة لما علم فيه من فضل ما زالت ثماره
تجنى ومساع حميدة ما برح به إلى الخلائق محسنا ... فليباشر هذا المنصب الذى أضحى
ظل شرفه وارفا ... وليول من القضاة من يحى من الحق سننا ويميت (ويمت
فى الأصل) من الباطل بدعا ... وليتفقد أمر العدول الذين أصبحوا على الحقيقة
عدولا من المنهج القويم راغبين عن المحامد بما يأتونه من كل وصف ذميم .
ولا يترك منهم إلا شاهدا كان على (المعايير) غائبا أو متورعا ... وأموال الأيتام
والأوقاف فلا يباشرها إلا من كان لمباشرتها أهلا ومن يتحقق أن يكون عليها قفلا ...
ورعينا بك حق الرعية، فلا تخل أمورهم من مراعاتها . وأمض عزيمتك فى إقامة
منار الشريعة بعد القعود ... وقد قررنا لك من الجامكية والجراية ما كان مقررا لمن
تقدمك، وهو فى كل شهر أربعون دينارا وخمسة وعشرون أردبا غلة نصفين^(٢) ... " .

على أن تاج الدين لم يظل منفردا بالقضاء فى مصر بل أشرك معه السلطان فى هذه
السنة برهان الدين السنجارى . وصار الأول مختصا بقضاء القاهرة والوجه البحرى ؛
أما الثانى فاختص بالنظر فى قضاء مصر والوجه القبلى . ولم يمض على ذلك وقت

(١) ولد تاج الدين سنة ٦٠٤ هـ ببلدة دميرة بمديرية الغربية . ومات أبوه وهو صغير فى ذى القعدة
سنة ٦١٢ هـ ؛ فربى فى حجر جده لأمه صاحب الأعز نحر الدين مقدم . ولما بلغ أشده درس القرآن
والحديث وتعلم الحساب بالاسكندرية ففهر فيه لفرط ذكائه ؛ فولاه الملك الكامل شاهدا لبيت المال وظل
فى وظيفته هذه حتى تولى عرش مصر الملك الصالح أيوب فولاه نظير الدواوين ، ثم تولى قضاء مصر
سنة ٦٥٤ هـ بعد عزل بدر الدين السنجارى . ولم يلبث أن عزل تاج الدين وأعيد بدر الدين إلى القضاء
وولى ابن بنت الأعز الوزارة فى ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ ، ثم عزله الملك المظفر قطز فى نفس هذه السنة ،
وظل بعيدا عن مناصب الدولة حتى أعاده الملك الظاهر بيبرس إلى القضاء فى عاشر جمادى الأول سنة ٦٥٩ هـ ،
وظل يتولى القضاء فى مصر إلى أن عاجلته منيته فى الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ٦٦٥ هـ . ابن حجر
العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٧٦ — ١٧٨

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ص ٨ — ١٢

طويل حتى عزل الملك الظاهر برهان الدين سنة ٦٦٠ هـ، وقلد تاج الدين القضاء بديار مصر كلها^(١).

وفي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) أدخل بيبرس تعديلا جوهريا على النظام القضائي بمصر؛ فبعد أن كان يتولى القضاء قاض واحد، عين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة^(٢). ويرجع السبب في ذلك إلى تعنت تاج الدين وتشدده في أحكامه؛ فقد حدث أن استشاره السلطان في قضية رفعت إليه بدار العدل من بيت الملك الناصر تتضمن أنهم ابتاعوا دارا من القاضي بدر الدين السنجاري، وأن ورثته ادّعوا بعد وفاته أنه موقوف. فأجاب القاضي بأنه إذا ثبتت الوقفية يستعاد الثمن من تركته البائع، فقال السلطان: فإن عجزوا عن الثمن؟ قال: يظل الوقف على أصله؛ فامتعض بيبرس منه. وفي هذه الأثناء قدم رسول صاحب المدينة المنورة وقال: يا مولانا السلطان! سألت هذا القاضي أن يسلم إلى المال الذي تحت يده من الوقف لأنفقته في فقراء المدينة فلم يفعل؛ فسأل السلطان القاضي عن ذلك، فقال القاضي: صدق هذا الرجل؛ أنا لا أعرفه ولا أسلم المال إلا لمن أعرفه... فإن سلمه السلطان أحضرته بين يديه. فقال السلطان: تخرجه من عنقك وتجعله في عنقي لا تسلم المال إلا لمن نختاره ونرضاه. ثم تقدّم بعض الأمراء وقال: شهدت عند القاضي فلم تسمع شهادتي في ثبوت الملك وصحته؛ فسأل السلطان القاضي عن ذلك؟ فقال: ما شهد أحد عندي حتى أثبته، فقال الأمير إذا لم تسمع قولي فمن تريد؟ قال السلطان: لم لم تسمع قوله؟ فقال: لا حاجة في ذكر ذلك. فقام الأمير جمال الدين أيدغدي وقال: نحن نترك مذهب الشافعي لك ويولى السلطان من كل مذهب قاض؛ فوافقه بيبرس على ذلك وأقر القاضي

(١) المقریزی: السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٦٥ و ٤٧٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة

ج ٢ ص ٩٩

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥؛ Stanley Lane-Poole, p. 274.

تاج الدين بن بنت الأعز في قضاء الشافعية، وولى الشيخ شرف الدين أبا حفص عمر بن عبدالله بن صالح السبكي قضاء المالكية، والقاضي بدر الدين بن سليمان قضاء الحنفية، والقاضي شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين ابراهيم القدسي قضاء الحنابلة، وكتب لكل منهم تقليدا وأجاز لهم أن يولوا نوابا عنهم بأنحاء الديار المصرية^(١)، وأضاف إلى اختصاصات القاضي تاج الدين النظر في ديوان الأحباس وأموال الأيتام والورثة. وعلى الرغم من أن سلطة هذا القاضي ضعفت بعض الشيء على أثر هذا النظام الجديد الذى وضعه الملك الظاهر، فإن بقية القضاة ظلوا يترددون عليه ويعظمونه ولا يتكلم أحد منهم في مجلس السلطان غيره.

وكان بمصر إلى جانب هؤلاء القضاة قاض آخر للعسكر يحضر بدار العدل مع القضاة الأربعة ويسافر مع السلطان أنى سافر. وكانت مرتبته في الجلوس بدار العدل بالقرب من السلطان دون مرتبة قضاة المذاهب^(٢).

٣ - الجيش والبحرية

تغيرت حال الجيش المصرى أيام المماليك وخاصة في عهد بيبرس عما كانت عليه في أيام الدولة الأيوبية. فقد اتخذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب جيشا من الأكراد ظل عدة الدولة الأيوبية حتى جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب^(٤) فافتنى عددا كبيرا من المماليك كان معظمهم من الأتراك^(٥). ويرجع السبب في ذلك إلى المنافسة التي قامت على الملك بينه وبين أخيه العادل الذى كان يرى أنه أولى منه بالملك، فقبض عليه العادل وحبس به بقلعة الكرك، فتفرق عنه جيشه الكردي، ولم يبق

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١١٥ - ١١٧؛ المقربرى : السلوك ج ١

القسم الثانى ص ٥٣٨ - ٥٤٠ (٢) ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٨١

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ (٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٧٠

(٥) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. (٥)

معه غير مماليكه وكانوا نحو الثمانين وطائفة من خواصه تبلغ العشرين ، وأقاموا بالكرك حتى أطلق سراحه . فلما تولى الملك بعد أخيه العادل رعى لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد ، فاستكثر من شرائهم^(١) ، وبني لهم قلعة بجيزة الروضة جهزها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية وغير ذلك من الأزواد والأقوات ، كما أنشأ بها جامعا وستين برجاً . وعندما تم بناؤها انتقل إليها بحريمه وأهله ، واتخذها داراً للملك وأسكن فيها مماليكه البحرية .

وقد ظلت قلعة الروضة عامرة بالممالك حتى زالت دولة بني أيوب وتولى المعز أيبك سلطنة مصر ، فأمر بهدمها ونقل جميع من بها إلى قلعة الجبل ؛ وظل الحال على ذلك حتى ولى الظاهر بيبرس عرش مصر ، فاهتم بعمارة قلعة الروضة وإعادتها إلى ما كانت عليه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولما تم بناؤها أسكن^(٢) الأمراء في أبراجها .

ولما ولى المنصور قلاوون سلطنة مصر (٦٨٧ - ٦٨٩ هـ) [١٢٨٠ - ١٢٩٠ م] ، نقل الممالك إلى قلعة الجبل . وما زال يعنى بشئونهم حتى إنه كان يتذوق طعامهم بنفسه في كل يوم . ولم يكن يسمح لهم بمغادرة القلعة ليلاً ولا نهاراً إلى أن ولى الأشرف خليل بن قلاوون السلطنة (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) [١٢٩٠ - ١٢٩٣ م] ، فسمح لهم بالخروج منها نهاراً ومنعهم من المبيت خارجها . ثم بنى الناصر محمد بن قلاوون فيما بعد الطباق بساحة الإيوان بقلعة الجبل وجعلها مقراً للمالك السلطانية ، وسمح لسائر الممالك بالخروج مرة في الأسبوع إلى الحمام ؛ فكانوا يتناوبون ذلك مع الخدم ثم يعودون إلى القلعة آخر النهار^(٣) .

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٣٦

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٨٣ - ١٨١ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢

ص ٢٠٠ - ٢٠٣

(٣) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢١٣

وقد وجه بيبرس عنايته إلى إعداد جيش قوى يكون عدته وقت الحروب؛ فأخذ يستكثر من شراء المماليك الذين يصلحون لهذه المهمة الخطيرة التي كانت تتطلبها البلاد في ذلك العصور هي محاربة أعدائه من الصليبيين والمغول، كما عني بتربيتهم تربية دينية وعسكرية بأن عين لكل طائفة منهم فقيها يعلمهم القرآن ومبادئ الدين والقراءة والكتابة حتى يصلوا إلى سن البلوغ، ثم يمتزنا بعد ذلك على الأعمال الحربية، فإذا ما أتموا تعليمهم ألحقوا بجيش السلطان^(١).

وكان هذا الجيش يتكوّن من المماليك السلطانية وجنود الحلقة. ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها: فالمماليك السلطانية هم أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرا وأقربهم إلى السلطان ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة. أما جنود الحلقة فكان لكل أربعين جنديا منهم رئيس لا حكم له إلا إذا خرجوا للقتال؛ فعليه ترتيبهم في مواقعهم وليس له أن يخرج أحدهم من الخدمة إلا بإذن السلطان أو نائبه^(٢).

وكان جنود هاتين الطبقتين يلبسون على رؤوسهم الكلوتات الصفراء بغير عمامة، كما كانوا يلبسون على أبدانهم أقبية بيضاء ضيقة الأكم من القطن البعلبيكي — وفي بعض الأحيان تكون حمراء أو زرقاء — ويشدون على أوساطهم بنودا من القطن^(٣).

أما عن الأسلحة التي كانوا يستعملونها في حروبهم فمنها السيف والرمح والقوس والنشاب. وهناك أدوات حربية استعان بها الملك الظاهر في حروبه ضد الصليبيين والتتار؛ نخص بالذكر منها المجانيق والدبابات ذوات العجل والزحافات والقطاطيع التي كان يهدم بها أسوار القلاع التي يستولى عليها^(٤).

(١) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ — ١٥

(٣) وهي أغطية للرأس تلبس وحدها أو بعمامة.

(٤) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٩٨

(٥) المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٥١٢ و ٥٢٥ — ٥٢٧

ولم تكن هناك مرتبات ثابتة لهؤلاء الأمراء والأجناد، بل آستعويض عن ذلك بأقطاعات كان يمنحها السلطان لهم . وكان المقطع منهم يحل في الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته ، ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليها أو بسبب وفاة المقطع .

على أن بيبرس كثيرا ما كان يكافئ أمراءه وجنوده الأوفياء بأن ينزل لورثتهم عن حقه في إقطاعاتهم . ولا أدل على ذلك مما فعله بعد وفاة الأمير شهاب الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية ببلاد الشام وعندما أسر الفرنجة الأمير شجاع الدين والى سرمين^(١) فإنه أعطى ابن الأؤل إقطاعه وأبقى إقطاع الثانى بين إخوته وغلمانه^(٢) .

ولم تكن هذه الإقطاعات هى الشئ الوحيد الذى كان يمنحه السلطان لأمرائه وأجناده ، بل كان لهم نصيب معين فى الغنائم ، كما كان لهم رواتب أخرى من اللحم والتوابل والعليق والزيت لا علاقة لها بالإقطاع ، فهى هبة من السلطان ، وكانت تصرف فى بعض الأحيان لمن لا إقطاع له من أولاد الأمراء^(٣) .

البحرية — لم تقف مجهودات بيبرس الحربية عند حد اهتمامه بتكوين هذا الجيش ، بل رأى على أثر استقرار ملكه بمصر أنه فى حاجة ماسة الى انشاء أسطول قوى يستعين به فى صد أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر ، فعمل على إعداد قوة بحرية . وقد لاقى فى ذلك متاعب كثيرة يرجع معظمها الى كراهية أفراد رعيته للحروب البحرية . وكانوا قبل ذلك يرغمون على الاشتغال فى الأسطول اذا دعت الضرورة الى تجهيزه . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أصبحت خدمة الأسطول فى عهد الدولة الأيوبية وفى أوائل عهد المماليك عارا يسب به الرجل ، فاذا

(١) بلدة من أعمال حلب . ياقوت : معجم البلدان .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٠٩ .

(٣) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢١٦ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٠ — ٥١ .

قيل لرجل يا أسطولى غضب غضبا شديدا . وقد ظل الحال على ذلك حتى تولى بيبرس عرش مصر فاهتم باعادة شأن الأسطول الى ما كان عليه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ومنع الناس من أن يتصرفوا في أخشاب السفن ، كما أمر باعداد الشوانى في ثغرى الاسكندرية ودمياط ، وصار ينزل بنفسه الى دار الصناعة بمصر ويشرف على تجهيزها . وقد تسنى له بذلك أن يعد أسطولا مكونا من أربعين قطعة حربية سيره الى جزيرة قبرس سنة ٦٦٩ هـ ؛ غير أنه لم يلبث أن تحطم بالقرب منها^(٢) . ولما علم بذلك بيبرس شرع فى إنشاء أسطول آخر وظل يتردد على دار الصناعة بمصر حتى تم إعداده^(٣) .

وهكذا نجح بيبرس فى العمل على إعادة شأن الأسطول الى ما كان عليه فى عهد الدولة الأيوبية . وجاء سلاطين المماليك من بعده واقتدوا به فى عنايته ببناء المراكب الحربية ؛ فاهتم الأشرف خليل بن قلاوون على أثر اعتقاله سلطنة مصر (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) [١٢٩٠ - ١٢٩٣ م] بإنشاء أسطول قوى . ولما اكملت عدته الستين مركبا أمر بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال ، وسار الى « دار الصناعة » بجزيرة الروضة لاستعراض الأسطول ، وأقام لذلك احتفالا كبيرا أقبل اليه الناس من كل حذب وصوب ، وازدحمت الطرق والميادين بالأهالى الذين خرجوا من بيوتهم لمشاهدة هذا الاحتفال . ولما أقبل السلطان خرجت الشوانى والحراريق^(٤) ^(٥)

(١) لعل هذه الكراهية وهذا التعبير بكلمة أسطولى انما أتى الى المصريين والمماليك من جهة أن الجيوش الصليبية التى حملت على مصر والبلاد الاسلامية كانت تأتى فى أساطيل غالبا . فاذا قالوا للرجل يا اسطولى فكأنهم قالوا له أنت مثل هذا الرجل الذى أتى فى الأساطيل . (٢) المقريزى : خطط

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٩٥

ج ٢ ص ١٩٤

(٤) الشوانى : جمع شونى أو شينى . وهى أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول وأعظمها شأنا وهى مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم . وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات تقف فى الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقوس والسهم ، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاذيف . (٥) الحراريق : جمع حراقة ، وهى مركب حربية كبيرة كانوا يحملون فيها البارود والنפט ؛ ولهذا كانت تسمى حراقة نطف أو حراقة بارود .

والطرائد^(١) واحدة بعد أخرى . وعلى كل من الشوانى برج وقلعة؛ وتبارى الجند "وما منهم إلا من أظهر عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه"، ثم رجع^(٢) السلطان في عسكره الى القلعة، وأقام الناس بقية يومهم وليلتهم في لهو ومرح .

ومن هنا نتبين مقدار ما وصلت اليه مصر في ذلك العصر من التقدم في ميدان الصناعة الحربية والبحرية، ومبلغ اهتمام سلاطين المماليك بأمر الأساطيل الحربية، حتى ظهرت مصر بالمظهر اللائق بها بين الدول البحرية وخشى بأسها الأمم المجاورة لها، ولا سيما بقايا الصليبيين ببلاد الشام الذين بعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون صلحها .

٤ - الحضارة المادية

عمل بيبرس على تنمية موارد الثروة في مصر، فعنى بترقية الزراعة والصناعة والتجارة فعم الرخاء وامتلاّت خزائنه بالمال . وقد تيسر له بذلك أن يعدّ جيشا قويا يصدّ به غارات الصليبيين والمغول التي تطلبت منه أموالا كثيرة، كما استطاع بفضل هذه الثروة أن يقوم بكثير من الإصلاحات في أنحاء الديار المصرية، وخاصة بقلعة الجبل والقاهرة التي ظهرت في عهده بمظهر القوة وفاقته غيرها من مدن العالم الاسلامى في العظمة وال عمران؛ فكانت دورها محكمة البناء وأسواقها ملاءى بالطرف النفيسة والأهالى يرتعون في بحبوحة من العيش .

(١) الزراعة — وكان للزراعة المحل الأول من رعاية بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك، فأقاموا مقاييس النيل وأنشأوا الجسور في كافة أرجاء البلاد . وكانت هذه الجسور على نوعين : الجسور السلطانية وهي الجسور التي يعود نفعها على البلاد عامة؛ ويتولى صيانتها أمراء الولايات فيصرفون عليها مما يجبونه من مال الخراج، وما بقى منه يرسلونه إلى خزانة بيت المال . أما النوع الثانى فهو الجسور

(١) الطرائد هي سفن خاصة بحمل الخيول؛ وكانت تسع نحو أربعين فرسا، وربما وصلت الى ثمانين فرسا .

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥

البلدية ؛ وهى الجسور التى تعود منفعتها على ناحية من النواحي، ويتولى صيانتها المقطعون والفلاحون وينفق عليها من مال الناحية التابع لها الجسر^(١).

وقد وجه بيبرس عنايته إلى كرى الترع وتطهير الخلجان؛ كما اهتم بإنشاء القناطر، فبنى قنطرة على بحر أبى المنجا بناحية يسوس بمديرية القليوبية، كما بنى قنطرة على ترعة شبرامنت بالجيزة^(٢)؛ فتمت بذلك ثروة البلاد وازدادت محصولاتها^(٣).

وكان يزرع بأرض مصر القمح، وتكثر زراعتة ببلاد الصعيد، وتتراوح غلة الفدان الواحد من أردبين إلى عشرين، كما كان يزرع بها أيضا الشعير والفلول والحمص وكذلك الكتان — وكان من أهم مزروعات مصر فى عصر المماليك — ويزرع القرط (وهو غذاء الدواب) إذا ما أخذ النيل فى النقصان؛ وكان يتراوح محصول الفدان الواحد بين أردبين وأربع وبيات. كذلك اشتهرت مصر فى ذلك العصر بزراعة قصب السكر والقطن، كما كثر بها زراعة الخضروات كالباذنجان والمقاتى (الخيار والقثاء) والفجل واللفت والخس والكرنب والفواكه : كالعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والقراصية والبرقوق والتفاح والكمثرى والنبق والتوت والموز والزهور : كالورد والبنفسج والترجس والياسمين واللينوفر والريحان الفارسى على اختلاف أنواعه^(٤).

وكان بالقاهرة وضواحيها كثير من البساتين نخص بالذكور منها بساتين اللوق التى عنى بيبرس بغرسها سنة ٦٦٢ هـ، وبستان ابن ثعلب بالقرب من ميدان السلطان الصالح أيوب، وبستان البورجى بالقرب من المقس. وكان يزرع بهذه البساتين جميع أنواع الفاكهة والأزهار^(٥).

- (١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ (٢) يرجع تاريخ إنشاء هذه التركة إلى أيام الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥٠٦ هـ. وقد أشرف على حفرها أبو المنجا اليهودى فعرفت باسمه. المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ (٣) قرية صغيرة تقع على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط واسمها الحالى باسوس. على مبارك باشا : الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٢٥
- (٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٦٣٨ — ٦٣٩
- (٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١١ — ٣١٣ و ٤٥٣ — ٤٥٤
- (٦) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨

(ب) الصناعة — كذلك كان للصناعة النصيب الأوفر من عناية

بيبرس وخاصة ما كان متصلا منها بالحرب وأدواتها ؛ فإن الدولة المصرية في ذلك الحين كانت في حاجة إلى جيش قوى يحمى حدود امبراطوريتها الواسعة . وكان لابد من تموين هذا الجيش بالملابس والآلات الحربية .

وقد فطن بيبرس لذلك فوجه اهتمامه إلى ترقية مراكز صناعة المنسوجات ؛ تخص بالذكر منها مدينتى تنيس ودمياط التى برز سكانهما في عمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال ، كما اشتهرتا بحياكة الثياب المصنوعة من الكتان^(١) .

وكان يصنع بتنيس قصب ملون نتخذ منه العمام . أما دمياط فقد برز أهلها في صناعة القصب الأبيض ، وهو عبارة عن قماش من تيل رقيق . وكان يصنع بها أيضا نوع من القماش يسمى البوقلمون ذو ألوان براقة تتلاشى إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ، ويتغير لونه باختلاف ساعات النهار^(٢) . كذلك اشتهرت القيس والبهنسا بصنع المنسوجات الصوفية^(٣) . ومن هذه المراكز الصناعية كان السلطان يمد أفراد جيشه بالملابس ويخلع على أمراء دولته وأفراد حاشيته بما يناسب رتبهم .

أما الآلات الحربية وجميع لوازم التعبئة فكان لها أسواق بالقاهرة . وكثيرا ما كانت تزدهم هذه الأسواق بالأمراء والجنود . ويرتفع سعر الحديد وأجرا الحدادين وصناع آلات السلاح في الوقت الذى يشن فيه بيبرس الغارة على أعدائه ببلاد الشام ، وذلك لكثرة إقبال الناس على شراء آلات الحرب^(٤) .

وقد حافظت مصر على بعض الصناعات التى اشتهرت بها من عهد بعيد . ومن هذه الصناعات صناعة الفرش والبسط التى مهـر في صناعتها أهل دمياط

(١) القلقشندي : ج ٣ ص ٣٨٧ — ٣٨٨ (٢) الهوارى : رسالة في وصف

محتويات دار الآثار العربية ص ٩٠ (٣) المقریزی : خطط ج ١ ص ٢٠٤

(٤) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٢ و ٦٢٦

وكذلك صناعة السكر من القصب الذي كان يزرع ببعض جهات الوجه القبلي مثل ملوى وسمهود وقفت. وكانت هذه الصناعة في عصر بيبرس على ما يظهر لنا ناشئة؛ وقد بلغت أوجها في عهد الناصر محمد بن قلاوون. يتحدثنا المقرئ^(١) أنه كان بسمهود سبعة عشر حجرا لعصير القصب، كما كان بملوى عدة أحجار. وكان يسكن بهذه المدينة في عهد الناصر أسرة من أصحاب الأراضى تدعى أسرة أولاد فضل بلغت مساحة الأرض التي زرعوها قصب سكر ألفا وخمسمائة فدان في العام. وقد أودع أصحاب هذه الأراضى في مخازنهم اثنين وثلاثين ألف قنطار من محصول سنة ٧٣٨ هـ.

وكان الزجاج أيضا يصنع بمصر في عصر بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك. ولا أدل على ذلك من هذه المشكاوات^(٢) الزجاجية المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة، ومن بينها مشكاة من زجاج غير ملون على عنقها زخارف. وعلى البدن كتابة حمراء نصها: "مما عمل برسم التربة المباركة السلطانية الملكية الأشرفية الصلاحية تغمد الله صاحبها بالرحمة والرضوان". ويؤخذ من هذه الألقاب أنها عملت برسم تربة السلطان خليل بن قلاوون الذي قتل سنة ٦٩٣ هـ. وكذلك بالدار مشكاة أخرى على رقبتها آية قرآنية، وعلى بدنها اسم السلطان الناصر محمد ابن قلاوون، ومن بين زخارفها كثير من الطيور المتقنة الرسم^(٣).

وهناك صناعة أخرى عني بها المصريون منذ عهد بعيد وظلت مستمرة في مصر في عصر المماليك وهي صناعة المعادن؛ فقد اتخذوا من الذهب الثريات والنوافذ لبيوت سلاطينهم. وليس أدل على ذلك من قاعة «اليسرية» التي بناها

(١) المقرئ: خطط ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤

(٢) المشكاوات: جمع مشكاة وهي المصباح. وقد ورد في القرآن "الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح". [سورة النور]

(٣) الهوارى: رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية ص ١٠٣ — ١٠٦

السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في قصره سنة ٧٦١ هـ . فقد ذكر المقرئى^(١) أنه كان بها تسع وأربعون ثريا . وكان جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة ٢٢٠,٠٠٠ درهم كلها مطلية بالذهب . وكان ارتفاع بناء هذه القاعة ٨٨ ذراعا . وعليها برج مطعم بالعاج والأبنوس ؛ وبها شبابيك من الذهب الخالص . وكان بتلك القاعة قبة مصنوعة من الذهب وزن ٣٨,٠٠٠ مثقال . وقد أنفق على صنع هذه القاعة مليون درهم من الفضة وهذا يعادل ٥٠٠٠٠ دينار من الذهب .

وقد مهر الصناع المصريون فوق ذلك في صناعة الآنية . يتبين ذلك من هذه الهدية التي أرسلها بيبرس الى بركة خان سلطان مغول القفجاق والتي كانت تشمل على كثير من الأواني الصينية^(٢) .

كذلك اهتم الممالك بصناعة الأدوية . وان في مارستان قلاوون الذي يعرف الآن بمستشفى قلاوون لمثلا حيا لارتقاء هذه الصناعة في هذا العصر . فقد بنى قلاوون سنة ٦٨٣ هـ بناء فخما يحتوى على مارستان وقبة ومدرسة ؛ وأعدّ به غرفا متسعة فرشها بالأسرة للرضى من الفقراء والأغنياء على السواء ، وجعل بها قسما خاصا بالنساء ، كما خصص الايوانات الأربعة للرضى بالحمل ، وأفرد قاعة للصباين بالرمد وقاعة للجرحى وقاعة للصباين بالدوستاريا ، كما أنشأ به معملا كيميائيا أعدّه بكافة أنواع الآلات والأجهزة الطبية^(٣) .

ومن الصناعات التي أولاها بيبرس عنايته صناعة السفن . فقد أنشأ دورا لصناعتها بجزيرة الروضة وبثغرى الاسكندرية ودمياط^(٤) . وكان يذهب بنفسه

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢١١ — ٢١٢

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٢

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.41

(٤) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ و ١٩٧

الى دار الصناعة بالجزيرة ويتفقد أمورها، كما كان يباشر إعداد المراكب الحربية قبل مسيرها لغزو البلاد الأجنبية .

(ج) التجارة — ولم تقتصر مصر على ما كانت تنتجه أرضها الخصبية من المحصولات وما كان يقوم به أهلها من الصناعات ، بل استفادت من موقعها الجغرافى ، فتبادلت التجارة مع غيرها من الدول فى عهد بيبرس الذى عنى منذ توليته عرش مصر بنشر التجارة المصرية ، وعقد لذلك المعاهدات التجارية مع شارل صاحب أنجو (Anjou) وألفونس (Alfonso) أمير اشبيلية وجيمس ملك أرجونة^(١) . غير أن هذا الأخير لم يلبث أن قطع علاقته التجارية مع مصر بأن أصدر أوامره سنة ١٢٧٤ م بمنع تصدير المعادن وأدوات بناء السفن إليها . ويرجع السبب فى ذلك إلى القرار الذى أصدره البابا جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦ م) لأهالى مونتيلييه (Montpellier) بمنع التجارة مع المسلمين^(٢) .

ولما ولى قلاوون سلطنة مصر حافظ على العلاقات الودية ، التى أحكم أوامرها بيبرس مع سلطان مغول القفجاق وأمبراطور القسطنطينية ، كما أبرم معاهدة دفاعية بينه وبين ألفونس صاحب قشتالة وجيمس ملك صقلية . كذلك وفدت عليه الوفود من اليمن تحمل الهدايا من الخصيان والفيلة وأنواع الببغاء^(٣) . وكان لذلك أثره فى استمرار تبادل التجارة بين مصر وهذه الدول .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل عقد قلاوون معاهدة تجارية مع جنوة ، كما أرسل إليه حاكم جزيرة سيلان سفارة سنة ١٢٨٣ م ، ومعها كتاب تعذر على رجال

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p.266

(٢) W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age

pp. 422. 423.

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt

pp. 37-38.

حاشيته قراءته^(١) . وقد دعاه هذا الحاكم إلى تبادل التجارة مع جزيرته الغنية، وذكر له في كتابه ما يمتلكه من السفن وما تنتجه جزيرته من المحصولات وما يصنع بها من المنسوجات وما يستخرج منها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة ، كما بين له أن المصريين سيجدون في جزيرة سيلان حاجتهم مما كان يستورد من بلاد الهند، وأخيرا طلب من السلطان أن يعين مندوبا له بعدن^(٢) . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى رغبة هذا الحاكم في تسهيل المبادلات التجارية بين البلدين .

وقد لقيت هذه الرغبة قبولا لدى قلاوون، لأنه كان ينبغي من وراء ذلك تشجيع التجارة مع الشرق . وكان كبيرس رجلا إداريا بعيد النظر، فبذل جهدا كبيرا لجذب التجار إلى مصر، كما أنشأ جوازات للتجار تكفل لهم الطمأنينة على أنفسهم وأموالهم في أسفارهم بين مصر والشام والهند وغيرها من البلدان^(٣) .

وهكذا زادت تجارة مصر الخارجية في ذلك العصر بفضل المحالفات والمعاهدات التجارية التي عقدها كل من بيبرس وقلاوون مع الدول الأوروبية والشرقية، وأيضا بسبب اتصال أوربا بالشرق على أثر قيام الحروب الصليبية . فقد كان الأيوبيون ومن بعدهم من المماليك أصحاب النفوذ المطلق في سورية، فوقعوا في قبضتهم جميع الموانئ وطرق القوافل بين أوربا وبلاد الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى .

وكانت التجارة ترد إلى مصر من أوربا عن طريق الاسكندرية ودمياط، ومن الهند والشرق الأقصى عن طريق الخليج الفارسي نخليج عدن فالبحر الأحمر حتى عيذاب، ومنها تحمل على ظهور الإبل إلى قوص، ثم تنتقل في النيل إلى فندق الكارم بالفسطاط^(٤) .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 281

(٢) W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age p. 426

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 281.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨

وكان من أثر هذه السياسة التي اتبعها بيبرس لتسهيل سبل التجارة المصرية أن نشطت أيضا حركة التجارة الداخلية بمصر، فأصبحت أسواق القاهرة تمتلئ بكمال التجار، كما كانت الحوانيت تضيق بالباعاء في بعض الأحيان .

ومن أهم الأسواق التجارية التي كانت بالقاهرة في ذلك العصر سوق الفرائين ويباع به الفراء على اختلاف أنواعه، وسوق الجمالون الصغير وبه كثير من حوانيت البزازين الذين يبيعون الأقمشة القطنية والكتانية، وسوق أمير الجيوش^(١) وكانت من أهم أسواق القاهرة وتشتمل على عدة حوانيت للرفائين والرسامين، وسوق الشرابشين^(٢) وكان يباع به الخلع التي كان يمنحها السلطان للأمرء والوزراء والقضاة وغيرهم من كبار رجال الدولة، وسوق الحلويين وكان من أبهج الأسواق وتباع به الحلوى المصنوعة من السكر، وكانوا في ذلك العصر يتفنونون في صنعها على عدة أشكال (وهي تشبه ما يصنع الآن في معامل الحلوى في المواسم والأعياد والموالد) . وإلى جانب هذه الأسواق كان بالقاهرة أسواق أخرى تليها في الأهمية ويبيع بها الطرف والأمتعة والمأكولات .

(د) موارد الدولة المالية — ولقد سار بيبرس على سياسة تحقيق التوازن بين موارد دولته ومصارفها، فعين القاضي كمال الدين طاهر وكيلًا لبيت المال^(٤) وكلفه بالعمل على صيانتها والتصرف فيه لصالح الدولة المصرية .

(١) كان سوق الفرائين يقع بالقرب من الجامع الأزهر . أما سوق الجمالون الصغير فكان بالقرب من باب النصر؛ وتقع سوق أمير الجيوش بين حارة برجوان وحارة بهاء الدين بن حنا .
(٢) سمي بذلك نسبة إلى الشرابيش التي كانت تباع به وهي أغذية للرأس مثلثة الشكل تلبس من غير عمامة .

(٣) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٩٨ — ١٠١ و ١٠٣

(٤) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٣٧٨

وكانت المصادر الرئيسية لموارد الدولة في عهد الملك الظاهر تتحصر فيما يأتي^(١) :

(١) الخراج — وكان يجبي على حسب غلة الأراضى . فكان أكثر خراج الوجه القبلى عينا ويتراوح ما يؤخذ من كل فدان يزرع قمحا أو شعيرا أو حمصا أو فولاً ما بين أردبين إلى ثلاثة ، وفي بعض الأحيان يؤخذ مع كل أردب درهم أو درهمان . أما الوجه البحرى فأغلب خراج أرضه نقدا . وكانت الضريبة تزيد وتنقص حسب إنتاج الأرض .

(٢) الزكاة — وكانت تؤخذ على الأغنام التى كثيرا ما كان يملكها قبائل عربية وتركمانية ، كما تؤخذ من أصحاب الأموال والتجار عن كل مائة درهم خمسة دراهم .

(٣) الجزية — وكان يدفعها أهل الذمة الذين يقيمون فى القاهرة ، وتراوح بين عشرة دراهم وخمسة وعشرون درهما عن كل شخص . وأما من كان يقطن منهم فى خارجها فيأخذ المقطع الجزية المفروضة عليهم .

(٤) ما يفرض على التجار الأجانب القادمين إلى مصر وكان يؤخذ منهم العشر على بضائعهم .

(٥) ما يحصل من الرسوم الجمركية على التجارة الخارجية التى تمر فى ثغور عيذاب والاسكندرية ودمياط . ويجانب ذلك كان هناك ضرائب أخرى تفرض على التجارة التى ترسو بها السفن على سواحل مصر فى طريقها إلى بلاد الشام .

(٦) المعادن التى تستخرج من المناجم المصرية — وأهمها معدن الزمرد ويوجد بكثرة بالقرب من قوص — وكذلك معدن الشب بالواحات والنطرون . وكان يتولى استخراج هذه المعادن مباشرين وأمناء من قبل السلطان ، وعليهم جمع ما يستخرج منها وحمله إلى الخزائن السلطانية .

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٢ — ٤٦٣

(٧) التركات التي لا وارث لها . وكان يتولى الاشراف عليها في حاضرة الديار المصرية ناظر من قبل السلطان ومهمته جمع إيرادها وإرساله إلى بيت المال . وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية فلها مباشرين يقومون بإرسال ما يتحصل منها إلى ديوان السلطان .

٥ - منشآت بيبرس

اتخذ بيبرس قلعة الجبل^(١) مقرا لحكمه وسار على سياسة من سبقة من سلاطين مصر في تجميل مدينة القاهرة وضواحيها ، فأسس بها مدرسة زودها بالكتب التي تبحث في سائر العلوم . وقد شرع في بنائها سنة ٦٦٠ هـ بنحط بين القصرين بالقاهرة على أنقاض قاعة الخيم^(٢) . ووقف عليها أوقافا ، وأمر بالأستخدام في عمارتها عامل بغير أجرة وألا ينقص مرتب من يقوم بتشيدتها .

ولما فرغ من بنائها سنة ٦٦٢ هـ دعا العلماء والفقهاء والقراء للاجتماع بها ، فجلس أتباع المذهب الشافعي بالايوان القبلي والحنفية بالايوان البحري وأهل الحديث بالايوان الشرقي والقراء بالايوان الغربي . وعين لكل فريق من هؤلاء مدرّسا . وعند ما اكتمل جمعهم تناظروا في شتى المسائل ثم مدت لهم الأسمطة . وقام بعض الشعراء فأنشدوا شعرا أشادوا فيه بذكر هذه المدرسة ومؤسسها الملك الظاهر . ولما أرفض مجلسهم منحهم السلطان الخلع .

ولم يكتف بيبرس بإنشاء هذه المدرسة ، بل بنى بجوارها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، وقرر لمن فيه الخبز في كل يوم والكسوة في فصلي الشتاء

(١) تقع بين ظاهر القاهرة وجبل المقطم والفسطاط . وقد عهد ببنائها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى بهاء الدين قراقوش لتكون مركزا للحكومة وقلعة للجند . وتمت عمارتها في عهد الملك الكامل بن العادل أبي بكر بن أيوب سنة ٦٠٤ هـ ، فانتقل من قصر الفاطميين إليها . وظلت منذ ذلك الحين مقرا لسلاطين الأيوبيين والمماليك . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٢

(٢) وهي إحدى قاعات القصر الفاطمي الكبير الذي بناه جوهر للعز لدين الله الفاطمي .

والصيف^(١)؛ ثم شرع في سنة ٦٦٥ هـ في بناء الجامع الظاهري، فأرسل الأتابك فارس الدين أقطاي والصاحب نحر الدين بن حنا ومعهما بعض المهندسين للبحث عن مكان يليق لأن^(٢) يقام عليه مسجد بجهة الحسينية؛ فوقع اختيارهم على مناخ الجمال السلطانية، فلم يلق هذا الاختيار قبولا لدى الملك الظاهر وقال: "لا والله لا جعلت الجامع مكان الجمال، وأولى ما جعلته ميداني الذي ألعب فيه بالكرة وهو نزهي". ثم ركب إلى ميدان قراقوش وقتر رأيه على أن يبني الجامع على جزء منه وأن يوقف بقيته عليه، ثم شرع في استحضرار الرخام والأخشاب وأدوات البناء من سائر الولايات.

ولما فرغ من إعداد معدّات البناء توجه إلى المدرسة الظاهرية وجلس بين الفقهاء والقراء وقال: "هذا مكان جعلته لله عز وجل وخرجت عنه وقفاً لله. فإذا مت لا تدفنوني (كذا في الأصل) هنا، ولا تغيروا معالم هذا المكان، فقد خرجت عنه لله تعالى".

ولم تقف عناية بيبرس ببناء هذا الجامع عند هذا الحد؛ بل إنه عندما استولى على يافا وهدم قلعتها، شحن مركبا من رخامها وأخشابها إلى القاهرة، وأمر بأن يبني من هذا الخشب مقصورة الجامع الظاهري. ولما انتهت عمارته سار إليه سنة ٦٦٧ هـ، وعين له خطيبا حنفى المذهب، وخلع الخلع على من تولى الإشراف على بنائه. وكان من بينهم الصاحب بهاء الدين بن حنا والأمير علم الدين سنجر والى القاهرة^(٣).

كذلك اهتم بيبرس بإعادة الجامع الأزهر إلى ما كان عليه في عهد الفاطميين. وكانت صلاة الجمعة قد أبطلت منه منذ تولى قضاء مصر صدر الدين عبد الملك

(١) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣

القسم الثاني ص ١٩٠.

(٢) هو المكان المخصص لأنواع الجمال السلطانية كالاصطبلات لأصناف الخيل.

(٣) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٠.

ابن درباس في عهد السلطان صلاح الدين^(١). وقد ظل الأزهر معطلا من الخطبة إلى أن سكن بجواره الأمير عز الدين أيذر الحلبي^(٢)، فراحه ما آل إليه هذا الجامع وتحدث مع الملك الظاهر في مسألة إصلاحه، فأمدّه ببعض الأموال للانفاق عليه. وتبرع الحلبي أيضا بأموال كثيرة لهذا الغرض، واستطاع بذلك أن يعمر الواهي من أركانه وسقوفه وجدرانه وأستجدّ به مقصورة ومنبرا.

وعند ما فرغ من ترميمه تناقش الناس في هل تصح إقامة صلاة الجمعة به أم لا؛ فأجاز ذلك جماعة من الفقهاء، وعارض قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز في إقامة الصلاة به. فشكا الحلبي ذلك إلى السلطان، فتحدث الأخير مع قاضي القضاة في هذه المسألة فصمم على المنع. فما كان من الحلبي إلا أن عمل بفتوى من أجاز إقامة الصلاة به، وطلب من السلطان أن يحضر، فامتنع عن الحضور ما لم يحضر قاضي القضاة^(٣).

وعلى الرغم من ذلك أقيمت به صلاة الجمعة في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ، وأدخلت عليه تعديلات أخرى، فأنشأ به الأمير بدر الدين بيليك الخازندار مقصورة كبيرة عين بها مدرّسا وجماعة من الفقهاء الشافعية ومحدثا يتلو الحديث النبوي وسبعة قراء لقراءة القرآن الكريم ووقف عليه أوقافا^(٤).

ولم يكن هذا كل ما قام به بيبرس من ضروب الإصلاح؛ فقد بنى برجا بقلعة الجبل، وشيد قناطر السباع^(٥) على الخليج المصري، وأصلح ما تهدم من كل من منارتى رشيد والأسكندرية، وجدّد سور الأخيرة، وردم فم بحر دمياط حتى لا يتمكن الفرنجة

(١) ذكر المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦؛ أن الخطبة كانت تقام في جامع الأزهر والحاكم قبل أن يقلد صلاح الدين قضاء مصر لعبد الملك بن درباس وأن هذا القاضي لما تولى القضاء عمل بمقتضى مذهب الامام الشافعى وهو منع إقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقرها بالجامع الحاكمى لاتساعه. (٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٦ - ٥٥٧

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١٣٤

(٤) عرفت بذلك لأن بيبرس نصب عليها سبعا من الحجارة. المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٤٦

من العبور إذا ما أرادوا الإغارة عليها من طريق البحر، واختط قرية بمديرية الشرقية قرب العباسية سماها الظاهرية .

ولم تكن عناية بيبرس بالفنون مقصورة على القاهرة وحدها ، بل تعدتها إلى المدينة المنورة وأمّهات مدن الشام . فقام بعدة إصلاحات بالحرم النبوي ومارستان المدينة وقبة الصخرة ببيت المقدس ، وجدّد مسجد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، وشيد القصر الأبلق بدمشق على قواعد ثابتة ودعم أركانه فظل عامرا حتى هدمه ^(١) تيمورلنك سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م) .

أما عن فن العمارة في عصر بيبرس فإنه لم يتخذ طابعا خاصا كما لم يستقر على قواعد ثابتة . فقد أسس الملك الظاهر مدرسته على نمط المدارس التي بنيت في عهد الدولة الأيوبية ، وكانت عبارة عن بناء مبني على سمت القبلة وفي وسطه صحن كبير مربع ، وفي كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان مقبب وبها محراب . ومن ثم كانت المدرسة لا تخرج عن كونها مسجدا .

ولما شرع بيبرس في إنشاء الجامع الظاهري استعمل في بنائه لأول مرة ^(٢) مداميك الحجر الأبيض والأحمر على التوالي ، كما زينه بزخارف متخذة من الجص . وقد ظلت هذه الزخارف ملحوظة في طرز واجهات أبنية قلاوون الذي ابتداء ^(٣) يدخل في أيامه على فن المعارشء من المحسنات الأجنبية ؛ غير أن ابنه الناصر عند ما تولى سلطنة مصر شرع في تطهير صناعة الأبنية العربية مما دخل عليها . وقد سار على منواله أهل بيته وغيرهم من رجالات دولته . وكان لذلك أثره ^(٤) في ارتقاء فن العمارة في مصر .

(١) المقرئزي : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٥٦١ و ٥٦٣ — ٥٦٤
و ٦١٦ ؛ العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ورقة ٦٢٠ — ٦٢١ (٢) أى طبقات من
الحجر الأبيض والأحمر المتلاصقة بالملاط (المونة) .

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.41.

(٤) مكس هرتس بك : لمعة في تاريخ فن المعارشء والفنون الصناعية المصرية ص ٣٦ — ٣٧

(تعريب على بك بهجت) .

٦ - الحياة العلمية والأدبية

وجه بيبرس عنايته إلى نشر العلوم الإسلامية، فشيّد لذلك المدارس وزوّدها بخبرة العلماء والفقهاء، وأعاد الجامع الأزهر إلى ما كان عليه في عهد الفاطميين، فصار الطلاب يهرعون إليه من كل أرجاء العالم الإسلامي، فاستعادت بذلك القاهرة مكانتها العلمية والأدبية، ونبع بها بعض الكتاب والمؤلفين ومن مشاهيرهم: محي الدين بن عبد الظاهر وابن خلكان وجمال الدين بن واصل.

ويمتاز ابن عبد الظاهر^(١) بأنه نشأ بالقاهرة وتلقى بها علومه، وبرع في نظم الشعر وكتابة الرسائل والتاريخ. ومن مؤلفاته كتاب "السيرة الظاهرية" ويشتمل على تاريخ الملك الظاهر بيبرس. وهو من المراجع الهامة التي يعتمد عليها في استقصاء تاريخ هذا السلطان. وقد نقل عنه كل من النويري في كتابه نهاية الأرب ومفضل ابن أبي الفضائل في كتابه "النهج السديد".

أما ابن خلكان^(٢) فقد نشأ بمدينة إربل ثم انتقل إلى القاهرة سنة ٦٣٦ هـ بعد ما تلقى علومه في حلب ودمشق. ومن مؤلفاته كتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء

(١) ولد محي الدين بالقاهرة في ٩ من المحرم سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ومات بها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م). ولما تولى بيبرس عرش مصر عينه كاتباً لسره بديوان الإنشاء وعهد إليه بأداء بعض المهام، فتولى قراءة نسب الخليفة العباسي سنة ٦٦١ هـ. وكتب تفويض عهد السلطنة لولي عهده الملك السعيد في سنة ٦٦٢ هـ، كما كلفه بالذهاب إلى عكا سنة ٦٦٦ هـ ليحلف أميرها على طاعة السلطان. وظل في منصبه طوال عهد بيبرس وولديه والمنصور قلاوون والأشرف خليل. Enc. Isl. art. Ibn abd al-Zahir.

(٢) ولد ابن خلكان سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) بمدينة إربل من أعمال الموصل ويتنسب إلى أسرة يحيى بن خالد البرمكي. وقد بدأ دراسته سنة ٦٢٦ هـ تحت إشراف ابن شدّاد في حلب ثم انتقل منها إلى دمشق وأقام بها مدة. ولم يلبث أن قدم إلى القاهرة سنة ٦٣٦ هـ، فعين بها نائباً لقاضي القضاة يوسف ابن حسن السنجاري. ولما تولى بيبرس عرش مصر عينه سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) قاضياً للقضاة بدمشق، ثم عزل سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) فاشتغل بالتدريس بالمدرسة الفخرية التي أسسها الأمير نحر الدين استادار الملك الكامل سنة ٦٢٢ هـ، وقضى بها سبع سنوات عاد بعدها إلى منصبه الأول بدمشق ثم عزل منه سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨٢ م). وتوفي في السنة التالية ٦٨١ هـ Nicholson, a Literary

الزمان“، وهو يحتوى على معلومات قيمة في التاريخ والأدب، ويمتاز بضبط الأعلام وأسماء البقاع والبلدان وتحقيق الحوادث وترتيب التراجم على حسب حروف المعجم.

ولم يكتب لنا ابن خلكان شيئاً عن بيبرس على الرغم من أنه عاصره وتوفي بعده بخمس سنوات، بخاء ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات فاستدرك ما فات ابن خلكان وكتب عن الظاهر بيبرس.

كذلك نشأ جمال الدين بن واصل^(١) من منبت أجنبي عن مصر. فقد ولد بجماه وبها تعلم وتأدب، ثم قدم إلى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ. ومن تأليفه “كتاب نخبة الفكر في المنطق” و “مفرج الكرب في أخبار بني أيوب”. وقد وقف ابن واصل عن تأليف هذا الكتاب الأخير أثناء سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م). ويرجع السبب في ذلك إلى ذهابه إلى صقلية حوالى ذلك الوقت وإقامته هناك عدة سنين. أما بقيته التي تنتهى بسنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) فهي من تلخيص الكاتب الذى استملاه لكتاب آخر اسمه التاريخ. ويظهر لنا ذلك من هذه العبارة التى وردت في كتاب “مفرج الكرب” (ج ٢ ص ١٤٢٥) ونصها: “قال الفقير إلى رحمة الله تعالى وعفوه نور الدين على بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب المظفرى انتهى إلى هاهنا إملأ القاضى الإمام العلامة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل رحمه الله تعالى، ولم نستوعب حوادث سنة إحدى وستين وستمائة، وجرت أمور كثيرة ونحن نذكر بعون الله تعالى مختصراً من تمام التاريخ على حسب الطاقة ونسأل الله تعالى المعونة في ذلك إنه على كل شيء قدير وإليه المصير”.

ومن ذلك نرى أن دراسة التاريخ في عصر الملك الظاهر كانت في المحل الأول من عناية الكتاب، ولم يعن أحد منهم بدراسة العلوم العقلية كالجغرافية والفلسفة

(١) كان في أول عهده مدرّساً بجماه، ثم قدم إلى القاهرة سنة ١٢٦١، فأرسله الملك الظاهر إلى منفرد ملك صقلية ليتفق معه على عقد معاهدة بين البلدين، ف قضى هناك وقتاً طويلاً ألف فيه كتابه “نخبة الفكر في المنطق” Enc. Isl. art Ibn Wasil.

والكيميااء والفلك . وقد يكون هذا راجعا إلى أن الدراسة في ذلك الوقت كانت مقصورة على العلوم الدينية .

وكان من مظاهر الأدب في هذا العصر النثر الفنى والنظم . وقد تجلّى الأول في الرسائل التى كانت تحرّر بديوان الإنشاء باسم السلطان وترسل إلى حلفائه من الملوك والأمراء وإلى ولاياته وعماله بالأقاليم . وكان يعنى فيه بترتين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية . أما النظم فإنه على الرغم مما أصابه كان أرقى من النثر كثيرا، لأن تقيده بالوزن والقافية لم يجعل فيه متسعا لتراكم المحسنات اللفظية وتزاحمها . ولم يصل إلينا منه إلا النذر اليسير، وأغلبه مدح للسلطان ووصف لانتصاراته .

ومن أشهر الشعراء الذين ظهوروا في عصر بيبرس : الشيخ عبد العظيم بن الجزار وكان من فحول الشعراء ^(١) . ومن شعره الرقيق قوله يشكو بعض أبناء زمنه :

مَن منصفى من معشر	كثروا على وأكثروا
صادقهم وأرى الخرو	ج من الصداقة يعسر
كالخط يسهل فى السطو	ر ومحوه يتعذر
وإذا أردت كشطه	لكن ذاك يؤثر

ومن الشعراء الذين عاصروا بيبرس مجاهد بن أبى الربيع سليمان بن مرهف المصرى المتوفى سنة ٦٧١ هـ . وكان فاضلا أديبا . ومن شعره ^(٢) :

أعد ياربُ ذكرى أهل نجد	فإن لك اليد البيضاء عندي
أشيمك بارقا فيضل عقلي	فواجباً تضل وأنت تهدي
بعثت مع النسيم له سلاما	فما عنوا على له برد

(١) ابن إياس ج ١ ص ١٠٨ - ١٠٩

(٢) ابن شاعر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٣١

وهناك شاعر آخر عاش في عصر بيبرس ، وهو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ . وقد ولد هذا الشاعر بدلاص من قرى مديرية بنى سويف سنة ٦٠٨ هـ ، ونشأ ببوصير وانتقل إلى القاهرة ، وفيها تعلم علوم العربية والأدب ، واشتغل بالكتابة والشعر ، وولى الكتابة فى الدواوين ، وتصرف فى مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم ، وباشربليس قصبة الشرقية فى ذلك الحين . ولم يرق فى نظره هذا العمل لما كان يراه من خيانة بعض العمال وسلب أموال الدولة فقال فيهم قصيدته المشهورة التى مطلعها ^(١) :

نَقَدْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَخْدِمِينَ فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا
فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ مَعَ التَّجْرِيْبِ مِنْ عَمْرِى سَنِينًا

ويمتاز شعر البوصيرى بالرصانة والجزالة ويكثر فيه مراعاة البديع . ومن شعره قصيدة البردة وهى من أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم وأولها :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِرَانٍ بَذَى سَلَمَ مَرَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاطِمَةٍ ^(٢) وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ اِضْمٍ ^(٣)

ومن حكمها البديعة :

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تَهْمَلِهِ شَبَّ عَلَى حَبِ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطِّمُهُ يَنْفَطِمِ
فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَازِرْ أَنْ تُؤَلِّيه إِنَّ الْهَوَى مَا تُولَى يُصِمُّ ^(٤) أَوْ يَصِمِ

وله قصيدة أخرى همزية فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم لا تقل عن البردة فى فصاحتها وأولها :

(١) ابن شاکر الکتبی : فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٥ — ٢٠٦

(٢) بلدة تقع على ساحل الخليج الفارسى من بلاد الجزيرة العربية على مقربة من مصب دجلة والفرات .

(٣) واد يتدفق من غربى المدينة ويصب فى بحر القلزم (البحر الأحمر) .

(٤) أى ما تولى منه من أصميت الصيد اذا قتلته وأنت تراه — (أو يصم) من وصم العود اذا

صدعه أو من الوصم بمعنى العيب .

كيف تَرُقُّ رُقَيْكَ الْأَنْبِيَاءُ يا سَمَاءَ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
لم يُدَانُوكَ فِي عُلَاكَ وَقَدْ حَا لَ سَنَّا مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَاءُ^(١)
أَمَّا مَثَلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ سِ كَمَا مَثَلُ النُّجُومِ الْمَاءُ
أَنْتَ مُصْبِحُ كُلِّ ضَوْءٍ فَمَا تَصُ دُرُ الْإِلَهِ عَنْ ضَوْئِكَ الْأَضْوَاءُ

وقد نسج على منوال هاتين القصيدتين كثير من الشعراء بعد البوصيرى، ولكنهم لم يشقوا له غبارا بل تأخروا عنه. ولذلك يقول أمير الشعراء أحمد شوقي بك في قصيدته التي عارض بها البوصيرى وسماها "نهج البردة" يعتذر عن تأخره عن اللحاق بالبوصيرى :

المادحون وأربابُ الهوى تبِعُ لصاحب البردة الفيحاء في القِدم
مديحُه فيك حبٌّ خالصٌ وهوى وصادقُ الحبِّ يملُ صادقَ الكَلِمِ

وقد توفي البوصيرى بالأسكندرية سنة ٦٩٥ هـ. وله مسجد كبير بها يعرف الآن بمسجد الأباصيرى تقيم فيه الحكومة الاحتفالات الدينية. وقد جدد هذا المسجد في أيام المغفور له سعيد باشا الأول وإلى مصر ونقشت البردة على جدرانها.

وهناك شعراء آخرون نظموا شعرا أشادوا فيه بذكر بيبرس في الحفل الذى أقامه لافتتاح المدرسة الظاهرية وهم : الأديب أبو الحسين الجزار، والسراج الورّاق، والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب^(٢) :
ومما قاله أبو الحسين الجزار :

ألا هكذا بينى المدارس من بنى ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك همّة بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنّا
تجمّع فيها كلُّ حُسْنٍ مفريق فراقَتْ قُلُوبًا لِلْأَنَامِ وَأَعْيُنًا

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٣٧٩

(١) السنا : النور . السناء : الرفعة .

ومذجأورت قبر الشهيد فنفسه النفيد
وما هي إلا جنة الخلد أزلقت
وقال السراج الوراق :

مليك له في العلم حب وأهله
ولا تذكرن ملكا فيبيرس مالك
ولما بناها زعزعت كل بيعة
وقد برزت كالروض في الحسن أنبات
ألم تر محرابا كأن أزاهرا
فله حب ليس فيه ملام
وكل ملوك في يديه غلام
متى لاح صبح فاستقر ظلام
بأن يديه في النوال غمام
تفتح عنهن الغداة كمام^(١)

ومن قول الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب :

قصم الملوك حماك والخلفاء
أنت الذي أمراؤه بين الوري
ملك تزيت الممالك باسمه
وترفعت لعلاه خير مدارس
يبقى كما يبقى الزمان وملكه
كم للفرنج وللتار ببابه
وطريقه لبلادهم موطوءة
دامت له الدنيا ودام مخلدا
فانخر بأن محلك الجوزاء
مثل الملوك وجنده أمراء
وتجملت بمديحه الفصحاء
حلت بها العلماء والفضلاء
باق له ولحاسديه فناء
رسل منها العفو والاعفاء
وطريقهم لبلاده عذراء
ما أقبل الاصباح والامساء

ولم يكن هذا كل ما قيل من الشعر في عهد بيبرس، بل هناك أشعار أخرى
نظمها محي الدين بن عبد الظاهر :

فمن قوله عندما استولى بيبرس على حصن عكار^(٢) :

يا مليك الأرض بشرا
إن عكار يقينا هي
ك قد نلت الإرادة
عكا وزيادة

(١) كام : جمع كم، وهو غلاف النثر . (٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ص ٥٦٦

(١) ومن قوله أيضا عندما استولى الملك الظاهر على سييس :
 يا ويح سييس أصبحت نهبةً كم عوق الجارى بها الجارية
 وكم بها قد ضاق من مسلكٍ يستوقف الماشى بها الماشية

وله غير ذلك قصيدة يهني فيها بيبرس بعيد الفطر سنة ٦٧٢ هـ وبختان ابنه
 نجم الدين خضر وفيها يقول :^(٢)

يامالك الدنيا ومن بعزمه الدين نصر
 هنئت بالعيد وما على الهناء اقتصر
 لكتبا بشارة لها الوجود مفتقر
 تفرحة قد جمعت ما بين موسى والخضر

فأنت ترى مما أسلفنا لك من النظم الرائع أن الحالة الأدبية في عصر بيبرس
 لم تكن متأخرة إلى الحد الذي يظن لأوّل وهلة . فإن كثيرا من مؤرخي الأدب
 يرمى هذا العصر بالجمود الشعري ؛ ولكننا نرى في بعض هذه القصائد والقطع روحا
 شعرية عالية وطلاوة ومعاني مبتكرة ، كما سنرى قصيدة أخرى رائعة من نظم
 محي الدين بن عبد الظاهر في رثاء الظاهر بيبرس وتهنئة ابنه الملك السعيد بالملك .
 وهى في نظرنا لا تقل روعة عن غرر القصائد في أزهى عصور الأدب . ولا شك
 أن هناك أشعارا أخرى ضائعة ربما كانت أعلى من هذه في الجودة . والزمان كفيل
 بكشف النقاب عنها .

٧ - الحالة الاجتماعية

كان يقطن بمصر في عهد بيبرس عدّة عناصر من السكان بجانب أهل البلاد
 الأصليين ، نخص بالذكر منهم المماليك والتتار والأكراد والأتراك .

(١) ابن شاعر الكسبي : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٣٦

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١١٥

ولم يكن لأى عنصر من هذه العناصر أى نفوذ سوى الممالك الذين كانت تكون منهم الطبقة الحاكمة ومعظم الجيش ، كما كان يسند إليهم أكبر مناصب الدولة . وقد احتفظوا بجنسيتهم وترفعوا عن الاختلاط بالمصريين^(١) والمصاهرة معهم ، وحرصوا كل الحرص على بقائهم طائفة عسكرية حاكمة .

وكان هؤلاء الممالك مولعين بالألعاب الرياضية وحب القتال واستعراض الجيوش ، كما عنوا بالصيد والسباحة وسباق الخيل والرمية . وقد سبقهم إلى ذلك بيبرس الذى مهر فى السباحة حتى قيل إنه عبر النيل وعليه درعه يتبعه كثير من الأمراء ، كما مهر أيضا فى رمى السهام . وبلغ من عنايته بالرمية أنه أقام لها ميدانا خارج باب النصر كان يمكث به من وقت الظهيرة إلى غروب الشمس يشجع فيه الأمراء على الرمي والنضال ، حتى أصبح فن الرماية الشغل الشاغل لهم ولرجال حاشيته^(٢) .

وبينما كان الممالك يعيشون عيشة الترف ، كان المصريون على العكس من ذلك لا عمل لهم إلا زراعة الأرض ودفع الضرائب . وكانوا يقومون فوق ذلك بصنع ملابسهم الفاخرة وبناء عمائرهم . غير أنهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من بعض المناصب الحكومية ؛ فكان يسند إليهم الوظائف الدينية والقضاء^(٣) .

أما أهل الذمة فلم يعاملهم بيبرس معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، لكثرة ما كانوا يقومون به من المناوشات والفتن . فقد حدث أن كثر الحريق بالقاهرة أثناء

(١) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 216.

(٢) كان يعرف هذا الميدان باسم ميدان القبق . ويقال له أيضا الميدان الأسود وميدان العيد والميدان الأخضر وميدان السباق وكانت تنزل به العساكر لرمي القبق . المقرئى : خطط ج ٢ ص ١١١ وقد زاد على ذلك المقرئى فوصف لعب القبق بقوله " إنه عبارة عن خشبة عالية جدا تنصب فى براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهم جوف الدائرة لكى تمر من داخلها الى غرض هناك تمرينا لهم على إحكام الرمي " .

(٣) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages

(٤) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 253. p. 250-251

اشتغاله بغزو أرسوف سنة ٦٦٣ هـ، وأشيع أن النصارى هم الذين أشعلوا هذه النيران. فعندما قدم الملك الظاهر إلى مصر أنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم، ثم أمر بإحراقهم، فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاي أتابك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيمة ما أحرق، وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار في كل عام. فأطلق سراحهم السلطان وتولى بطريكتهم دفع الأموال المطلوبة منهم، وتعهدوا بالآلا يعودوا إلى فعل شيء من المنكرات وبآلا يخرجوا عما هو مقرر لأهل الذمة^(١).

كذلك كان بالقاهرة جالية من التتار قدموا إلى مصر في أوائل عهد الملك الظاهر، واتخذوا الإسلام ديناً لهم وأقاموا في دور بنيت لهم في أراضى اللوق^(٢). وكانوا موضع عناية السلطان فمنحهم بعض الاقطاعات. وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التي عامل بها بيبرس هؤلاء التتار أن كثرت عدد الوافدين منهم، وتزايدت بذلك العمائر في اللوق والجهات التي حوله^(٣).

أما الأكراد والأتراك فلم يكن لهم شأن يذكر في ذلك العهد. وكان بعضهم جنوداً في جيش السلطان، وفيما عدا ذلك لم يكن لهم أى نصيب في الحياة العامة. وإلى جانب هذه العناصر كان هناك بعض طوائف من الفرنجة يستوطنون الثغور المصرية ويستغلون بالتجارة وليس لهم أى نفوذ في البلاد.

هذا، وقد حرص الملك الظاهر على نشر الفضيلة بين أفراد رعيته. فألزم رجال حاشيته وبطانته بأداء الصلوات في أوقاتها ليكونوا قادة الشعب في الأمور الدينية كما هم قادته في الشؤون السياسية، وأتى على ما كان بالبلد من منكرات، فمنع

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٣٥ ؛ مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد

ص ١٣٤ — ١٣٥

(٢) ذكر المقرئى : خطط ج ٢ ص ١١٧ ؛ أن اللوق كانت تطلق في عهده على الجهات التي

تعرف اليوم بباب اللوق .

(٣) المقرئى : نفس المرجع ص ١١٧ — ١١٨

المسكرات وخرب بيوتها ، كما أصدر أوامره بإغلاق محال البغاء وخاصة ما كان منتشرا منها بالأسكندرية . وكان يسير بنفسه ليلا في شوارع القاهرة ليقف على أحوال رعيته ، ثم يصدر تعليماته بما يجب اتباعه لنشر الأمن والطمأنينة .

وكان بيبرس بجانب ذلك شديد الوطأة على النساء . ولا عجب في ذلك فقد كان سنيا مغاليا في مذهب السنة ؛ فمنع النساء من أن تتعم وتتريا بزى الرجال ، كما اضطهد المغنين والمغنيات وأرباب الملاهى والخلاعة والمجون ، فضاقت بهم سبل العيش في عهده وقل عددهم واستراحت البلاد من مفسدهم^(١) .

(١) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٠٠ و ٥٠٣ و ٥٤٠ و ٦١٢

خاتمة القول في بيبرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة

الشيخ

الشيخ

خاتمة القول في بيبرس

نجح بيبرس في سياسته التي كانت ترمي إلى إعلاء شأن مصر، فأخضع الصليبيين ببلاد الشام واستطاع أن يسطر نفوذه على بلادهم، كما صد غارات المغول عن مصر ومدّ حدودها جنوباً في بلاد النوبة إلى حدّ لم يبلغه سلطان من قبله . وفي ذلك يقول صاحب كتاب "المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية" : "كان الملك الظاهر قد ملك فأصبح، وسعى في ذات الله فأنجح، وقام بأعباء السلطنة أيما قيام وسهر في إقامة منار الإسلام والناس نيام، وأعمل الركاب في قطع شوكة عدوّ الله من الفرنج والتتار ... وجاء والنصر فكاننا كنا على ميعاد . فلم يزل رحمه الله يدأب في افتتاح الحصون المغلقة ... ومهاجمة العدو في عقر الدار، واستئصال شأفة الفرنج والأرمن والتتار ... فدوّخ البلاد وسلب الطارف والتلاد، وبدأ في غزو أعداء الله بنفسه، وأغار وهاجم وتجهّم، وحكم وتحكم، وعلم وعلم وهزم الجيوش وأوحش حتى الوحوش، واستغرق مدّة ملكه في بلاد يفتحها وغزوات يختمها بالنصر ويفتحها . وأفى العدة بعزائمه الماضية وهزأته التي هي بالدمار على الأعداء قاضية، ومعاركه التي ما برحت لوعده الله في نصره عليهم متقاضية، وجعل الكنائس مساجد والبيع لذكر الله معاهد، وأعدم المغل من التتار، وأخلى منهم الدار والجار، وأدب بسيفه من جار ... " .

كذلك كسب بيبرس محبة الأهلين بما سنه من القوانين وما اشتهر به من الحكمة والخضوع لأحكام الشريعة الغراء وتقديس فرائضها والعمل على ترقية شئون البلاد وتنمية مواردها، فحفر الترع وأصلح الحصون وأسس المعاهد الدينية والمساجد التي

(١) شافعي بن علي بن عباس : ورقة ١٣ — ٣ ب .

(٢) أصبح = عفا .

كان يجلس فيها العلماء ويؤمها الطلاب من أقاصى البلاد ، وأعاد الأزهر الى سابق مجده ؛ فسجل اسمه بذلك في سجل العظماء وصحيفة الملوك المصلحين .

على أن هذا لم يكن كل ما اشتهر به بيبرس ؛ فقد امتاز أيضا بشجاعته وعدالته . تظهر لنا شجاعته في جميع أدوار حياته المختلفة في القيادة والملك . فأيام كان قائدا ظهرت شجاعته في كثير من المواقع الحربية ، نخص بالذكر منها موقفه إزاء الصليبيين في موقعة المنصورة التي انتهت بانتصار المصريين على الصليبيين ، وكذلك في موقعة عين جالوت التي صدت فيها جيوش قطز بقيادة الأمير بيبرس جيوش التتار التي أغارت على بلاد الشام إغارة أخافت الأهلين وأوقعت الرعب في قلوبهم . فكان لبيبرس الفضل الأسمى والقدر المعلى في إعادة الطمأنينة إلى نفوس المسلمين ، وإزالة ما نزل بهم من خوف ورعب ، وما حل بهم من اضطراب إزاء إغارة هذا العدو المدمر . ونرى أيضا شجاعته عند ما تولى سلطنة مصر ممثلة في كل الوقائع الحربية التي فصلنا القول فيها ، وكلها — كما رأينا — كللت بالفوز وتوجت بالظفر بهمة بطلمها ورجل حلبتها بيبرس .

أما عدالة بيبرس فتجلى لنا — عند ما أصبح قائدا — في معاملته العسكر معاملة حسنة ليس فيها محاباة لشخص ولا ظلم لآخر ؛ فكلهم عنده سواسية ، لا تفضيل بينهم ولا إظهار لأحدهم على الآخر مهما بلغت صلته به إلا بعمل جليل يقدمه للدولة . ونرى أن تلك الصفة قد ظهرت فأضاءت جزءا عظيما من صحائف التاريخ حينما صار بيبرس سلطانا على مصر وما إليها من البلاد التابعة لها . فقد كان أحسن مثل للحاكم العادل ، يجلس بنفسه للظالم فيقضى بين الناس بالعدل ويرد الحقوق إلى أصحابها ، ويضرب على أيدي المعتدين والعابثين بالنظام والأمن ولو كانوا من خاصته . كذلك خفف بيبرس أعباء الحياة عن شعبه ، وذلك بعطفه على الفقراء والمعوزين . فأرغد المساكين بالعطايا والنعم الجزيلة ، وظهر ذلك جليا عند ما اشتد الحال بالناس سنة ٦٦٢ هـ وعدمت الأقوات وضح الفقراء من الجوع فأحصاهم ، وكلف كل أمير

بالانفاق على عدد معين منهم وتولى هو بنفسه الانفاق على خمسمائة فقير، كما عمل على تخفيف آلام ذوى العاهات، فنقلهم إلى مدينة القيوم وأفرد لهم بلدة تغل عليهم ما يكفيهم^(١).

ولم يكن بيبرس بالرجل المعتدل في كل أموره؛ فقد أخذ عليه المؤرخون غدره بتوران شاه وقطر وعدم وفائه بالعهد الذى أعطاه للملك المغيث. لكننا نقف من الحكم عليه على هذه التهم موقف الحيطة والتدبر، فنرى أن الحادثين الأولين كان الباعث عليهما خوفه على حياته من أن تمتد إليها الأيدي بالقتل. فإن تورانشاه كان قد اعترم الفتك بجميع الممالك البحرية بما فيهم بيبرس، فارتكب هذا ما ارتكب تخليصا لنفسه ولقومه. وأما ثمانية هذه الحوادث فسببها أن قطر كان قد وعد بيبرس بأن يوليه ولاية حلب، ثم لم يلبث بعد ذلك أن نقض وعده وبيت فوق ذلك مكيدة أراد بها أن يقضى على حياة بيبرس. وبذلك لم يكن هناك بد في هاتين الحادثتين من التخلص من عدوبات يتربص به دائرة السوء ويتربص له مصرعا عاجلا. ونحن لذلك نخالف المؤرخين فيما ذهبوا إليه في تصوير هذه الحوادث. فهو لم يقصد إلى الغدر قصدا، وإنما أراد الدفاع عن النفس وهو أمر مشروع. أما ثلاثة هذه الحوادث فإن بيبرس لم يقتل الملك المغيث إلا حينما اتصل به تواطؤه مع التتار على القضاء على الممالك. عرف بيبرس هذه المكيدة المدبرة من المكاتبات التى دارت بين الفريقين المتآمرين والتى وصلت الى يده وقرأها على رجال دولته حتى لا يعتقدوا أنه غدر بالمغيث. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه بعمله هذا أراد أن ينبههم إلى الخطر المحدق بهم وبلادهم ليشاركوه حرصه على حماية البلاد واتخاذ التدابير اللازمة لذلك.

وأما ما ينسب إليه من مصادرة أموال بعض الأغنياء، فنحن نعتقد أنه ما فعل هذا إلا لإعداد جيشه. والرجل الذى أسس دولة حديثة نتطلع إليها نفوس الغزاة

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٠٧ — ٥٠٨ و ٥٥٣.

وعيون المحاربين لفي شدة الحاجة الى المال الذي يعزز به كيان دولته ويقوى به جنده . وليس في استطاعتنا أن نتصور من أين يجمع الأموال لإعداد جيوشه إذا لم يحصل عليها من هذه الناحية . فقد كان على هؤلاء الأغنياء أن يقدروا خطورة الحالة التي تحيط ببلادهم ، وأن يخرجوا عن بعض أموالهم في سبيل حماية بلادهم والزود عن حياضها . فإن الرجل وماله ملك لدولته في وقت الخطر . وما دامت حياته تعد رخيصة بجانب حفظ كرامة بلاده فأولى ثم أولى ماله . لذلك لا نعد عمل بيبرس مصادرة بالمعنى المعروف ، وإنما هو درس وطني يلقيه على هؤلاء البخلاء الذين كان يجب عليهم أن يبذلوا عن سعة كما قال تعالى : ﴿ وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ . وهذا خير من إرهاب الضعفاء والفقراء من أبناء الشعب بضرائب لا قبل لهم بها ، مما يؤدي الى ثورتهم في وقت كانت البلاد فيه أحوج ما تكون الى الهدوء والسكينة .

وفاة بيبرس

لم يكد الملك الظاهر يتمتع بثمره جهاده ونتائج أعماله حتى عاجلته المنية على أثر عودته الى دمشق من موقعة قيسارية .

وقد تضاربت أقوال المؤرخين في سبب وفاته . فيذكر أبو الفداء^(١) ، وبيبرس الدوادار^(٢) ، والشيخ قطب الدين اليونيني^(٣) أنه مات مسموما . غير أن المؤرخين الأولين يرويان لذلك رواية نستبعدوها ولا نطمئن الى صحتها فيقولان : إنه لما انخسف القمر خسوفا كلياً وشاع بين الناس أن رجلاً عظيم القدر سيموت ، أراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل الى غيره ، فدعا الملك القاهرة الأيوبي لشرب القمزمعه^(٤) . ولما قدم اليه دس له السم وأخطأ الخادم فوضع لبيبرس القمزم في الكأس الذي شرب منه الملك القاهرة فاعتزته الحمى ، ولم يلبث بعد ذلك أن مات في يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦ هـ . أما اليونيني فإنه يعزو دس السم للملك القاهرة الى سببين : (أولهما) حقد بيبرس على ذلك الأمير عندما كان معه ببلاد الروم وأبلى بلاء حسناً كان موضع إعجاب الناس ، و(ثانيهما) استياء الملك الظاهر منه لأنه انتقده على توريطه عساكره ببلاد الروم ، فأسرله ذلك الى أن قدم دمشق ، فدعاه لشرب القمزمعه ودس له السم .

ويروى المقرئى رواية أخرى هي أقرب الى الحقيقة من الروايات السالف ذكرها ، وهى أن بيبرس على أثر قدومه الى دمشق جلس في يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٦٧٦ هـ يشرب القمزم . وقد عظم سروره من انتصاره على المغول والروم ، فأكثر من الشرب . ولما انتهى من ذلك شعر بفتور وتوعك واشتد عليه الألم

(١) المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ١٠ (٢) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة

ج ٩ ورقة ١٢٦ (٣) الذيل على مرآة الزمان ج ١٧ ورقة ١١٢ - ١١٣

(٤) القمزم : نبيذ يعمل من لبن الخيل . وكان بيبرس مشغولاً بهذا النوع من الشراب

Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 273.

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٦٣٥

عندما ذهب الى ميدان دمشق في اليوم التالي ، فجهاز له بعض خواصه دواء لم يكن ناجعا . فاستدعى الأطباء فأشاروا عليه بأخذ دواء مسهل . غير أن ذلك لم يخفف عنه وطأة المرض ؛ فظلت قواه تضعف حتى قضى نحبه ، فكتب الأمير بدر الدين بيلبك الخازن دار نعيه عن الجمهور وأرسل الى الملك السعيد يخبره بوفاة والده ، ثم وضع جثة الملك الظاهر في تابوت ونقلها الى قلعة دمشق ، فظلت هناك الى أن اشترى الملك السعيد دار العقيقي بدمشق وأعدّها لتكون مدفنا لوالده . ولما تمت عمارتها احتفل بدفنه بها في ليلة الخامس من شهر رجب سنة ٦٧٦ هـ بعد أن صلى عليه في صحن جامع دمشق^(١) .

وهكذا انتهت حياة ذلك الملك العظيم والقائد المحنك والسياسي الماهر ، فطويت بموته صفحة من صفحات المجد والعظمة ، وورثاه كاتب سره محي الدين ابن عبد الظاهر بهذه الأبيات^(٢) .

الله أكبر إنها لمصيبة	منها الرواسي خيفة تتقلقل
لهفى على الملك الذي كانت به الد	نيا تطيب فكل فقر مـنزل
الظاهر السلطان من كانت له	منز على كل الورى وتطول
لهفى على آرائه تلك التي	مثل السهام الى المصالح ترسل
لهفى على تلك العزائم كيف قد	غفلت وكانت قبل ذا لا تغفل
ما للرمال تخولتها رعدة	لكنها إذ ليس تعقل نعقل
سهم أصاب وما رمى من قبله	سهم له فى كل قلب مقتل
أنا إن بكيت دما فعذرى واضح	ولئن صبرت فإننى أتمثل
خلف الشهيد لنا السعيد فأدمع	منهالة فى أوجه تهلل

فرحم الله بيبرس وأجزل مثوبته وأسكنه فراديس جنته وجزاه خيرا عن
الإسلام والمسلمين .

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٦٨ — ٣٦٩

(٢) ابن إياس ج ١ ص ١١٠ — ١١١

مصادر الكتاب

(١) المصادر العربية

- (١) ابن أبي الفضائل (مفضل ...) :
- ”كتاب النهج السديد والدُر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد“
(Paris 1911, 1920.)
- (٢) ابن إياس (+ ٩٣٠ هـ ، ١٥٢٣ م) : أبو البركات محمد بن أحمد .
- ”كتاب تاريخ مصر“ المعروف ”بيدائع الزهور في وقائع الدهور“
(بولاق سنة ١٣١١ هـ) .
- (٣) ابن حجر العسقلاني (+ ٨٥٣ هـ ، ١٤٤٩ م) : شهاب الدين بن علي .
- ”رفع الاصر عن قضاة مصر“ (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .
- (٤) ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ ، ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد .
- ”العبر وديوان المبتدأ والخبر“ (القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ) .
- (٥) ابن شاكر (+ ٧٦٤ هـ) : نحر الدين محمد ... بن أحمد الكتبي .
- (١) ”عيون التواريخ“ (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .
- (٢) ”فوات الوفيات“ .
- (٦) ابن عباس : شافعي بن علي بن عباس .
- ”المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية“ (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس) .
- (٧) أبو الفدا (+ ٧٣٢ هـ ، ١٣٣١ م) : اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه .
- ”المختصر في أخبار البشر“ .

(٨) أبو المحاسن (+ ٨٧٤ هـ ، ١٢٥٤ م) : جمال الدين بن يوسف
ابن تغرى بردى .

”النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة“ (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(٩) ابن واصل (+ ٦٩٧ هـ) : جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم
”مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب“ (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(١٠) بيبرس الدوادار (+ ٧٢٥ هـ) .

”زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة“ (مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية) .

(١١) السيوطى (+ ٩١١ هـ) : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد .

(١) ”تاريخ الخلفاء وأمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة“ .

(٢) ”حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة“ .

(١٢) العيني (+ ٨٥٥ هـ) : بدر الدين محمود .

”عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان“ (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(١٣) القلقشندى (+ ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد .
”صبح الأعشى فى صناعة الانشا“ .

(١٤) المقرئى (+ ٨٤٥ هـ ، ١٤٤١ م) : تقي الدين أحمد بن على .

(١) ”السلوك لمعرفة دول الملوك“ (طبعة الدكتور زيادة) .

(٢) ”المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار“ (طبعة بولاق ١٣٧٠ سنة هـ)

(١٥) النويرى (+ ٧٣٢ هـ ، ١٣٣٢ م) : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .

”نهاية الأرب فى فنون الأدب“ (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(١٦) ياقوت (+ ٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى .

”معجم البلدان“ .

(١٧) اليونينى (+ ٧٢٦ هـ) : الشيخ قطب الدين .

”الذيل على مرآة الزمان“ (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(ب) المصادر الافرنجية

(1) ARNOLD, PROF. (SIR THOMAS)

1. — "The Preaching of Islam."

2. — "The Caliphate."

(2) BARKER, ERNEST.

"The Crusaders."

(3) BROWNE, : EDWARD G.

✓ Vol. II "Literary History of Persia from Firdawsi to Sa'di."

✓ Vol. III "Persian Literature Under Tartar Dominion."

(4) DAVIES, REV. E. J.

"Invasion of Egypt in A.D. 1249 (A.H. 647) by Louis IX of France.

(5) HEYD; W.

"Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age."

(6) JOINVILLE, (SIRE DE)

"Memoirs of the Crusades."

By Villehardouin & Joinville. Translated by Sir Frank Marzials.

(7) KING.

"The Knights Hospitallers in the Holy Land."

✓ (8) LANE - POOLE, STANLEY.

"A History of Egypt in the Middle Ages."

(9) LE STRANGE (G.).

"Palestine under Moslems."

(10) MUIR, (SIR WILLIAM).

1. — "The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall."
2. — "The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt."

(11) NICHOLSON, PROF. REYNOLD. A.

"Literary History of the Arabs."

(12) STEVENSON, W. B.

"The Crusaders in the East."

(13) CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY, Vol. IV.

(14) ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM.



كَمَل طبع كتاب "الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره"

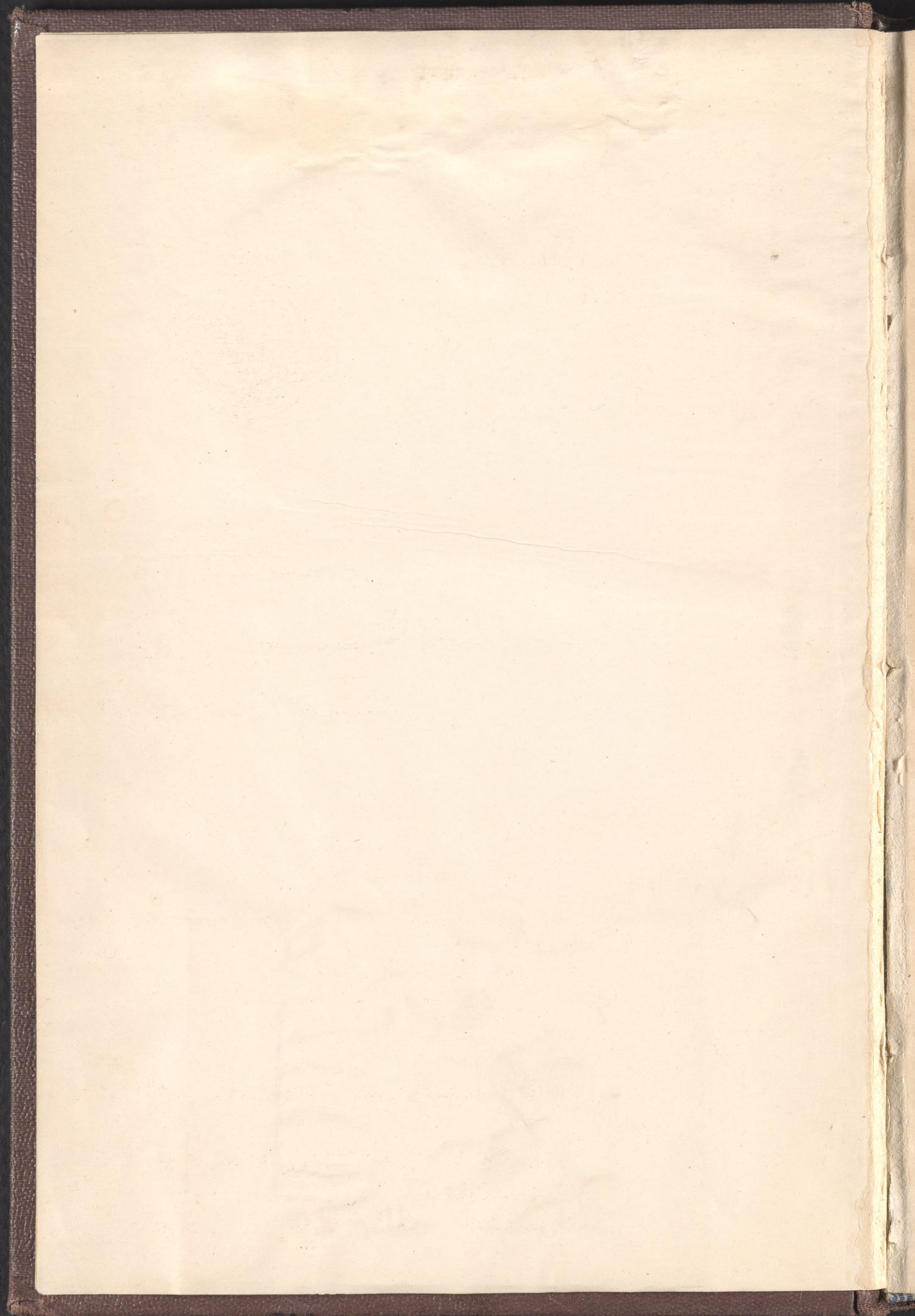
بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الأحد ٢٧ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧

(٢٦ يونيو سنة ١٩٣٨ م)

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب

المصرية



AUC - LIBRARY



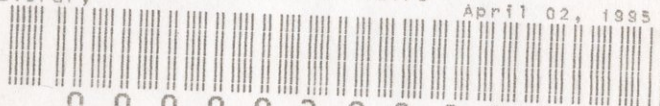
DATE DUE

A.U.C	
26 NOV 1995	

D
198.4
B3
S9
1938

The American University in cairo
Library

April 02, 1995



0 0 0 0 0 3 2 3 9 9 9

i 15021609
b13187132

